

الأخيدة (قضية رأي عام)

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٩/٢٣٥٧٩

بطاقة فهرسة

الهيبيان، نهلة
الأخيذة: رواية/ نهلة الهيبيان ط ١ - القاهرة: دار

غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٩

٣٤٢ صفحة؛ ١٤ X ٢٠ سم

تدمك: ١-٢٠١-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١ - القصص العربية

أ - العنوان

٨١٣



الغراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر - القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

رائد مجدي

التدقيق اللغوي

خالد رجب عواد

التنسيق الداخلي

أحمد البسيوني

الأخيدة

(قضية رأي عام)

رواية

نهلة الهبيان

إهداء

إلى حروف قُدت من روح:

اعلمي أنك ما تخلقتِ إلا من جينات الحُسْن، وما سُقيتِ إلا من زلال
البديع، وما طَعِمْتَ إلا من ثمار الحسّ النضجة، فما لكِ من عرش تعتليه
بعد مهد الطهر إلا عروش الرفعة، فلا تتململين بكَيٍّ وإن اشتد المخاض،
وطال مداه، وعظمت الشقة وأنستك الوحدة، وعصى الجذع عن الاهتزاز،
وآيسَتِ التساقط، حتما سيساقط عليَّ وعليكِ ذات ساعة إجابة وحيًا جنيا،
فإياكِ والجزع!

إلى كل من ادعى القوامة الأدبية:

تفقد نواياك قبيل رفع الشعارات والإصداح بها في كل مجلس، وصرح
عن أي سوق للأوراق تبغي الولوج حاملا على كاهليك عباءة الرعاية، وإلا
فالزم حدود مسماك الوظيفي كونك تاجر أوراق لا راعيا لها، فكلكم راع
وكلكم مسؤول عن رعيته، ولتتق حق الادعاء لئلا يكتب عليك في صحاف
الأدب النصوص جريرة.

إلى وريد يمدني بحياة من بعد الحياة:

يا كلي وبعض دمي، يا من قلت لي يوما أود أن أرى كتابك عند بائع الكتب، أحتضنه بعيني من بعيد إذ أقدم عليه، تتلقفه أناملي من وسط ندمائه فتطبق عليه راحتي أن التقينا، أمسح عليه بيدي معنفاً كل ذرة غبار قد تعدت حدود الأدب معه ولا مست غلافه، متوعدا إياها إن كررت العود، تنقضي جلستي معه، ثم أودعه واضعاً إياه على رف المكتبة بحبور وفخر أن هذا نتف من روح أمي ونذر شعور مما يحتاجها.

فها أنا أحقق الآن أمنيتك في روايتي الأولى، وأسألك إتيان ما انتويت لعل في احتضانك لها كل البر لمن اتخذت من الكلمات ابنة لها تشاطرك في الروح والقلب والنفس.



الفصل الأول

أول الذكريات أكمة

لم نخير قبل قدومنا إلى الحياة أن نرغب في المجيء أم لا؟ فربما لو خیرنا ما كان على وجه الأرض إنسي، بيد أن أقدار الله في اللوح مقدره ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَكَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وجئنا إلى الدنيا نكابدها وتكابدنا، وإن من أعظم ما نكابده فيها هو ذلك السؤال الوجودي الغير قابل للاندثار أو حتى التغيير: "من نحن"؟

فعلى الرغم من معرفة العقل للإجابة إلا أنها الأنفس المحمومة بالأكدار، والقلوب المنحورة على دجى الظلم، والأرواح المشخنة بغوائل الزمن حين تترنح فاقدة السيطرة على لجام حيرتها. لتكون الإجابة بعد نطق الشطر الثاني من السؤال عدة مرات نحن، نحن، نحن. ثم يعقبه الصمت، فلا خبر يستند

عليه المبتدأ لصياغة جملة عربية سليمة المبني، وكذا يكون الفشل مؤكدا في أن تجد تعريفا للضمير "نحن" بقاموس الفكر الإنساني.

فما أشقانا في تلكم اللحظات الصامتة حيث يتوقف فيها الكون المهيب عن كل حركة بعين أرواحنا الشاخصة إلى حيث اللاشيء!

لا ضير في مباغته السكون وقتئذ - على حين غرة من العقل - بضحكة عرجاء في وجه حياة ذليلة أخذت عنوة وعُذبت بالترك مغتصبة في عراء القبح فاقدة الوعي، لولا تلك الأنفاس الهزيلة إذ تحاول أن تجد لنفسها مسلكا إلى الصدر شهيقا وزفيرا، وعزاء النفس الوحيد في ضحكتها لعل في الضحك مخرجًا وفتحًا مؤازرًا للروح المقبورة تحت قبة الحياة؛ إذ يحملها على بساط ترددات صدها إلى رحابة الموت المشتهى.

ببقعة نائية عن الصخب، خالية من البشر إلا من شخوص أربعة هم هالة وصغيرتها رهف والخادمة السيريلانكية والحارس الهندي، هؤلاء هم من يسكنون تلك البناية التي يعود نسبها إلى قصور الأمراء، بيد أن أميرها تركها ورحل عنها لا يبغي في ساكنتها سبيلا بعدما قضى منها وطرا غير آبه بها، فمثله لا يميز بين الخبيث والطيب من المشاعر، وربما لم ترد على مسامات خواجه لحظة بأن هناك شيئا اسمه حس؛ ففي قاموسهم الجسد هو القبلية وإليها يتوجهون في كل شهوة تعترهم فلا يُسألون عما يفعلون؛ فالمال عون لهم والجاه راعيهم والسلطان على كل شيء قادر.

فيلاً صغيرة تتوسط مساحة خالية من البنيان إلا غرفة الحارس عند طرفها ملاصقة للبوابة الضخمة، يلف المكان أسوار منيعة وكأنها شيدت بأحجار الفراعنة القدامى فلا تتأثر بحوادث الطبيعة ولو مرّت الأزمان والأزمان، لا يستطيع أي أحد تسليقها ولا انتهاك حرمها ولا يطرأ التفكير بالاقتراب على ذهن أحد من المارين إن مرّوا.

بركنٍ بستاني المحيا تفوح رائحة الورود المزهرة ذات الألوان الجمّة تزين البساط الحشائشي الذي افترشت به الحديقة واتخذت منه الورود لها متكاً تجلس عليه بخيلاء حين تغازلها العيون الذابلة تنتضر وتزهو ولو على مضض.

وبركن آخر مسبح ماء يستعيز بزرقته القاطنون عن ربح الزرقة البحرية، وبعض من الأراجيح والألعاب المناسبة للأطفال، عالم مصغر للحياة يضاهيها رسماً ويخالفها شعوراً وحساً، ليس كالعالم الأكبر الذي لم يتق إليهم كتوقعهم إليه.

تجلس هالة أمام المسبح وبجوارها رهف التي بلغت السابعة من عمرها ليلة أمس، تمشط لها شعرها، تغزل من الخصلات الكستنائية جدائل وكأنها آخر قبس للشفق الأحمر حين يودع السماء راحلاً وقت الغروب.

تمسك الضفيرة بين يديها وترفعها ناحية أنفها تشتم عبق الحب المعتق لسبع سنوات خلت، تداعبها في حنان هادر، جمع في طياته كل معاني الأمومة،

تلثم رأسها بقبلة تأخذها من الحياة طويلا، فتقاطعها رهف بالتفاتة مباغثة
بسؤال تكرر على مسامعها منذ عام:

- أمي...متى سأذهب إلى المدرسة، وأرى أطفالا في نفس عمري؟
وكذلك المعلمات أتمنى أن يكنَّ حنونات مثلك، أمي. أظنين سيكون لي
أصدقاء يلعبون معي ويحبونني؟

هالة: ما كل هذه الأسئلة، مهلا علي يا رهف.

قريبا يا صغيرتي... لا أعلم لم أنت متعجلة هكذا للذهاب إلى المدرسة؟
ربما يحتاج ذلك الأمر لبعض الوقت، عليك أن تنتظري ولا تزجرين.

تتذمر رهف وهي تزم شفيتها عاقدة ذراعيها فوق صدرها قائلة في ثورة
طفولية:

- لا يا أمي، لم أنتظر؛ فلا بد أن تلبي طلبي... أنت قلت لي مسبقا أنك
ذهبت إلى المدرسة في السابعة وها أنا أتممتها، أريد أن أرى الأشياء المخفية
خلف هذه الأسوار التي تحاوطنا، أريد أن ترى عيناى أناسا جددا، منذ
ولدت وأنا هنا مسجونة معك لم نخرج منه قط.

- أخبريني كيف هي الحياة في الخارج؟ أريد أن أراها، ألعب، أركض،
أجري في كل مكان دون أي أسوار ولا بوابات.

ضحكت هالة ضحكا ملتاغا، وقابلت جملة ابنتها بسخرية تلعن من وراء
أحرفها - بهمس لا يصبو حتى إلى أذني رأسها - كل ما في الحياة من بشر،

جاهدت في إخفاء بؤادر حنق يتجلى على ملامح وجهها إشفاقاً على الصغيرة التي لا تزال تحلم بالصورة البهية لتلك الملعونة قائلة:

- لا تخافي يا صغيرة، ليست وردية كما تظنين؛ فالورد لا ينبت في أرض الآكام؟

- وما معنى الآكام يا أمي؟

- الآكام هو يابس العشب الذي تأكله الحيوانات، تعرفين أشكال البهائم، أليس كذلك؟

بلى، أشاهدها في أفلام الكرتون.

- هي التي تأكل هذا العشب.

بينت هالة الكلمة لابنتها وهي تستحضر ساعة سألت أدهم عن معنى آكام التي استوقفتها حين كان يقرأ معها إحدى الروايات الأدبية التي راقته. أفلت من بين ثنايا عقلها طرف خيط الذكريات الذي أمسكت به لتوها صوت ابنتها يدعوها مجدداً إلى استكمال الحديث الذي توقن أنها لن تسلم من بكاء صغيرتها في نهايته إذ تقول:

- حسناً يا أمي، حسناً، حتى لو لم تكن وردية كما قلت، وحتى لو لم تكن جميلة، أريد أن أرى الناس. كيف يفرحون؟ كيف يحتفلون؟ أهم مثل الذين نراهم على شاشة التلفاز يغنون ويرقصون أم أنهم مختلفون؟

أريد أن أراهم وهم يتشاجرون، أيبكون مثلك يا أمي دائما، أم أنت الوحيدة التي تبكين دوما؟

لم تكن هالة تتوقع مدى تأثر ابنتها بحزنها، وأنها تشعر بها إلى هذا الحد وهي التي تجاهد في إخفائه عنها بكل ما أوتيت من جلد.

أجابتها سريعا قاطعة الطريق على ذلك الألم المسترسل في بث كلماته المهيجة إلى خاطر الصغيرة:

- لا يا رهف، ليسوا دائما يبكون، مؤكد أنهم أحيانا يبكون وأحيانا يضحكون، كما نفعل نحن ذلك، أنت تتجني علي وتتهميني بالبكاء والحزن، أأست أنا من كانت تلعب معك بالمسبح أمس، وظللت معك حتى تشبعت أنت من اللعب وقلت كفى؟! أأست أنا من تضاحكك في لعبة الغمضة إذ تجدينني دائما بجوارك، ولا أذهب للاختباء كلما انتهيت من العد؟

- صحيح يا أمي، أنت تلعين معي كثيرا، ولكني أسمعك أكثر وأنت تبكين في غرفتك، أحيانا أستيقظ على صوت صرخاتك وأنت... قاطعتها هالة:

- كفأك.. كفأك يا رهف، هيا، فلتذهبي لتلعي بالأرجوحة.

- لا أرغب في اللعب، سأظل هنا بجوارك ألهو بدميتي.

وراحت رهف تدبر دفة الحديث موجهة إياه إلى عروستها الغافية بين ذراعيها بدلاً من أمها الحقيقية:

- أريد أن أنظر إلى ملامح وجوههم، أريد أن أعرف على أشكال السيارات في الحقيقة، أتشبه تلك التي أراها في التلفاز، أم أنها أجمل أم أسوأ؟

ألا تشعرين أننا في سجن يا أمي كسجن الأميرة النائمة في البرج لا نرى أحدا ولا يرانا أحد سوى الخادمة والحارس؟ طعامنا وشرابنا وكساؤنا يأتينا به الحارس ولا نعرف من ذاك الذي يرسله لنا دون أن يأتي هو بنفسه؟

أريد أن أذهب بنفسني إلى مكان يبيع الملابس وأنتقي فستاني لا أن يأتي لي به أحد إلا لو كان... أبي. أحقا قد يكون أبي؟ إن كان هو لم لم يأت بنفسه إلينا؟ أريد أن أراه، كيف هو؟ اسمه، شكله؟ أتراه يحبني ويشتاقي إلي كما أشتاق إليه، ربما هناك شيء ما سيء منعه عني، إذا ما أتاني يوما سأجعله يحملني ويطوف كما تفعلين معي، ويرفعني على أكتافه كما كنت تفعلين معي في السنوات السابقة. نعم أعلم أنني كبرت على ذلك ولكن لا بد أنه قوي البنيان يستطيع حملي دون مشقة. أما تستطيعين محادثته يا أمي كي يأتي ويذهب معي إلى المدرسة؟ أمي... أمي... لم لا تجيبيني؟

استدارت رهف إلى أمها " هالة " فوجدت وجهها داميا كقطعة لحم يترها الجزار من ذبيحته المذبوحة لتوها وما زال بالعروق نبض يتقافز، يكاد الألم ينفر من تحت جلدها صارخا أن تعبت. ودموعها تهيم على خديها تحاول أن تلطف من وهج حرارته الناجمة عن شدة غليان الدم بهما.

أَلَقْتُ البنت دميّتها طارحة إياها أرضاً، وأمسكت بيدي هالة متلهفة عليها في قلق تسائلها:

- ماذا بك أُمّي؟ ما الذي أصابك؟

أجابتها هالة في وهن وكدر:

- لا شيء، فقط آلام شديدة تكاد تفتك برأسي، هيا لنعود إلى الداخل.

- لكنني أريد أن ألعب لقد مللت الكرّتون، أرجوك هيا لنلعب في المسبح.

- أنا مرهقة جداً ولا أقوى على اللعب الآن، سأتركك تلعبين مع الخادمة وسأدخل أنا لأرتاح قليلاً.

بعدما اطمأنت على طفلتها تلعب بأمان مع الخادمة، تركتها ومشت تحملها قدماها الثقلتان بالجسد المهموم. صعدت الدرج الخارجي ثم دلفت إلى داخل البهو الصغير الذي رغم زخارفه التي لم ترد بمخيلتها يوماً ما أحبته ولا استكانت لجماله ولا هنأت باستراحة قصيرة على فرشه ولم تفاخر أحداً بأثائه، إذ كيف لها أن تفاخر وهي بالأساس حيث اللا أحد؟

من الدرج الداخلي الملتف بنصف استدارة صعدت ومع كل درجة تزفر أنفاساً محملة بآهات يتلظى بجواها الأثير فور التلاقي، وتستنشق أخرى محملة بخيبات لا أمل في انتهائها، لا تلتفت إلى أي شيء مما يغازل بهرجته مرايا عينيها المنطفئة كيما يُضويها، ومباشرة دون التفات تتوجه إلى

غرفتها - تلك الزنزانة الانفرادية - المكان الوحيد الذي أحبته خلال السبع الخوالي، تضغط بيدها على مقبض الباب بقوة كأنها تفرغ نذرا يسيرا مما تحمله على عاتقها من أسئلة ليس لها إجابات، وأحلاما بريئة تشوهت في رحم الطفولة ولم يكتب لها الصبا، ومستقبل مطموس الرؤية لا يعرف له ملامح كحاضرهم وماضيهم، بيد أن ماضيهم أو بالأحرى ماضيها كانت له ملامح ولكنها ملامح الذل والمهانة يختلجها ملمح وحيد أشيب ما زالت توارى نزغات الحنين إليه بداخلها لعله يمددها القوة والصبر، وفي الليل تساهره وحده بعدما يهددها البكاء، فيرحل بها إلى حيث نطق اللسان أول معنى من معاني الشعور الذي ينبض له القلب.

أرخت جسدها على السرير وعيناها معلقتان بسقف الغرفة الذي بدا وكأنه قد تشوه بخضاب السنوات السالفة ليتحول إلى وحش كاسر يحملق بها يريد أن يحشم عليها، يجذبها بأذرع الممتدة في تؤدة تود الإمساك بها لتلقيها في دوامته، تحاول الفرار بعيدا، ململمة بقايا داخلها حتى لا يتم الإمساك بها وإجبارها على الدوران مع الماضي بكل تفاصيله فتعايشه من جديد وكأنه يحدث الآن، بيد أنه لا فكاك من الوقوع فريسة للذكرى فتلو كها بين فكئها.

هناك بيت صغير في أحد الأحياء الملفوظة من جوف المدينة والحداثة كمنخرج تشمئز منه الأنفس ذات الثراء والجاه، حيث يفتقر مقومات الحياة العادية، منذ ما يقارب الثماني السنوات اكتمالا، اجتمع الفقر والجمال في فتاة طاغية الأنوثة يفتتن بها كل من يقع بصره عليها، فما إن هلت وكأن البدر قد

شق عباب السماء لينيرها في الليلة الظلماء، لم يغفل أبواها عن ذلك بل كانا يتيقنان من أن درتهما المكنونة ستكون سببا في انتشالهما من مستنقع الحضيض الذي يعيشون فيه، فقررا ألا يمنحاهما لأي أحد يطرق بابهم، لابد وأن يكون رجلا يقدر قيمة درتهما ويثقل وزنها ذهباً، هكذا كانت أحلامهم فيها ورجاءهم بها.

لم تنطفئ الأحلام ولم يخب الرجاء وأتاهم الرجل الثري يملأ جيوب ثوبه مالا محرماً، وبثقل عقال غترته ذهباً مزيفاً يلبسه الحسناء، لم يترددا لوهلة بل وافقا ورحبا وأعدا فتاتهما أيما إعداد؛ فلقشور تزيغ إليها الأبصار والنواة لا تتضح لأصحاب المطامع.

العم سائق تاكسي وهو أيضاً مرسل الخير كما يسميه أخوه وامراته، ساقته الأقدار حيث يسير بسيارته متباطئاً لعل زبونا يشير إليه يوقفه، فإذ به يلح صاحب العباءة الخليجية واقفاً على أحد الأرصفة ينتظر، وما إن رآه الثاني حتى لوح إليه بيمينه فأوقف الأول السيارة أمامه مرحباً:

- يا هلا يا هلا.

- أنارت بلادنا بطلتك يا طيب.

- بلادكم منيرة بأهلها يا الغالي.

- تفضل اركب، إلى أين تريد الذهاب؟

- أريد الذهاب إلى فندق "فيراتاون".

تلقت أذنيه اسم الفندق؛ فابتسم منتشيا بأنه الليلة ستكون بحوزته
غنيمة مالية كبيرة، فتابع بصوت مرتفع مواصلا الحوار:

-إذن إلى هناك.

ثم نزل عن السيارة فاتحا بابها الخلفي لصاحب الغنيمة، مرتبا أغراضه
وحقائبه التي برفقته في الخلف.

ركب ذو العترة معه السيارة وبدءا يتجاذبان أطراف الحديث، تنهد الأول
قائلا:

- لندع النوافذ مفتوحة، لا حاجة لتشغيل مكيف الهواء؛ فما أجمل نسيمكم
وأطيبه وهو يسري في صدورنا ينعشها! كلما غبنا عنها اشتقنا إليها مجددا،
بلدكم هذا حقا بلد الجمال "قالها وهو يعبر رثتيه بنفس عميق، وبعدها يعرض
على شفتيه كمحروم هذه الشوق".

- لك ذلك، ولكن من أي بلد عربي حل علينا الكريم؟

- من مملكة الأسودين.

-يا هلا وغلا فيك.

- أنعم بكم وأكرم.

ثم مد يده يُشغل مسجل السيارة لتصدح بأغاني طروبه كيما يتمتع أذني
زبونه، فيتتشي فرحا وهو يردد لها بلكنته الخاصة.

وصلا إلى الفندق المشود دون أن يشعرا بالوقت الذي مر، ترحل
الخليجي ومن دون أن يسأله عن أجرته، استخرج من جيب ثوبه مبلغا كبيرا
وأنقده إياه، تشجع الثاني ليعرض عليه أن يكون سائقه المرافق له طوال فترة
إقامته، ربح الأول بالعرض قائلا:

- إذن نبدأ من الليلة، أيمكنك أن تأتيني في الحادية عشرة مساءً؟

في الموعد المحدد كان يهاتفه بأنه ينتظر بالأسفل في استقبال الفندق.

كانت الواجهة إلى إحدى المراقص حيث الخمر والغانيات، لم يبال العم
بالأمر كثيرا، فما يضيره طالما يعطيه في المشوار الواحد أجرة تعادل أضعاف
أضعاف ما يحققه في شهر من اللف في شوارع العاصمة تارة يحقق أرباحا
هائلة وأخرى لا يحقق إلا ما يكفي قوت يوم عائلته بالكاد؟

تعددت اللقاءات وكثرت المشاوير فزادت مساحات الحوار بينهما، حكى
له العم عن فقره وكثرة الأولاد ومتاعب الحياة، فكان يكرمه في العطاء إثر
كل مشوار.

أشارت عليه زوجته باقتراح ذات سعادة غمرتها من عودته متهللا إثر
حصوله على عطية مالية كبيرة قد أهدها إياها الخليجي بعدما حكى له ظروفه
المعيشية الصعبة قائلة:

- ما رأيك أن تدعوه غدا على الغداء في بيتنا، وأنا سأعد له ما لذ وطاب
من أكلائنا التي تتوق معداتهم إليها من مسيرة بلادهم إلى بلادنا سيرا على
الأقدام؟

- أنت تبالغين يا امرأة، هؤلاء أمواهم تجلب لهم أشهى أنواع الطعام من أي مكان، لا ينتظرون المحشي والبط الذي لديك. ثم كيف نستضيفه هنا؟ هل هذا البيت يصلح لاستقبال مالك السيارة التي أشتغل عليها حتى نستضيف هذا الشري بشحمه ولحمه؟

- سترى، اعرض عليه الأمر وأناؤكد لك أنه سيوافق.

هاتفه فور انتهاء حوارهِ مع زوجته، يتلعثم تارة ويتشجع أخرى حتى عرض عليه استضافته في بيته المتواضع على الغداء، رحب الرجل وأبدى فرحة شديدة بالعرض.

انتفضت زوجته من مقامها واقفة وهي تقول ضاحكة:

- ألم أقل إنهم يتمنون أن يتذوقوا حلاوة طهينا نحن نسوة البلد، سأبدأ بتحضير كل لوازم العزومة من الآن، فليس لدي الكثير من الوقت، سأذهب إلى بيت أخيك أحضر هالة لتساعدني.

- حسنا، معك النقود وافعلي ما تشائين، دعيني أنام الآن.

قضت بقية اليوم في مطبخها غارقة بين الأواني وأدوات الطهي الأخرى التي استعارتها من إحدى الجارات، واصلت الليل بالنهار كمن يغزل ثوبا على نول ضعيف البنيان يخشى أن ينهدم تركيب عصيه، فيغزل ويغزل حتى ينتهي من ثوبه قبل الانفكاك.

في ظل هذه المعمعة كانت هالة ذراعها اليمنى التي لا تكاسل ولا تتواكل لحظة، تفعل كل شيء كما تأمرها زوجة عمها بالضبط، وفي الموعد المتفق عليه كان العم ينتظره عند باب الفندق، ليمضيا إلى حيث الوليمة الكبرى والمأدبة العظمى.

وصلا إلى البيت في الوقت المناسب إذ توافق فتح الباب مع إغلاق آخر لهيب مشتعل يُنضج الطعام، والعم يرحب ويرحب ويعتذر عن وضاعة المكان، بينما الثاني في دنيا أخرى لا يبالي بل لا يشعر بمن حوله، فما إن وقعت عيناه على هالة - وهي ترص أطباق الطعام على منضدة بلاستيكية مستديرة تم استعارتها هي الأخرى، ووضعها في الصالة محدودة المساحة لتقديم الطعام عليها للضيف - حتى فغر فاه مشدوها من ذاك الجمال الذي تجسد بكامل معانيه في أنثى، رغم صغر عمرها إلا أنه كما يقولون: خراط البنات قد خرطها كحُسنٍ لم تلقب به أنثى سواها، التصق جلبابها على جسدها كتعبير حي على الجهد المبذول في معركة الطهي الدائرة رحاها على أرض المطبخ، فبرزت كل مفاتها كأنما القوام غصن اللبان.

كانت حبات الجمان تتساقط من جبينها لتمر على خديها في رحلة الهبوط وما إن تقع على صدرها حتى تذوب فيه، فيزداد نصوعا يزدان به جيدها الملفوف بشكل اسطواني براق الجمال أخاذ، يستقطب من بعيد الفَرَاش التائق الذي ما إن مر عليها حظ رحاله وراح ينهل من عذب رحيقها حتى آخره، ظنا منه ألا نضوب متمنيا عليه غدقا لا ينتهي.

ظل معلقاً بصره عليها يكاد يسيل لعابه من فمه، وكأنه لم يرَ نساء قبلها قط، سأل العم في لهفة ظاهرة على ملامحه وتعبيراته:

- أهذه ابنتك؟

- لا، ابنة أخي الكبرى.

- أرغب فيها، ولك ما شئت.

- كيف؟ أتمزح؟ لسنا بمن يبيع لحمه يا أخا العرب. بناتنا لسن كمن تعرفهن في الملاهي والمراقص.

- إذن تُزوجها لي، ولا تحزن.

- زواج؟ إنها من عمر أولادك إن كان لديك أولاد.

- قلت لك أريد الزواج منها، أعجبتني ولن أدعها، أقنع أخاك ولك ما تشاء.

- ولكن...

- ليس هناك ولكن، أقنعه ولك عطية ليست كأى سابقة.

انتهت جلسة الغداء، العم شارد الذهن في عرض الزواج يحاول تعقله، والرجل شارد في هالة، يراقب كل حركة وسكنة، لولا حسن الأقدار التي وضعت وشاح الهيبة على كتف تصرفاته الحمقاء في هذه اللحظات فتوارت لانقض عليها غير آبه بأي أحد.

فرحت زوجة العم بالطلب الذي أبلغه لها زوجها وراحت تهلل وتكبر، فأبواب السماء لتوها فتحت لهم كيما يصعدوا جميعاً وينعموا بجنان ونهر في جنان الثراء الخليجي الفاحش، لم تتوانَ في إقناع أم هالة واستمالتها، أما الأب فلم يكن بحاجة إلى إقناع، إذ منذ متى وهو لا ينظر إلى ابنته نظرة المنفعة؟

مقابل المال تسقط البنوة على أعتاب الديانة، هكذا كانت الزيارة الثانية التي قام بها الرجل، ولكن كانت هاته المرة إلى بيت هالة حيث يخاطب أنوثتها، ولسان حاله:

- متى يكون اللقاء؟

للمرة الثانية يراها فيزداد فيها شغفاً، ويمتلاً بها رغبة، لتخاطبها ذكورته:

- متى يكون الانطفاء؟

أفصح عن رغبته في إتمام الزواج على عجل كي يغادر البلاد ويصطحبها معه إلى المملكة، وما إن سمعت هالة كلماته حتى تجهمت وارتعشت وخرجت مسرعة من الغرفة، فتبعها أمها تسألها عن سبب انتفاضتها فجأة وتركها المجلس وانسحابها، انتحبت بشدة وهي تصيح بأمرها:

- أنا لا أرغب بالزواج من هذا الرجل المقرزة ملامحه، والتي تبدو عليها علامات المكر والغش، على رأسه علامات المشيب المعتق بكبر الكبر، أما يكفي أنه في مثل عمر أبي؟ كيف ترتضون لابتكم الزواج برجل كهذا؟ نحن

لا نعرف عنه شيئاً، ألا تحشون علي حين أعيش مع رجل لا أعرفه ولا تعرفونه في بلد يبعد عن بلادنا أميال؟ أكل هذا من أجل المال يا أمي؟ أتبعونني؟ لن أتزوج إلا أدهم، أرجوكم لا أريد إلا أدهم.

حاولت الأم احتواء ابنتها حتى لا يسمع أحد من الجالسين بالغرفة المجاورة صوتها؛ فيؤثر ذلك على إتمام الزيجة المرتجاة، أدنتها منها حتى ألصقتها بصدرها رابطة على كتفها وهي تقول:

- يا حبيبتى، يبدو عليه أنه رجل طيب وحنون، ومؤكد ستأتين لزيارتنا لن يخل عليك بذلك.

أنت ترفضين النعيم الذي أتى يدق بابنا بخوفك هذا الذي ليس له أي داع كما أن عمك يمتدحه؛ فلقد اصطحبه في كثير من زياراته السابقة إلى بلادنا ويقول أنه رجل سخي ويعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

لا تردددي يا ابنتي. صدقيني، ستسعين معه وتهئين بنعيمه الذي سيغرقك فيه.

واصلت الأم نصحتها المؤمل خيراً، بينما عينا هالة تندان دمع الترجي وقلّة الحيلة.

- أتعجبك حياة الفقر هذه التي نعيشها أو تودين الزواج بأدهم؟ إنه لا يختلف عنا في شيء، فقير لا يملك قوت يومه، لا يملك ثمن ملابسه التي يرتديها، لا يزال يأخذ مصروف يده من أبيه الكادح. يا ابنتي، انس أدهم،

انسه نهائيا، فقير لا يتزوج بفقيرة.

قالتها وكأنها ترسخ مفهومها اجتماعيا جديدا: "لا يحل زواج فقيرين وإلا كان الفقر من فوقهم ومن تحت أرجلهم".

وهنا قطع حديثهما المختنق في عنق اللاجدوى أبوها يسألها:

-لم التأخير كل هذا الوقت؟ هيا يا هالة، تعالي.

فالعريس يسأل عن عروسه، هيا يا عروسة.

هالة بعناد ومصابرة: أي عروسة وأي عريس؟

لن أتزوج من هذا الرجل المتنفخ، شكله بغيض لا أريده، أرجوك يا أبي، أرجوك يا أمي.

الأم: اسمعي كلامنا، نحن نعلم مصلحتك جيدا، لا يهم شكله يا ابنتي، انظري إلى هداياه التي حملها لأجلك، ألا تشفع لبغضه وشكله؟

لا ترفسين النعيم بقدميك؛ فتندمين يوم لا ينفع الندم.

الأب: اسمعي ما أمرك به، نحن أدرى مع من تكون مصلحتك؟ أنت صغيرة لا تعلمين شيئا.

ثم جذبها من ذراعها إلى الداخل بعدما أردتها مسكة يده صريعة الخذلان يتندى قلبها ألما، تعض على حب قلبها المؤود، فيمهدة دون مقاومة بعدما سلبه القدر نبض الحياة.

الفصل الثاني

الموت والحياة مران لعلقم واحد

وتيرة الأحداث تعدو في سباق مع الزمن، تتسارع إلى حد لا يدع مجالاً للتفكير فيها أو حتى التعقيب عليها، وكأن الخليجى هذا قد ضرب بعصا ثرائه الأرض، فانفجرت له كل السبل ميسرة وممهدة ناحية رغبات جسده وقرارات عقله.

كل الخيارات التي تحدثها بها نفسها تنحصر ما بين محرم وغير مأمون العواقب، الانتحار أو الهرب. الانتحار وهي تعلم علم اليقين بأن الله لا يرضى بقتل النفس لذاتها، والهرب إلى أين ومع من؟ يجيبها قلبها:

- معه، مع آدهم.

- كيف وهو لا يملك من أمره شيئاً؟ كيف يتولى أمرك أنتِ الأخرى؟

- اذهبي إليه واعرضي عليه الأمر، اطلبي منه الزواج؛ لاسيما أن زواجك من الخليجي سيكون بوثيقة غير شرعية كما قال، فهو الأولى به والأحق.
هو من سيصون العرض ويحمي الجسد والروح والقلب من أي نزق أو زلل.

اذهبي ولا تترددي.

ذهبت إليه طالبة اللجوء، تعرض نفسها عليه كبضاعة مزجاة "زوجة بورقة عرفية"؛ كيما تتخلص من كابوسها وريثما ينتهي هو من جامعته فيتزوجا زواجاً شرعياً يرضاه الإله.

لم يكن أقل وهنا منها، بل كان في قعر الوهن يتململ، فلما رآها مقبلة عليه دنا منها، يود لو يرف جفنه وينتبه فيجد نفسه بين ذراعيها ناعماً بالسكنى، فيطمئن أن حالته ما زالت تحاوطه حبا، وإلى جواره تكبر، والأمل حي في قلبيهما بأن الله لن يخذلها وأن أحلامهما لن تضيع سدى، تلاشت المسافات إلا من موضع قدم يفصلهما وإذ بها تفاجئه:

- نتزوج ونهرب بعيداً عنهم. لا تتركني أرجوك، تزوجني.

- يا هالة أنت تعلمين أن كل سُبلي معك ليس لها مآرب سوى الزواج منك، وأنا اتفقنا منذ الصبا على المضي معاً، أحلامنا، أمانينا، لكن...

- لكن ماذا؟

- لكن لا يمكن أن نعالج الخطأ بخطأ مثله، لا يصح يا هالة، لا يصح، ففرضا إن وافقتك على رأيك، إلى أين سندهب؟ ما لنا مأوى، تفكري جيدا في المهانة التي ستلحق بأهلك وستوصمك أنت قبلهم.

- هم لم يفكروا بي، لم تردعهم رجاءاتي، لا يجبوني، لو كنت تحبني فلا تخذلني مثلهم.

- تعلمين كم أحبك، أرجوك يا هالة لا تعذيني بافتراض لا يصح وضعه في علاقتنا، أنا أحبك يا طفلي الصغيرة، أحبك، ولا أريد فعل شيء يشينك. سأحاول مرة أخرى، سأحكي لإمام المسجد كيما يحدث أباك أن الزواج بدون رضاك باطل ولا يصح، فضلا عن بطلان العقد العرفي هذا الذي يريده الخليجي. دعيني أجرب لن نخسر شيئا...

لم تنتظر تمة جملته ولم تجبه، غربت عن وجهه غروب الشمس الآيسة من امتداد عمر النهار، تسابق دقات قلبها المتقافزة، وتتخطى الحصى هرولة من تحت قدميها، هي تعلم أن محاولته لن تنجح مع أب لا يركع لله ركعة، لا يردعه حرام أو يحثه حلال.

استسلمت للأقدار تحملها كيف تشاء، وها هو العريس قد نصب سياج سيطرته عليها وعلى أهلها المولعين بهذا النعيم الجديد.

تقف على أعتاب الرحيل، تودع كل أحد، أدهم الذي وقف بعيدا بعيدا جدا حيث اللا رؤية، وهي التي لم تر منه سوى الدماء تفور من عروق وجهه

وأبوها يطرده شر طردة خارج بيتهم، قاصفا جبهته بل كليته بالصبيانىة وناعتا إياه بالمجنون، ساءاً إمام المسجد الذي اصطحبه ليشدد من أزره فى محاولته لإقلاهم عن تزويجها.

تودع أبويها الذين انشغلا فى كىفية صرف الثمن المدفوع فيها، فلم يلقيا بالا لحال ابنتهما البائس الذى يذيب الجلاميد وهى ترتعش وجلا من مستقبل فى طى الغيب غير منبوء كنهه، لم ينفطر القلب على فلذة الكبد، بل راحت الأم تودعها ببشريات الثراء الذى طوى بداخله وفق رؤيتها كل السعادة، وأنها ستكون بأفضل حال، وأنها سيظلان على اتصال دائم لا ينقطع كما وعدا الزوج.

ودعت أختيها اللتين يصغرانها وهى تربت على كتفيهما عسى المدفوع يكون معينا لهما كىما تكملا تعليمهما ولا يجرمهما أبوهم مثلها.

ودعت بيتها الصغير المتهالك تاركة فيه بعضا من روحها التى لم تكن أقل هلاكا منه؛ عله يحن إليها يوما ويطلب مجيئها، ودعته وغصص عديدة لا حصر لها تتزاحم فى حلقها الجاف، تكاد تفقدها النطق الذى فقدت شهيته بالأساس، وحتى ثرى الوطن كادت لتحنى عليه فى الطرقات لتغترف منه غرفة تشتم منها رائحة الهوية المسلوبة على أعتاب بلد جديد لا تعرفه ولا يعرفها، بيد أنها مكتوب عليها أن تبدأ فى حياة جديدة ظاهرها السعادة والطمأنينة وباطنها العذاب والقهر.

كل هذه الوداعات لم تكن سوى نظرات من عينيها تجول بها بينهم، تحد النظر في كل شيء لحظات ثم تتحول عنه لآخر، حتى صفر جرس الرحيل بصوته المزعج المخترق طبله أذنبا معلنا انتهاء التجوال البصري وبدء الحراك الجسماني من أرض إلى أخرى، ماحيا كل أثر للأولى مهياً بفضاظة للثانية إثر ثباتها على المحطة لا تقدم قدما عن أخرى.

سلمت للأسر انقاء وجهه البغيض الذي استعصى عليها إلفه أو حتى تقبله، بيد أنها لم تكن تعرف أن للبغضاء مستويات وأنها ما زالت في المستوى الأول منها ولم تبرحه بعد.

وطأت بقدميها المثقلتين مملكة الأسودين حيث الزينة تطوق كل شيء بسخاء، دون أن تدري كيف ومتى وكم مر عليها من الوقت؟ إذ هي ما زالت في غمرة المفاجأة لا تشعر ولا تدرك ماهية ما حولها من وقائع متعاقبة الحدوث.

تهز رأسها يمنة ويسرة علها تستفيق من كابوسها الجاثم على روحها، تعافر للخروج من أروقتها المظلمة، فإذا بها تخرج بالفعل ولكنها تخرج منه لتجد نفسها في بيت الزوجية المزعوم حيث الظلمة أشد داجية، والكابوس حقيقة واقعة لا فرار منها، تجوب ببصرها البيت تتأمله فيرتد البصر حسيرا ولا ترى عيناها سوى القتامة رغم امتلاء الجوانب بضوء النهار النافذ عبر زجاج الشرفات، رغم البهارج المؤتثة تملأ البيت، رغم الجدران الملونة تحمل زخارف ما لها بها علم من قبل تحطف إليها قلوب الناظرين، إلا أنها لم تكن

من هؤلاء؛ ففي رفقتها الخوف الذي لا يهناً صاحبه بأي جمال طالما كان هو سيد الشعور المتربع عرش الداخل النفسي.

على أريكة وثيرة طرح جسده الممتلىء، وراح يرفع عن رأسه عقاله وشاغه، فإذا بالشماغ قد وارى خلفه كثيرا من الدمامة، وأضفى عليه تلك الهيبة المزعومة التي افتتن بها أهلها إذ ساعدها في التجلي ما امتلأت به جيوبه من عملات.

وقفت قبالتها عاجزة الخطى، ملجمة اللفظ، متعثرة الفعل، في ظل صمت مطبق على المكان، لا تسمع صوتا ولا همسا، تلملم أذيال عباءتها السوداء التي ألبسها إياها قبل دخول المملكة، تحاول أن تكور الأطراف بقبضة يدها، ترفعها إلى صدرها، تضمها بقوة لعلها تستمد منها بعض الطمأنينة، وكذا تسألها الحماية من نظراته الناهشة كامل جسدها، المحتلة كل بقعة بخريطته؛ فإذا بالفستان المخضب قد تبين من تحت العباءة منبلجا من غيمات السواد بالتماع ذهبي قد تخلل ثانيا ساحته، بدت ساقاها من وراء هذا المفصل تفصيلا محكما عليها - وكأن يد الحائك لم تخطئ بسنتمتر واحد في المقاس - كغصني شجرة عود اكتنز دهنها داخلها ريشا يأتيها الخائض أغوار الغابة كيما يستخلصه من داخلها، فتتكشف له وتظهر ما وارتته من عقب يضوع المكان، شجرة بالغة الحسن سقتها عين الجمال الإلهي زلالا فتفرعا من خصرها الملفوف بعناية فائقة، فلا نتوء هنا ولا اعوجاج هناك، فهما الساقان مصبوبتان قد كبرا على مهل واستويا على هيب الأنوثة الساحرة، ليكون انتظامهما وقوفا ساحرا

ذا بهجة يسر الناظرين، وجلوسا إثارة تستقطب المحققين الطامعين في نيل المزيد.

ناداها لتدنو منه بعدما استبد به الجوع فيها، وبلغ الظمأ مبلغه، طلب منها قائلاً:

- اخلعي عنك عباءتك.

فاذ بها تمسك بها أكثر وأكثر وإلى ركن حائطي تختبئ، يناديها فلا تجيب، مرات ومرات دون إجابة.

يقوم إليها والنزق يقطر من فمه مسفراً عن وجه خلقه القميء بعدما أفسدت عليه خيالاته المترامية على طول جسدها بامتناعها عنه لتكون الدمامة صفة مركبة قد جمعت بين داخله وخارجه.

بيده الغليظة يقبض على معصمها، يجرها جراً دون التفات لدموعها المنهمرة تترجيه أن يتركها، تستجدي فيه إنسانية لا يعرفها، حتى ارتعاشات جسدها تتوسله، فلا إجابة تريجها!

بردت أطرافها، بل تجمدت الدماء في عروقها التي انعكست عليها في اصطكاك أسنانها.

أعمى عن كل شيء إلا رغبته في التهام لحمها الطيب أكله معنى وصفة وحالا.

الرواق المؤدي إلى غرفة إعدامها كان طويلاً جداً رغم قصره، تستجدي البلاط بحق الله أن ينخلع وتنشق الأرض فتبتلعها لتخلصها من قبضته إذ

يجرها جرا نحو الهاوية، تستجدي الجدارين الممتدين على طول الرواق أن ينطبقا عليها فتموت؛ فموتها تحت أنقاض الجدران المهذمة رحمة ألف مرة من موتها تحت وطئه لها.

حتى الجهاد لم يفلح معه الاستجداء، المصير بدا حتمي الحدوث فلا فكاك منه، ولا أمل في تخل من قبله عن الإيقاع بها، دفعها بأقصى ما فيه من عزم فطرحتها على الفراش بعدما أنهكتها محاولات التملص منه، إلا أن فارق القوى جاء لصالحه بامتياز، صاح بها ينهرها:

- أظنين أنك ستستطيعين الهروب من هنا؟ أنت واهمة، لا تتعبي نفسك بمحاولات سخيفة ستضرك أكثر من أن تنفعك. مدفوع فيك يا حلوة أضعاف أضعاف ما أدفعه لغيرك، لذلك سأخذ منك بحق المدفوع فيك متعة ترضيني، وزيدي عليها متعة إضافية اعتذارًا منك عما بدر منك الآن من تأففٍ وعصيان، كل ما أعرفه وجربته أن بلادكم بلاد الكرم.

اقترب بعض الشيء ينزع عن نفسه ثوب الصبر قائلاً:

- هلمي؛ لتريني كرمك يا أم الكرم!

تنظر إليه دون أن تنطق بكلمة، الدوار قد سيطر عليها، جدران الغرفة تنهاى وتتداخل في عينيها وتلف بها مرات ومرات، رغبتها في التقيؤ باتت ملحّة، بيد أنه لم يمهلهما لفعل أي شيء، بحلق حدثها:

- إذن أنت من جنيت على نفسك، ما عاد لي بإعراضك هذا حِمْلُ.

دنا منها إلى حد ليس بعده حد، ينزع عنها عباءتها، يكورها ملقيا إياها بعيدا، ناكما عليها أن سترت عنه تلك الأنوثة التي أخذت بتلابيب شهوته، وأما عن فستانها الأبيض فلم يحمل نفسه عناء البحث عن أزراره ولا سحابته، إذ أمسك بطرف ذيله يشقه نصفين يمزع أكمامه تمزيعا، يصب جام غضبه عليه فيحيله أشرطة لا تصلح إلا لرفع الشعر المنسدل على الأكتاف، لكن أين هو وقد بعثر على الوسادة هنا وهناك؟

وهي كالعجينة بين يديه يَلُثُّها لثًا، تتلوى تحت سطوته يمزع روحها الألم وليته ككل الآلام يُصرعه مسكن فيرديه خلف أسوار اللاوجود، إنها هو ألم متفرد الإيلام، ألم لو اجتمع له أهل الأرض قاطبة كي يلجموا صدى صوت غرغرتة المتعاطم ما أسكتوه.

أوهنها الصراخ المتعالي فبح الصوت وبات كحفيف لا يسمع إلا همهمة، قضى عليه بالتهامة لشفتيها دون ترك فسحة لها ولو لنفس تلتقطه، حجب بكليته السميثة عنها كل منفذ يمدّها بالأوكسجين، فغاصت في عالم من اللاوعي عساه يخفف عنها ما تعانیه، بيد أن لهيب أنفاسه المتصاعدة في تأجج يلفح وجهها وعنقها، كأنها حريق شبقه قد أقسم على الاشتعال أكثر وأكثر يأبى الانطفاء مصرا على استردادها من رحلة هروبها التي دخلت فيها، ليعيدها إلى نيران الواقع المرير التي أتت عليها فأحرقتها بالكلية دون هوادة.

انطفأت هالة وخبا بريق عفتها حتى وإن كان على يد زوج ارتضاه أهلها،
لعزوته وماله، ولم ترتض هي منه قيد شعرة، إذ اشتراها بثمن بخس وكان
فيها من المنتقمين، زوج لا يُعترف به أمام الإنسانية قاطبة زوجا؛ فما هو إلا
مغتصب بغيض!

شحبت روحها قبل شحوب وجهها مودعة النصوص المزين تاج عمرها
المنزوعة لآلئه منذ قليل على يد سارق البراءة.

حل المساء وولى الشفق الأحمر آخر شاهد على عملية الذبح، بعدما ألقى
نظرة سريعة على تلك الممددة لا حول لها ولا قوة، خجلا من ضعفه في
صنع أي شيء يمنع استباحة دم الخضاب المطهر، ناقما على الجوريّ المفتوح
في الحدايق يبتهج للمحبين الذين اتخذوا منها شهودا على مواثيق قلوبهم
السرمدية، وجوريته قد قطفت وقطعت بتلاتها ونثرت على فراش الوحشية،
بكى بكاء العاجز الضعيف متمنيا أن لو كان يمتلك لونا غير الحمرة
المنحورة ليخضب به وجنات السماء الحليبية؛ تعازيا لها ومواساة لقلبها، لكن
أنى للتمني أن يكون واقعا في نواميس كونية وضعها خالقها لحكمة وحده
يعلمها؟

لم تستفق إلا بعد ساعات لتجد حالها غارقة فيما ابتيعت لأجله، تلعن
نفسها والوغد الذي أتى عليها فلم يترك في جسدها موضع شعرة واحدة
إلا وقد أخذ منه مقابل ما دفع فيه أضعافا وأضعافا، حتى كرمها المنتظر
أخذه عنوة وكأنه أدرك الحقيقة الخالصة؛ فهي لا تؤمن بأن له حقاً فيها من

الأساس، فكيف تكرمه؟ فقرر أن يأخذ كل شيء بيديه دون انتظار لعطاء تقدمه هي.

كانت الأوجاع تصيح من كل نقطة بجسدها تستجدي ربته يد تهددها، أو رقية على علل روحها تطيبها، أو حتى جوار صاحب تأنس بوجوده ليخفف عنها، بيد أنها لم تجد أي شيء مما ترجوه، لم تجد سوى نفسها المهترئة لتتكئ عليها في الخروج من حالة الخذلان التي تحياها، تقلبت على جانبيها في محاولة لتمرير أطرافها المتصلبة؛ جراء ما وقع بها من نهش وتمزيق، تستند على ذراعيها لتتنصب بجذعها الواهي، ساجبة الغطاء من أمام ساقها المسجيان أمامها؛ كيما تغطي جسدها المنزوع عنه لباسه.

تسند ظهرها إلى الوراء حيث ظهر السرير المخملي الكساء؛ عليها تستمد منه بعض الهددة المفتقة، تغلق عينيها على ذكرى حبيب كرهته في زمرة كل الرجال الذين باتت تلعنهم لعنا يملأ ما بين السماء والأرض.

سمعت صوت أقدام قادمة من الخارج في اتجاه غرفتها، أخذها الرهاب مأخذ العجلة متحاملة على كل ما بها من وجع؛ فانتفضت مذعورة من سريرها، تجري نحو الحمام المتواجد في الغرفة مغلقة بابه عليها؛ لتحتمي به من سطو جديد قد يشنه عليها، وقفت خلف الباب المحكم تنتظر ما قد يحدث، سمعت صوته في الغرفة ينادي عليها:

- هالة، يا حلوة، هالة.

لم تستطع نطق كلمة ترد بها على نداءاته المتكررة.

عاود من جديد مناديا بحق:

- يا سنيورة، علموك ما تردين على سيدك.

اتجهت صوب الدش وفتحت المياه عن آخرها كيما تُسمعه صوتها فيعلم أنها بالداخل، اقترب من الباب حاول فتحه فوجده مغلقا وصوت طشيش المياه المنسالة على الأرض أصبح واضحا جدا، ناداها ربما خامسة أو سادسة فلم يطاوعها اللسان على الانطلاق، صاح بها قائلا:

حين تكونين بين ذراعي سأعلمك كيف تكون الطاعة أيتها العنيدة.

- نعم عنيدة أنت، لكنك لذيدة.

- ألا تجيبين؟! لو شئت كسرت الباب عليك وحطمت رأسك الحجري هذا وسحبتك من شعرك إلى فراشي ثانية، واقتصصت منك بطريقتي، لكني لن أفعل الآن.

لقد أحضرت لك أطعمة وملابس، فكلي واشربي وارتي ما شئت من ثياب بدلا عن تلك التي مزقتها.

لم تجبه بكلمة واحدة فازداد حنقه، وازداد خوفها، عاودها من جديد مفرغا كامل نزقه:

- ستبقين هكذا لا تنطقين، قولي حاضر سأفعل وإلا حطمت الباب عليك. وأخذ يضرب بيده على المقبض تهديدا لها.

أجابته بصوت مبحوح متحشرج في القصبة الهوائية تقول:

- حاضر، سأفعل.

- جيد، أحبك وأنت تسمعين الكلام وتلبين ما أطلبه منك ولكن اعلمي
أني سأزيد من تأديبك حين أريد.

أخبرها أنه سيعود إليها بعد يومين ينهي فيها أعماله ومصالحه المتأخرة،
ثم مضى عنها خارجا، حاولت طمأنة نفسها بعدما سمعت صوت باب
الغرفة يغلق بقوة، فاعتسلت تاركة المياه، تواسي ما غبن، وتطهر ما دُنس،
وتداوي ما جرح.

فتحت باب الحمام بعدما انتهت على مهل، تتلصص النظر في أرجاء
الغرفة؛ لعله يكذب ولم يغادر كما قال، لم تجده بالفعل فالتقطت أنفاسها،
وجدت ما ترك من طعام وثياب، لم تبال بالطعام ولم تقربه، فلقد فقدت
شهيتها لكل شيء وأي شيء من متع الحياة، حتى أمتعائها الخاوية لم تنتبه
إلى الرائحة الزاكية المنبعثة منه، لا شيء يستقطب ذاتها ولا يستهوي ذائقتها،
الموت والحياة مرّان لعلقم واحد عالق طعمه بالفم والروح والقلب، مدت
يدها واستخرجت ما تحتاجه وفقط من ثياب دون انتباه حتى لمقاس ولا لون،
المهم مخطط يستر جسدها الذي لا يزال يئن صامتا، وحيث القبلية تحايلت على
ضعفها وتوجهت، وقفت منتصبه على بساط الأرضية للحظات يسيرة ولم
تقو بعدها على مواصلة الوقوف فخرت على وجهها ساجدة تشكو لله صنيع
عباده فيها، وتبوح إليه ببكاء لم يشهده سجودها من قبل.

الفصل الثالث

الشيطان يعظ!

حين تكون الأشغال المعطلة هي الأرواح العالقة على شفا جرف الموت
تترقب قذفها بأي حجارة تسقطها فيه كيما تنهي عليها تماما، إذن ما أحقر
هاته الأشغال وما أذنسها!

ذهب عنها شاريها كما وصفته لأمها وقت البيعة ليرعى مصالحه كما
أخبرها، وها هي المصالح تتضح ماهيتها وتتبدى كاشفة النقاب عن وجه
الدياثة يضحك بملء شذقيه في بلاط العهر.

في إحدى السهرات الخاصة للأمير المولود في مهد السلطة الجائرة المفطوم
من ضرع الفضيلة المنسوخة على التقلب بين وثر الأنوثة الممتلئة عن آخرها،
المعطاءة دون صلة قرى ووصال رحم يبيح لها العطاء، المولع بالتنوع
والتبديل بين صنوف حسناواته وغانياته اللواتي يستجلبهن من كل بلدان
العالم وفق طرقه الخاصة؛ فالسماصرة كثر يترامون ذات اليمين وذات الشمال

يسألون الرضا ويستجدون إتاحة الفرصة لهم ليكونوا تحت النظر، وأي محظي منهم يرتضيه الأمير سمسارًا فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها.

وكذا العارضات أنفسهن أيضا أكثر، فيا سعد من ارتضاها الأمير ولو لليلة واحدة! بيد أنه لا يفرط أبداً فيمن منحها صك الملكية؛ فهذه تدخل القفص ولا تخرج منه حتى الموت خاصة لو حدث وأنجبت، فتكون لها حراسة فولاذية ليست لغيرها.

النساء في حضرته كالحدايق الغناء، ثمرة ومزهرة، ثمارها نضجة التكوين، حلوة المذاق، من تؤكل على الفطور ليست كتلك التي تؤكل على الغداء، ويا ويح الحضور إذا رأوا من تتجهز لتؤكل على العشاء، يمصصون شفاههم أن لو ألقى إليهم ولو يبعض فضل قد زاد عن احتياجه يسدون به رمق شهوتهم التائقة.

أما عن الأزاهير، فحدث ولا حرج كلهن ذات ألوان وأرائج لا حصر لها، من تُقطف منهن ويمتص رحيقها في الصباح تفتح غيرها في المساء فتقطف هي الأخرى، وتُؤنّع غيرها متأهبة يد البكور أن تنبلج من عتمة الليل وإلى جماها تمتد معلنة الاكتفاء لأخذ قسطا من الراحة لإدارة شؤون المملكة.

يتقدم المشتري ذو العقال إلى مجلس أميره ورب نعمائه، يقدم فروض الولاء والطاعة والثناء؛ لاستجلاب الرضا من بين فكي السلطة قائلا:

- حيا الله الأمير وزاده نصوعا فوق النصوع.

- يا هلا، حياك، هات ما عندك، غبت طويلا.

هل نفدت خزائنك من بنات الحور؟

- إن نفدت، نشق الأرض شقا ونبحث عن كنز يليق بمولاي الأمير،
فإن لم نجد جُبننا السماء وخطفنا منها حورية هي أبهى من بنات الطين.

- هاهاها، تعلمت النفاق يا سمسار الحور، سيكون هذا لقبك من الآن،
فأنت تستحقه عن جدارة.

- شرف لي يا مولاي هذا اللقب.

- لا تتحدث عن شرفك في حضرة الشرف وأهله بدلا من أن أسحب
منك اللقب ثانية.

- لا لا، فليغفر مولاي جهالتي.

- إذن أما من حورية جديدة تطفئ أشواق الأمير؟

- بلى، حورية وأي حورية يا مولاي! من أرض السحر والجمال وعذب
النيل وشمس الأصيل.

- أين هي؟

- في الحفظ والصون، نجهزها كي تليق باستقبال الأمير.

- أنت تعرف طلبي، بكرا وإلا اجتذذت خصرها.

- أعرف يا مولاي، وهل حدث وخالفت طلبات الأمير يوماً؟
- أذكرك فقط.
- أحفظ طلبات مولاي عن ظهر قلب.
- متى ستأتيني بها لأعاينها بنفسى؟
- قريباً يا مولاي ستجدها أمامك في أبهى حلة ولكن ال...
هاهاها، ولكن الثمن يا مولاي؟ أليس هذا ما تود قوله؟ اطمئن،
سأعطيك بسخاء وخذ هذا عربون محبة ريثما تأتيني بها.
- كرمك يا مولاي ينجلني.
- لا تمثل الخجل وامض حيث أمرك، فأنا أعرف أن ذوقك عال، فرغم
دمامتك هذه إلا أنك ذواق للنساء لا تطالع عينك الجاحظتان هاتان إلا
الجمال النادر، وأوقن أنك لن تخيب ظني.
- لأجل مولاي تحسنت ذوائقنا.
- هاهاها تعلمت النفاق يا....
- خادمك وطوع إشارتك يا مولاي، سمسار الحور كما أسميتني منذ
قليل.
- حسناً، اغرب الآن.

أمره بالخروج فقد أقبل عليه أحد وزرائه يخبره ببعض أمور طارئة وعاجلة تخص إدارة المملكة ولا يجب حضور اللقاء أي أحد سواهما.

لم يغب إلا تلك الليلة التي قضاها في قصر الأمير يترنج ما بين كأس وكأس، يختلس النظرات لعله يحظى بمواعدة من إحدى المتراميات هنا وهناك فيقضي معها ما تبقى من ليل، أو يصبو إلى مسامعه خبر عاجل فيكون أول من يتلقفه من مصدره أو تتسلل إليه معلومة ملكية ذات سرية تامة فيتاجر بهذا أو هذه لدى وسائل الإعلام، وله في ذلك باع تحت مسمى: "صرح مسئول" أو "قال مصدر موثوق به".

في الصباح عاد إلى هالة حيث تركها، فوجدها على سجاداتها قد غلبها الإعياء، فانغلقت الأجنان غارقة في نوم عميق وهي تهدد ذاتها بذاتها، تلف ذراعيها تحتضن نفسها، كل شيء كما هو لم تحرك ساكنا في الغرفة، حتى الطعام كما هو لم تمتد إليه يدها، هزها بيده الثقيلة فاستفاقت مذعورة تتكور على نفسها، تزحف على استنها إلى الخلف، تصطدم رأسها بحافة المنضدة الزجاجية الخاصة بالمجلس، تتأوه، فيضحك عليها ساخرا، لا تبالي بضحكاته، يزداد خوفها من أي فعل جديد قد يفعله معها، لاحظ صفرة وجهها الذابل، فبادرها سائلا:

- لم تأكلي من الطعام الذي أحضرته شيئا؟ أترغبين الموت، يا حلوتي؟
هيا، فلتنهضي كيما تأكلين معي، هيا، فلتقومي.

- شهيتي لا تطلب الطعام.

هاها، أظنها تطلب شيئاً آخر، أليس كذلك؟

رمقته بطرف عينها وهي تتمتم داعية الله أن ينجيها منه.

- ماذا تقولين؟ أتدعين عليَّ يا تقيّة؟

أتعرفين؟ أبوك هذا لا يستحق فتاة مثلك مصلية، حافظة لكتاب الله،
فلولا أن أباك على شاكلته الجشعة هذه ما كنت من نصيبي، أرزاق!

أحدت النظر به وقد استنفر حنقها المكبوت فأظهرته قائلة:

- حينما يتحدث الشيطان عن الإيمان بالله يكون قوله شهادة حق يقسم
بها ليزداد في ضلاله.

- واعظة أيضاً، يا زين يا زين! من أين لك كل هذا؟

- فضل الله على عباده.

- صحيح قولك، وها أنت فضل الله علي، سأجني من ورائك ما لم أُجَنِّه
من فتاة غيرك.

لم تفهم جملته الأخيرة، ولم تحاول فهم ما يقوله؛ ففي نظرها أنه عالج لا
يتخطى موضع ذكوره، ولولا المال لاج في الطرقات يلهث خلف الماشية
يطلبها.

جذبها من يدها عنوة كيما يجلسها إلى جواره على إحدى أرائك المجلس الصغير المنظوم بركن من أركان الغرفة الواسعة لتتناول بعضا من الطعام لعله يضخ الدماء في أوردها من جديد، جلست على مضض تحاول أن تبتلع اللقيمات الواقعة في حلقها تأبى النزول إلى المعدة المتلهفة إليهن، بين لحظة وأخرى يأمرها:

- كلي جيدا، لا أريد أن أراك شاحبة.

- شبت، لقمة أخرى وسأفرغ ما في جوفي.

- لا أريدك أن تخرجي ما في جوفك، كفأك أكلا.

قام من مجلسه وهو يمضغ آخر لقمة في فمه متجها ناحية الباب استعدادا للمغادرة قائلا:

- استريح ونامي جيدا، سأمر عليك في المساء، لنخرج سويا لقضاء بعض الحاجات.

لم تجبه بكلمة ولم تنظر إليه، فالتفت إليها نازقا، ممسكا بتلابيب ثيابها وهو يضغط على فكيها قائلا:

- ألم أقل لك أمس بأنه حين أطلب منك شيئا، تقولين حاضر؟ ضغط بقوة أكثر، فانفجرت شفتاها تقول متألة:

- حاضر.

قضت يومها تتقلب على جمر الانتظار، تعصف بروحها الأسئلة فتحملها إلى أرض الحيرة حشاشها والخمطُ نبتها، فلا تكاد تنتهي من عصف واحد إلا ويضربها الآخر بكل ما فيه من قوة:

- أي حاجات هذه التي يريد هذا القميء اصطحابي معه لقضائها؟ بل لم سيأخذني معه بالأساس؟ إن كان يريد كسب ودادي فلم يجبسنني بالغرفة ويحكم الإغلاق؟ أما كان الأولى به تغيير هذا الأسلوب اللفظ الذي يعاملني به؟

انفجرت باكية وهي تتذكر ليلة البارحة بكل تفاصيلها القاسية، فتصرخ وتصرخ وكأنها تود لو سمع العالم بأسره كلمة (أكرهك) التي لا تعرف لكم مرة كررتها؟

حل المساء في ثوب قاتم، باعث على الشعور بالاختناق وحل هو بوجهه الدميم الباعث على التقزز، ولا تدري أيهما جلب الآخر من فرط الشعور بالكره لكل شيء ملازم لهذا الرجل الذي لا تراه سوى مسخٍ يمشي على قدمين؟

دخل عليها الغرفة دون استئذان، فأنى للسجان أن يستأذن من مسجونته في الدخول؟!

أمرها أن ترتدي ما أحضره لها من عباءة ونقاب سريعاً، فارتدتها على خوف وارتعاشة تسري في أطرافها. اصطحبها معه إلى الخارج حيث سيارته

الفارحة التي ستقلها إلى حيث يريد، جلست إلى جواره دون كلمة، بنظرة جامعة من زجاج النافذة المظلل أحصت رؤية شاملة مختلفة التكوين عما عاشته وعاصرته في بلدها، رأت مظاهر المدنية التي لم تشاهدها إلا على شاشات التلفاز، الأبراج السكنية الشاهقة، الطرق الواسعة، السيارات السائرة في انتظام لم تعرفه من قبل، حتى الإنارات التي تزين كل شيء لم تعتدها من قبل، فهي لم تخرج من بؤرة العشوائيات يوما، بين صفائحها ولدت، وعلى حصرها حَبَّت، وبين جدرانها الواهية ترعرعت، وهذا هو الخروج الأول لها من بيت أكل عليه الزمان وشرب، بيد أنه خروج كخروج الروح من جسد أنهكته سكرات الموت عمرا حتى فاضت تاركة إياه بعدما تفصد كل عرقه.

أمام بناية على طراز مستورد من بلاد الحداثة قد شيدت، تتكدس حولها سيارات تبدو من هيئتها فخامة أصحابها، ظل يجوب المكان باحثا عن مكنى حتى عثر على واحد بصعوبة، أوقف السيارة، ترجلت هي تحمق في المبنى، وقعت عيناها على لافتة تخبر بأنه مشفى ضخم به العديد من التخصصات.

تنظر إليه في حيرة بالغة، وتسائله وهما في طريقهما إلى الداخل:

- لم نحن هنا؟

- لأجلك.

- لم لأجلي؟

- ستعلمين الآن.

- ولكنني لست مريضة.

- نعم لكن حدث خطأ ويجب معالجته.

- أي خطأ هذا، قلت لك لست مريضة، أجنون أنت؟

- اخرسي وإلا صفعتك على وجهك أمام الناس.

ثم أمسك بطرف عباة يتقدمها في السير بعنجهية مقببة.

انخرس لسانها وداخلها يفور من هذا التصرف الذي لا تعرف كنهه،
أجنون هذا أم غباء؟

لم يمر عليهما قرابة عشر دقائق حتى دخلا إلى غرفة طبيب بدا من الترحاب
المتبادل بينهما وجود علاقة وطيدة، جلست إلى كرسي مقابل لكرسيه أمام
مكتب الطبيب الذي نظر إليها متفحصا ثم تحول عنها إليه قائلا:

- ما هذا الجمال، كل زبائنك لا يقاومن، معك كامل العذر فيما تفعله
بهن.

- هذه المرة من أرض الخير والجمال، أرضكم يا دكتور.

رائع؛ فأرضنا لا تطرح إلا كل جميل.

نظرت إليهما في ذهول لا تفهم ما يرمي به كل منهما على الآخر، حتى
دخلت الممرضة تخبره بأن كل شيء بغرفة العمليات مجهز، وعلى أكمل وجه
وفي الانتظار..

سمعت الكلمة انتفضت من مكانها تصيح بهم:

- غرفة عمليات؟ ما الذي ستفعلونه بي، لست مريضة ولا أشتكي ألما قط.

الطبيب: اهدئي، سنفعل لك الخير كله، أما تودين أن تعودى بكرا كما كنت؟

هالة: نعم.. بكرا، أجننتم جميعا؟

أين أنا؟ أين؟

صاحت موجهة قبلة صراخها إلى الطبيب:

أي بكارة ستعيدها يا دكتور، الروح المدمرة أم الجسد المتهتك؟

تظاهر بعدم اللامبالاة، مشيحا بوجهه بعيدا عن عينيها النازقتين، غرض الطرف مجاهدا شعورا ما يتعاضم بداخله مع وقع كلماتها. وهو يشير بيديه إلى الممرضة من بعيد لتقوم بعمل ما.

الزوج: أعلم أنك واعظة، لكن لم أكن أعلم أنك تتحدثين بكلام الكبار، أتفلسفين علينا يا حلوة؟

الطبيب: الجميلات، لا يملكن جمال الجسد وفقط، بل وجمال العقل وعبقرية الفكر، وحسن الفهم، وبديهة الرد يا صديقي.

هالة: ما هذا الهراء الذي تضعونني فيه؟ أخرجوني منها فورا.

الطبيب - بعدما ظن أنه استعاد سيرته الأولى ضابطا دواخله:

- سنخرجك بالتأكيد ولكن ليس الآن، بعدما نصلح ما أفسده هذا الطبيب.

قالها وهو يشعل سيجاره الذي خان كل محاولاته وارتعش بين إصبعيه السبابة والوسطي فيضغط عليها محاولا ضبط رعشات يده، مادًا يديه ليشعل سيجار الزوج المخبول كما وصفته هالة مجددا إضافة إلى ما سبق من وصف إثر إقدامه على فعل كفعله معها.

ثم أتبع جملة بقهقهات متعاقبة وهو يغمز إلى الزوج بطرف عينه، فيبادلها قهقهاته هو الآخر، ويتلاقى الدخان المزفور من فم كليهما ليشكل في الهواء غيامات من القذارة والحقارة.

من خلفها طوقتها الممرضة بعدما أشار لها الطبيب خلسة، وقامت برش مخدر يغيبها عن الوعي مصطحبة إياها إلى غرفة العمليات بعدما وضوعها على النقال المخصص للمرضى، استفاقت هالة بعد إتمام العملية لتطمئنهما الممرضة أن كل شيء على ما يرام، فقط ستنتظر ساعة حتى تستطيع السير على قدميها، وبعدها ستعود إلى البيت وكأن شيئا لم يحدث، فلقد عادت بنتا بكرا من جديد كأن لم يقر بها مخلوق قط.

تنظر إلى الممرضة مشدوهة، فلا تدري ما تقول؟ ولسان حالها يقول:

- ما قيمة الكلمات وأنت في قبضة البغاء؟ بما تغنيك الكلمة وقت قيام أحدهم بالإمعان في إذلالك؟

لا قيمة لأي كلمة، فقط الكلام ساعثذ محض استغاثات مهترئة لا تفك قيدا ولا تعيد النفس إلى حالتها الأولى، ولا تزلزل المختوم على صدورهم فتردعهم أو حتى تحرك نذرا من رحمة ربما دفنت منذ زمن في رفات داخلهم البغيض، بل على النقيض، كلما توسلتهم، استحلقتهم، ذكرتهم بخالقهم، تبادوا في أفعالهم النكراء دونما أدنى انزعاج رادين لك الصاع صاعين.

انقصم ظهر الكلمات، فباتت واهية لا يُستجمع منها جملة ولا يُفهم منها معنى، والدمع عاجز حتى عن السيلان، تومئ برأسها وفقط.

تشعر بأنها هرمت بين قضبان المآسي الممتدة منذ بعيد وهي في مكانها ولا تعرف متى يدهسها قطار النهاية، نظراتها، عيناها المغرورقتان بالدمع الأسيف كعجوز هي ملقاة على قارعة العقوق بعد عمر من برها لولدها، أتراها تتكلم؟ ألا سحقا لكل المعاجم في مثل هاته اللحظات!

أعادها إلى المنزل ثانية، تتحامل على قدميها في المسير، حتى وصلت إلى سريرها فارتمت عليه، وكأنها تقول احتضني، فلتكن أنت أمانى وملجأى، فما كان منه إلا أن ابتلعها في لجج فرشهِ الوثير، بدت كمن تفانت في تقمص دورها في أحد الأفلام السينمائية حتى أنها لم تعد تعرف الفرق بين الحقيقة والتمثيل؛ فكلاهما امتزجا في بعضهما البعض حد التلاشي، بيد أن الفارق بينها وبين بطلة الفيلم أنها حُملت على أداء الدور جبرا، فأثقتته بغضا، أما البطلة فتفننت في أداء الدور بدافع من داخلها المُحب، فأثقتته حبا وبدت فيه متألفة إلى أبعد حد.

هكذا قضت أسبوعا من وقت إجراء جراحة الترقيع في تخطيط وتيه لا تدري لم يفعل بها كل هذا؟! وكلما ضاقت بها السبل للوقوف على حقيقة ما يحدث، قالت لنفسها:

- لقد وقعت في فخاخ رجل مختل، يعاني مرضا نفسيا؛ فلا إجابة لأفعاله غير المفهومة إلا تلك، ثم ما تلبث أن يغلبها البكاء وتسخط على ما يحدث لها، فيراودها الحنين إلى من كانت سندها ومربيتها الحقيقية، فتتذكر وجه جدتها المتوفاة وهي تقول لها في كل محنة تمر بها:

- ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فتنطقها على مضض وهي تقول:

- آه يا جدي، آه لو تعرفين ما ألم بي؟ حرمانني من التعليم والذي كنت أظنه الطامة الكبرى، لا يساوي شيئا أمام حرمانني من حب عمري وسكب كرامتي باستهانة بالغة، وكأني لا شيء في عرف هؤلاء البشر، قتلوني يا جدي بسكين ثلم، ومن طرحني أرضا ووجه وجهتي على قبلة الذبح هو ابنك، أبي يا جدي.

الآن علمت لم كنت دائما تعطيني دروسا في الصبر على الابتلاء؟ أكنت تشعرين أنني سأبتلى هذا البلاء العظيم؟ آه يا جدي، ليتك أخذتني معك، ولم تركيني أحياء بينهم، ليتك ليتك.

عاد إليها حاملا في جعبته ما لم يخطر على قلب بشر، عاد ليمارس حماقته وجنونه، وقف أمامها وعيناه فاعرة أجفانها تكاد تثقبها من حدة النظر المفعم

بالرغبة، يقترب منها يتحسس بكفيه الكبيرتين كتفيها، يمررهما على ظهرها المنحني وهي متكومة على نفسها، دافئة رأسها بين كفيها، ينهال عليها ككلب مستأجر يعمل لدى صاحب نعائه، يشتااق لالتهام فريسة سيده التي اصطادها له خصيصا، لكنه يعلم عاقبة العودة إليه خاوي اليدين، فيقضي طريقه كله من موقع اصطياها حتى يبلغه بلعقها دون أكل حتى يهديها إياه وهو ناظم ساخط عليه، يرجو له وعكة صحية تؤدي بحياته إثر التهامها.

انتهى من حفلة تعذيبه البشعة حيث قضى فيها شهوته، وهي مسكينة لم يتجاوز دورها فيها عن دور المائدة التي يلتف حولها الجموع، يتحسسونها ويحتكون بها ولكن لا لرغبة في ذاتها بل للأطباق الشهية التي رفعت عليها، أكل وشرب دون أن يؤتى قعر الصحن والكؤوس، ثم ارتقى على الأريكة يشعل لفافة من التبغ ليوصلها بحفلة أخرى أشد ضراوة.



الفصل الرابع

جارية فيه القصر

أحيانا تجد نفسك حائرا أمام سؤالات نفسك الملحة، فمثلا تتساءل وأنت تقلب في صفحات الحوادث - وما تحويه من جرائم جمّة فيما يتعلق بحالات انتهاك الأعراض - ما إن كان القوَّاد يعرف معنى واستخداما آخر للأوراق غير ذاك المعنى القيمي الذي تحمله أرقام الأوراق النقدية؟ إذ تفتح أمامه كل المغاليق التي ترفع رايات الشرف، لكن ما تلبث أن تقع أرضا بعدما يبرق في عينها أشكال النقود وأرقامها، وغيرها ممن تدعيه وهي في مكنونها لا تعرف عنه شيئا إلا النقيض بيد أنه وسيلتها الدعائية الفعالة التي تحيد استخدامها في التسويق لجسدها من أجل الحصول على مزيد من المال.

ليكون الجواب بعد قليل تدبر في الأخبار المنشورة: أن نعم، ربما يضطر إلى استخدام الأوراق المطبوعة إذا ما دعت الحاجة إلى التعامل مع آباء مهما بلغت حقارتهم ما زالوا يتمسكون بمسمى الزواج، حتى وإن كان العقد المعلن به

ليس بأصلي، فرؤيتهم للورقة تعطيهم إحساسا زائفا كأبوتهم بالرضا النفسي تجاه لحمهم المباع في سوق اللحوم الحية.

استخرج الزوج الورقة العرفية التي بحوزته، أمسك بها يقلبها على وجهها ويقهقه ساخرا وهو يعيد قراءة اسمه مرات ومرات ثم يخاطبها قائلاً:

- لمن هذا الاسم؟ أتعرفينه؟

دونما إجابة ينتظرها مزق الورقة وأحالتها قطعاً وعلى ضحيته المتكورة على نفسها في الفراش نثرها كنقود ينثره على إحدى غانياته مواصلاً الحديث:

- هذا هو نقوطك مني اليوم يا هالة.

ما أغبى أهلك حقاً! أتفكر أحياناً هل شعروا بالانتصار حينما وافقت على كتابة هذا العقد، أم فعلوا ذلك ليقنعوا صغيرتهم المتمردة؟

رفعت رأسها تحاول أن تستفيق من الصدمة، فوجدت شعوراً بالاحتقار قد اتخذ لنفسه مسلماً في داخلها ودلالاته قد ارتسمت على وجهها ترمق ذاك الكائن المختل، لاحظ أمارات الشزر المتقافزة هذه، فمد يده يجذبها من ذراعها نحوه، ليديني وجهها من وجهه مستكملاً حديثه:

- لا أعرف لم كل هذا الكبرياء الذي تتصنعه فتاة مثلك كانت تعيش في الحضيض إن وجدت ما تأكله على الفطور ما وجدت غيره إلا صدقة من يد عطوفة؟ لكن لا بأس، غدا ستعرفين كيف يكون الكبرياء وأهله؟

جَمَّرَ لها عينيه محذرا إياها ومتوعدا:

- افهمي جيدا، من الغد لا تعرفيني ولا أعرفك، لا، بل من هذه اللحظة، وما دار بيننا لم يكن يتعدى حدود الحوارات البسيطة، مفهوم ما أقول؟ أنا لم أقربك ولم ألمسك، انتبهي جيدا للكلماتي وتفهميها حتى لا تؤذي نفسك.

لا تنظري إلي هكذا يا جميلة العينين، من الغد ستذهبين إلى قصر الأمير، وستبقين للأبد.

اعلمي أن هؤلاء لا يعرفون المزاح، فكوني على قدر المتعة المطلوبة، أدي فروض أنوثتك باقتدار يا حلوة إن لم يكن خوفا على حياتك، فخوفا على حصة أهلك من المال الذي وعدتهم بإرساله كل شهر. صاحبت به قائلة:

- أي أمير وأي مال وأي حياة؟

- اهدئي، فتحت لك السماء أبواب الخير، الأمير صاحب الجاه والعز الذي لا يفنى، والمال تكرما مني لأعينهم على حالهم؛ عسى يكون لنا نصيب في إحدى أختيك الصغيرتين لاحقا.

أما الحياة فهذه التي ستعرفينها في القصر، لذلك استعدي، ستأتي إليك الآن مصففة كي تجهزك لتكوني بهية في حضرة الأمير المنتظر على جمر الشوق طلتك يا عروس.

لم تمض دقائق حتى رن الهاتف لتخبره بأنها تقف أمام البيت بالخارج،
للم حاجاته المبعثرة وارتدى ثوبه الملقى على الأرض وراح يفتح لها الباب
مرحبا، فبادلت ترحابه بضحكات مائعة وإيماءات وقحة، يصطحبها إلى
الداخل، تقف أمام هالة دون أن تعدل من سلوكها شيئا، بل تتمايع أكثر وهي
تنزع عنها عباءتها فتتكشف كل مفاتها وكأنها تسأله التوقيع عليها وإعطاءها
شهادة اللا أدب في فن الميوعة، تعجبه حركاتها وسكناتها، فيبادلها النظرات
بنظرات أكثر رغبة، فيجيب سؤالها الصامت لفظا، الناطق حركة قائلا:

- نلتقي في المساء، لا تذهبي بعد الانتهاء، ابق هنا أريدك يا حلوة.

- أوامر يا غالٍ، لن أذهب، أنا هنا في الانتظار فلا تطل أنت.

كانت هالة تراقبها وداخلها يحدثها:

- هذه الأفلام التي كنت أراها على شاشات التلفزيون، ها هي حقيقة
واقعه بشخوصها وطبائعهم، فالأمر ليس تمثيلا وحسب كما كنت أتوهم.

خرج هو من الغرفة وتركها معا، لم تنطق هالة طوال عمل الأخرى،
تركتها تفعل بها ما تشاء وكيف تشاء وظلت هي غارقة في كلمة عروس التي
قالها لها قبل قليل، تلاطمها أمواج الحنين إلى ماضٍ نسجته هي وأدهم منذ
الصغر، هو العريس وهي العروس.

فأين الآن العريس من عروسه المسهومة بسهام الغدر التي غمست في
قطران النجاسة قبل أن تُغرّز فيها؟

في القصر، يصطحبها من كان المفترض به أن يكون زوجها، تدخل على الأمير في أبهى حلة وأوج زينة، وكالعادة ينحني الخانع هذا أمام أميره مقدما فروض الولاء والطاعة، وهاته المرة متهللا ومستبشرا بحسن البضاعة التي سيكشف عنها نقابها، فيراها بدرا ليلة تمامه.

يأخذه جمالها، فيتأملها ويمعن في تأمله فيها من رأسها حتى أخمص قدميها، ثم يلتفت إلى سمساره قائلا:

- صدقا، تستحق لقب سمسار الحور.

معطيا إياه مبلغا كبيرا نظير ما قدمه من بضاعة تستحق الثمن المدفوع. نظرت هالة إليهما تحاول قراءة المشهد بروية، إلا أنه قد استعصى عليها القراءة؛ فكل شيء خارج نطاق الإدراك العقلي كما تفهم ما يدور حولها. همت أن تنطق باللقب الذي قاله الأمير لتوه لتؤكدده، حقا إنه سمسار، ولكنه سمسار الأعراض وليس الحوريات كما لُقب.

وها هي هالة وجدت نفسها بين عشية وضحاها إحدى جواري ذاك الأمير الفتي في زمن ما عادت فيه جوار تباع إلا عند طبقة أنزلت نفسها منازل الآلهة، تأمر قطاع وتنذر فيستقيم كل ذي عوج لا يروق لهم، نعم لم يكن فظا غليظا، ولكن هل حسن المعاملة الوقتية تشفع للرديلة؟ هل معسول الكلام من في رجل مغتصب يستدر حب القلب؟

هل رغد العيش ينسي حقيقة الحياة القائمة على الحرام الذي حمل في أحشائه ذنوبا وموبقات كتب لها أن تكبر وتتخلق وتولد على فراشه؟

لم تمهلها الأيام كثيرا لتجد إجابات وافية وكافية لسقاء تلك الأسئلة التي نبتت في فكرها؛ فلقد أتاها ما كان سببا في إلهائها عن نفسها فتذبل بكل يسر. وتبدأ في مرحلة جديدة من التفكير ليس من أجلها، ولكن فيمن كان سببا في نفيها بعيدا بعيدا عن أعين الناظرين، إذ حملت هالة بجنين في رحمها، ولما علم الأمير بنتاج ندوته المغروس، أصدر قرارا بإقصائها عن القصر الذي يحوي كل جواريه إلى فيللا أخرى بعيدة بصحبة خادمة وحارس لتبقى هناك بمنفاها بقية العمر في عزلة تامة عن كل ما يدور حولها في المملكة، منع الهواتف، فلا اتصال يأتيها ولا هي تتواصل مع أحد من البشر إلا الخادمة التي بصحبته طوال الوقت بالأساس لا تتركها، حتى الحارس لا تحدّثه ولا يحادثها، فقط مهمته الحراسة وتوصيل ما يجود به ديوان الأمير - المخصص للإنفاق على مثل هاته الشؤون الخاصة بعلاقاته النسائية - من كساء وغذاء عن طريق خادمته، فإذا ما مرضت هي أو طفلتها أبلغت الخادمة الحارس، فأبلغ ديوان سيده فيأتيهم الطبيب يؤدي مهمته دون أن يتلفظ بحرف خارج نطاق ما استجلب له.

فكان مؤنسها وشريك سجنها هو طفلتها التي وضعتها بين جدرانها دون أم تربت على يدها في مخاضها لتهونه أو زوج يفرح بمقدم وليدته الأولى،

أخبرتها خادمتها بعد الوضع أن الأوامر أتتهم بمناداة المولودة رهف،
فامتثلت مفوضة أمرها إلى ربها يصنع بها ما يشاء.

وهكذا مرت بها الأيام والسنون، يأتيها وابتتها الطعام والشراب والكساء
وما عليها إلا أن تأكل وتشرب وتلبس وحسب. تنبض بالخير القاتلة من
حين لآخر بعض التساؤلات المتوقفة عن الحياة، وكأن الله يقذف فيها الروح
كيما يهيئ لها أمرا من عنده، فلا تستسلم ولا ترضخ للموت البطيء بين أروقة
اليأس؛ فهي لا تعرف كيف تكون جارية بزمان كهذا؟

وابنتها هذه، لمن يكون نسبها؟ ألسمسار الأعراض، أم للأمير المشتري
منه من بعد شرائه تُنسب؟ هل من أحد يسمعها فيجيب؟ أما أن للحجارة
أن تنطق في ظل خرس البشر المعدومين التواجد أصلا؟ نعم، لا وجود لهم،
بيد أن أشباحهم تطاردها في كل وقت، وجه ذاك السمسار وهو يتوعدها
يلجم لسانها فلا تنطق بسؤال حتى وإن كان المتحدث والمستمع هما ذات
الشخص، هما هي.

أنهى شريط الذكريات دورته الدائرة، تارة يبطئ في عرض الصورة،
وأخرى ينطلق مسرعا متغاضيا عن التفاصيل، وهي ما زالت محدقة بسقف
الغرفة، وقد اعتصرت بداخل شباك دوامتها حتى استنزفت روحها عن
آخرها، ثم توقف الشريط، وسكن الدوران وهذا العصف وعادت الألوان
كما هي وتلاشت الأذرع تاركة إياها.

استشعرت حركة رهف تقبل نحو غرفتها، تطرق بابها بطرقات متتالية لتأذن لها بالدخول، فترتمي بين أحضان أمها في فرح ودلال بعدما أروت رغبتها في اللعب. احتضنتها هالة وأطبقت عليها بذراعيها، وكان الليل قد أقتم ورحلت ذكرياتها المخضبة بالقهر والخذلان مع حمرة الشمس التي تزايدت في هذا اليوم لتحكي يوم الذبح الفاتئ منذ سنين، وكأن تلك الحكايا التي لم يتحمل وقعها أي بشر قد أصابت الكون بجراح نازفة لا يرتجى شفاؤها.

تسمع هالة دوي طلقات نار في الخارج وأصوات طائرات تحلق بسماء المملكة، انقلبت الدنيا في لحظات رأساً على عقب، فقط أصوات وهتافات تضج بها الشوارع التي لا تعرف تخطيطها، هرج ومرج وأصوات متداخلة وصرخات تصدح وتذوي، فوضى عارمة لأول مرة منذ مجيئها، فتسمع أصداءها من حيث هي واقفة، خوف يدب في أرجائها هي وابنتها، فلا تعرف كيف تتصرف ولا كيف تحمي ابنتها؟

لحظات والأصوات تعلو وتعلو وكأنها تقترب من مكان مسكنهم، تحاول أن تخرج إلى الحديقة تتأكد من وجود الحارس، فإذا به غير متواجد بغرفة الحراسة، ارتعدت من الخوف ولكن هذه المرة لم يكن خوفاً على نفسها وحسب، بل خوفاً على طفلتها التي لا تعرف شيئاً من هذه الحياة سوى أمها والخادمة التي تسكن معهم.

تلبدت السماء بالطائرات تجوبها لتمطر الأرض بسخاء مما تحمله من أنواع
شتى لمخرسات الألسنة، ومثبطة الهمم والعزائم الثائرة، ومسام الأرض قد
تفتحت رغما عنها لتسقبل كل ذلك بعد تطويق المتاريس التي خرجت فجأة
من باطنها لها.

انقشع الليل بظلمته وهدأ دوي الرصاص وسكنت اهتافات الصارخة،
لكن ما زالت الطائرات محلقة تجوب السماء، توجهت هالة قبالة البوابة فلم
تجد الحارس المختفي منذ البارحة، بل وجدت البوابة بدون أي سلاسل
وأقفال عليها وكأن أحدا تعمد فعل ذلك ليسهل عليها طريقها الذي لا
تعرف معالمة ولا حتى من أين تسلكه ولا كيف تسلكه؟

خرجت ومعها الصغيرة تسير هائمة على وجهها لا تروم شيئا، فقط ربما
هو توقعها لرؤية الشوارع رغم ما تحفها من أخطار، وفرصتها قد أتت ولا بد
أن تقتنصها، مشيا لا يدريان كم من الوقت قد استغرق سيرهما حتى توقف
أمامهما سائق تاكسي يسألها:

- هل تودين الذهاب إلى مكان؟

نظرت إليه وكأن لهجة صوته المماثلة لعمها قد أوحى إليها بالفعل محببة:

- نعم، أود أن أذهب إلى مكان بإمكانه أن يعيدني إلى بلدي، فأنا ضائعة
هنا أنا وابنتي.

نظر إليها الرجل بتعجب وقد ظن لوهلة أنها مجنونة.

فأخرجت له بطاقة الهوية التي قد استخرجتها قبل تزوجها بأيام قلائل، وأخذتها معها خفية منذ أن رحلت عن بلدها كدليل على صدق مقولتها، وأخبرته أنها بحاجة ماسة إلى المساعدة؛ فحياتها وابنتها في خطر إن بقيا في الطريق وحدهما.

لم يكن بوسع السائق إلا أن يساعدها في ظل هلعها الشديد الذي كان جليا في تعتعة كلامها وتهدج صوتها.

أشار إليهما بالركوب ومضى في طريقه إلى السفارة المنشودة كما أبلغها أن هذه هي الجهة المنوط بها مساعدة رعاياها في البلاد.

سألته في ترقب:

وهل هذه الجهة عندما ألبأ إليها سأكون في مأمن ولن يؤذيني أي أحد؟

- أحسنني الظن بربك، وبإذنه ستجدين هناك من يساعدك.

أجابته بصوت حالم:

- آمل في ربي خيرا.

وصلا إلى مقر السفارة وأشار إلى البوابة التي بإمكانها الدخول منها، اعتذرت له عن دفع الأجرة؛ فهي لا تمتلك من النقود شيئا، فلم يبد أي تأفف ولا انزعاج، بل دعا لها بتيسير أمورها وانقشاع ظلمتها هي وابنتها، ثم تركها ورحل.

بخطوات وئيدة تقدمت إلى داخل السفارة، التقت بأول موظف بالداخل تسأله المساعدة، وقصت عليه ما كان من خبرها، وكما السائق دهش الرجل من القصة، لكن ليس بدرجة دهشة السائق؛ يبدو أنه قد مرت عليهم قصص أخرى لكنها أخف وطأة من قصتها، على الفور أخبر أحد المسؤولين الكبار، فالتقت به وأطلعتة على البطاقة الشخصية وقطع ورقة الزواج العرفي التي الممتها خفيةً من مصففتها التي قدمت لتزينها للأمير وقتذاك.

كما أخبرتهم بعنوان أهلها المطابق لما هو مدون في بطاقتها، بعد مضي ساعات قضاها المسؤول في تحرياته وتقصيه عن صحة بياناتها أخبرها أن الأمر ليس بهين في ظل توتر الأوضاع الأمنية ونبوءات عن حدوث هزات سياسية عنيفة في المملكة.

كانت كل أوجاعها قد تداعتها جملته (الأمر ليس بهين)، لتتحول إلى رحي تدور لتطبق على روحها تطحنها فتتنزع منها صمتها الراقد بأعماقها، تسفر عن صراخاتها المتتالية دون اكتراث بمكان ولا زمان ولا شخوص، فتنهال على المسؤول الماثلة أمامه:

- أي أمر ليس بهين؟ جسدي الذي باعه أهلي من أجل المال الذي ينتشلهم من الفقر، وعرضي الذي انتهك مرتين، الأولى من ذاك السمسار النذل حين ادعى زواجي بقطع الورق المبعثرة أمامك الآن، ثم تاجر بي بعدما أزحق روعي بسكين ثلم ولم يرقب في إلا ولا ذمة، وانتهك للمرة الثانية على يد مولاه السكير الذي ابتعاني ولم يراعِ حرمة ولا دين؟ أي أمر ليس بهين

أمام سجن انفرادي بعيد عن كل متاع الحياة قرابة الثماني سنوات؟ أي أمر يا سيدي ليس بهين مع شريفة ولدت من رحم مهترئ لا تعرف من هي؟ ولا أين هي؟ ولا أي وجهة يمكن أن تستقبلها؟

تعالت صيحاتها أكثر وأكثر، وظلت تضرب بيديها على المكتب وهي تبكي بحرقه تدمي الجلاميد، فما بالك بالقلوب؟ وتصيح:

- أريد أن أعود إلى وطني، وأن تعرف ابنتي من تكون؟ ومن أبوها؟

لم يقو على الرد عليها أمام طوفان غضبها الجامح الذي لا يقف أمامه شيء سوى بكلمات تضطرب أحرفها ألما ووجعا:

- لن أتركك بنيتي... حتما ستكونين بخير في بلادك إن شاء الله.



الفصل الخامس

هل تعود الروح إلى الجسد بعد خروجها منه؟

بدأت رحلة العودة إلى البلاد بعدما كانت ضربا من محال، والفضل بعد سهام الدعاء المصوبة في كبد السماء طيلة ما مضى من سنوات، تلك الانتفاضات الثائرة التي أضجت عرش الملكية، فالتهاوا بها حط عليهم الزمن من مصاب بدا في ظاهره كالريح العاتية تقتلع كل ما يمر به، فانهالوا عليه ضربا وقصفا وأسرا، ونسوا خصوصيات إمائهم وجواريمهم فلا وقت للانشغال بذلك العبث الذي أسكنوه القصور البعيدة، فلا بأس من أن يتناسوا شهواتهم لبعض الوقت في سبيل الملك ثم يعاودوا إشباعها بالضعف وزيادة.

تتصارع وتتقاتل بداخلها كل المشاعر، أيهم يكون له الغلبة " الخوف، الحنين، الشفقة أم الخذلان "؟

لم يدم هذا الصراع طويلا بعدما قفز طيف أدهم إلى مخيلتها، ذاك الحبيب الذي كانت له نبضا يتناص على نبض قلبه فيحيله شدوا قلبيا يسمعها إياه دون كلمات تنطق، إذ إنه في حضرة حديث القلوب يلتجم اللسان تعظيما وإجلالا، وكذا أرضه التي طفق على حرثها منذ أمد، وهياً تربتها العنبرية الطين، كيما يغرس فيها من بذور حبه ويسقيها من ديات عمره، فتزهر عمرا نيرا بأقباس حياته التي سخرها لها هي وحسب حينما كانت إلى جواره تسكن، تنهدت في محاولة لإسكات ذلك الهيام المتأجج في محبسه يناجيه:

- وألقيت عليَّ محبة منك.

فكانت روحك مؤنسي.

حينما غبت عني وارتحلت.

وعند الغداة إلي معاتباً.

نسيْتُ ما كان فيَّ من وجع وفيك تلاشيت.

وذابت روحي بروحك طوعاً وكرها مهما قسوت.

أيا ذائقي البعد مرّاً.

هلا داعبك طيفي.

ومني دنوت؟

وزدت في الحب أسفاراً.

وقطعت البوادي أغوارًا.

حتى وإن طغوت.

أما أخبرك السابقون أن العدل في الحبيب جور؟

ولقلبي أجوار إن عدلت؟

وجور الحب ألا يبرح اسمي نبض روحك في العشاء.

وإذا ما شقشق الفجر.

وشوش العشق بأن القلب بي ومني.

عاش دهرًا يغرب ويمسي.

وعلى شدو روحي.

ترتل ذكر الحب بدءًا.

أن اشهدوا يا قومي

ها أنا اليوم بنبضها أصبحت.

ظلت حالة النجوى هاته مسيطرة عليها حتى حطت برحالها ووطأت
بقدميها أرض الوطن، وحينها بدأ شعورها بالترقب يسيطر عليها بل
ويتعاضد، تساؤلات تسوق بعضها بعضًا عن أسرتها الغائبة عنها لتعصف
بذهنها المشوش في وجل:

- هل يا ترى اشتاقوا لي كما اشتقت؟

هل ما زال لي بذاكرتهم موضع ذكرى؟

أذكرون أن لهم ابنة باعوها؟

هل ندموا على ما اقترفوه بحقي؟

هل ما زال بيتنا كما هو لم يتغير؟

هل ما زال أبي وأمي على قيد الحياة؟

هل... وهل... وهل؟

مرّ الوقت يطوى بداخله المسافات حتى وجدت نفسها تطرق بابا تحفظ
شقوقه الخالدة جيدا، وإن تغير لون الطلاء ألف مرة، طرقت الثانية وفي
الثالثة فتحت لها أمها الباب وهي تسأل: من الطارق؟

لتكون الإجابة:

مشهد استقبال صامت في كلمه، صاخب في تأوهات، مهما بلغت قوة
الحرف فلن تبلغ من دقة الوصف الكمال، شهقات يتبعها شخوص للثلاث
معا العين والروح والقلب، ومن بعدها يشرع النحيب الأمومي في القيام
بدور البطولة في فصل العودة؛ إذ إنه مهما تكن الأخطاء المقترفة والتوابع
النازلة على الأنفس إثرها، فالأمومة أمومة لا يمكن انتزاع أحاسيسها بأي
حال من الأحوال من الداخل النفسي للأثنى، حتى وإن أظهرت للعيان أنها
تبرأت منها وداستها تحت أقدام الصلف ملقية بها في قاع التخلي.

ها هو اللقاء - الذي طال انتظاره حتى أوشك الصبر على النفاذ وبالمقام
يجل القنوط - يضرم النيران في القلوب ليشب أزيزا صارخا كفيلا بإطفاء
ولو جهرة واحدة من الجمرات الكثيرة المتقدة داخل هالة، لا عجب في مثل
هاته المواقف المتأججة المشاعر من أن نرى النار تطفئها النار، إذ أننا وفي
المعتاد نظهر الماء بالماء والتراب بالتراب، أما يحق للقلوب أن تطفئ نار نبض
غائب، نار نبض مشتاق حين احتضان، ألا شوقا ثم شوقا!

ما إن فرغت الأم من عناق هالة حتى التفتت إلى الصغيرة الواقعة
بجوارها، فحملتها وانهالت عليها تقيلا، وكأن القلب دليلها وشعور الجدة
إذ فجأة ولد وَصَبَا وشب وبلغ ذروة الأربعين في دقائق معدودة.

تقدمت هالة بخطى وثيدة إلى الداخل، لم يطرأ أي جديد سوى أن البناء
أصبح أسمى مستقوفا ليقبهم من وهج الصيف وحرارته ويحميهم من
صقيع الشتاء وسيوله.

تنظر إلى كل جدار تتأمله وإن لم يستغرق الأمر وقتا طويلا؛ فما البيت إلا
غرفتين على امتداد أحد جداري الصالة المطولة المتآكل عرضها، وعلى الجدار
المقابل ركن للطهي بالكاد يتسع لشخص واحد وفقط، يجاوره حمام لم يكن
ليزيد شبرا واحدا عن المطبخ الصغير غير أنه مستور بباب خشبي متهالك
يحمي خصوصية مستخدمه.

أدارت هالة بصرها نحو أمها تتأمل وجهها الذي ترك الزمان عليه آثاره
وملأه بالتجاعيد كعلامة تميزها خشية النسيان، وليفاخر بإيقاعه بفريسة

جديدة تنضم إلى فرائسه من العجائز، فأتى على ليل رأسها أحاله نهارا ناصع البياض، ولم ينس الجسد فله جل العمل، إذ شحمت وأصيبت بالبدانة إثر مرض السكري الذي أصابها.

شرعت هالة بالأسئلة المتهافة على المعرفة:

- لم أنت بمفردك هنا يا أمي؟

- أين أبي، وأين أخواتي؟

- أبوك توفي منذ عام بعد صراع طويل مع المرض الخبيث، لولا أدهم ابن خالتك ومساعداته في تغطية نفقات العلاج بعد حكمة الله في تحديد الآجال، لما امتد به العمر إلى هذا الحد، رحمه الله وغفر له، سامحيه يا هالة.

لم تستطع هالة أن تجيب أمها بقول ساحتها، وكأنها لم تسمع شيئا، لا تدري ما الذي أجمعها؟ اسم أدهم أم طلب الدعاء؟

ثم أكملت:

- وماذا عن أختي؟ أين هما؟

- تقدم لهما أخوان شقيقان كانا قد قدما من الريف يعملان في إحدى ورش المنطقة الصناعية المجاورة، أعجبا بأختيك وطلباهما للزواج فوافقنا، بعد فترة من السكن هنا في الحي رأيا أنها يستطيعان فتح ورشة خاصة بهما وحدهما في بلدهما وأن يستقرا هناك، وبين وقت وآخر تأتيان لزيارتي هما وأبناؤهما، وها أنا أحدثهم في الهاتف بشكل شبه يومي.

الحمد لله يا بنتي أنا في نعمة، لا تقلقي.

أدهم معي لا يمر يوم إلا ويأتيني أويحادثني بالهاتف.

للمرة الثانية يقع اسمه عليها كالصاعقة، وما لبث أن خفت قوته متحولاً إلى همس رقيق وهي تنطق حروفه متقطعة.

- (أدهم)

كيف هو الآن يا أمي؟ وما هي أخباره؟

- بخير يا ابنتي، دعك منا الآن واحكِ لي أنت عنك ولم لم تزورينا؟ ولا حتى تحدثنا في الهاتف كما وعدنا زوجك، حتى الـ...

ابتلعت بقية الكلمة ولم تنطقها، فأكملت هالة:

- حتى المال، حتى المبلغ الذي وعدكم بإرساله كل شهر لم يرسله، أليس كذلك؟

- لم أقصد يا بنتي، كل شيء يهون، فذاك أموال الدنيا يا حبيبتي، عودتك الآن ورؤيتي لك ردّت إليّ الروح؛ فما كان يشغلنا هو سلامتك وراحتك، وأن تكوني بخير.

زفرت هالة نفساً حاراً مفعماً بالحسرة على ما كان، والتهكم على ما تمتته أمها من محال، قائلة:

- نعم كنت بخير، بخير جداً.

ما زالت تتلهف لمعرفة أخبار أدهم فهذا ما يشغل بال قلبها الحيران الآن،
لتواصل حديثها بنبرة مغيرة:

-دعك مني يا أمي الآن وأخبريني عن أدهم، هل أنهى جامعته وتحصل
على عمل مرموق كما كان يطمح؟ هل تزوج يا أمي؟ سألتها (بعين زائغة
وروح شاردة).

-ياه، نعم يا بنتي، تخرج من بعد زواجك بعام، وفتح الله له من أبواب
الرزق الكثير، أسس مكتب للمحاماة بعدما حقق نجاحا كبيرا في قضية
كبيرة تحدثوا عنها في التلفزيون، يستحق كل خير، لا يتأخر عن مساعدة أي
أحد يعرفه أو لا يعرفه.

الحمد لله، أكرمه الله، والزواج؟

نظرت الأم بترقب إلى ملامح وجه ابنتها التي ازدادت صفوته أكثر مما
كانت عليه وهي تستقبلها فور قدومها، ففطنت لما يخالج ابنتها من شعور
باللهفة مشوب باللوعة المحرقة للفؤاد المحروم، فأجابتها:

- نعم تزوج يا ابنتي، وأنجب بنتا.

كصوت ناي مبحوح يكاد يسمعه داخلها فقط:

- تزوج وأنجب؟

رفعت صوتها شيئا فشيئا:

- وما اسم ابنته؟

- حياة، سهاها حياة.

نطقت هالة حروف الاسم حرفا حرفا؛ تستشعر مع كل حرف أنها لم تعد تمثل شيئا ذا قيمة له، ولا حتى ذكرى يمكن أن يتذكرها ولو بعد حين، لم يسمّ ابنته باسمها، ألم يعدها بأن يسمي ابنته باسمها؟ أما كان الأجدر به أن ينتقي اسما غير حياة، حياة إذن هي حياته ولا ينبغي في غيرها حياة، ومؤكد أن ما أصابه من ابنته من حياة كان لأمها عظيم الفضل فيه.

شعرت بفورة الدماء في رأسها إثر كل تساؤل لا تجد له إجابة غير الألم، تكاد الدماء تشق بصيلا شغرها فتتفر منها معلنة الغضب والسخط على كل ما حدث في غيابها، بيد أنها حاولت أن تتمالك أمام أمها وابنتها قائلة:

- حسنا أمي، أريد أن أستريح من عناء السفر، هيا يا رهف.

كانت رهف قد غفت بجوارها دون أن تشعر بها في غمرة حوارهما، رفعتها من على الكنب، وحملتها بين ذراعيها سائلة أمها عن أي مكان يمكنها أن تستريح فيه هي والصغيرة؟

- بإمكانك أن تستريحي بغرفتك أنت وأخواتك؛ ما زالت كما هي، لكنك لم تخبريني بشيء يريح قلبي الموجوع على حالك المعدم هذا الذي لا يبشر بالخير، ماذا أصابك؟ أريحي فكري يا ابنتي.

- لا تقلقي بشأني يا أمي، سأخبرك بكل شيء، لكنني منهكة جدا الآن. السفر كان طويلا ومتعبا جدا، بعدما أستيقظ سأخبرك بكل شيء.

الفصل السادس

وإذا القلوب تلاقى وانفتق عرق الهوى

رغم البؤن الشاسع بين ما خلفته هالة وراءها من قصر مشيد ومتاع رغد في مملكة الزينة "أرض الشهوة والمال" وبين ما عادت إليه من بيت بسيط وعيش زهيد إلا أنها غرقت في سباتها كمن لم يكن لأجفانه عهد بشيء اسمه نوم.

استيقظت رهف بعد ساعات قلائل تاركة أمها في رحلة الغرق اللذيذ التي بدأتها مثقلة متعبة، وما لبث أن مر الوقت حتى استسلمت بأريحية إلى ضمة سريرها الغائب، فتخدرت بها، واستمتعت حتى ليظن رائئها أنها غير راغبة في إطلاق صفير الاستيقاظ مجددا.

وقفت أمام الغرفة وجلة تراقب جدتها الجالسة بالصالة تمسك بمسبحتها تسبح وتستغفر، والتي ما إن رأتها حتى نادى عليها فأقبلت عليها تتهادى

في مشيتها، تقضم أطا فرها خجلة، ثم دنت وما لبثت أن وجدت نفسها بين ذراعي الجدة مستقرة مستكينة، دقائق وأخبرت رهف جدتها بجوعها، فانتفضت من مكانها بسرعة باتجاه المطبخ وكأن كل الشحوم التي تلبستها قد ذابت، وآلام العظام قد تلاشت من فرط السعادة وهي تقول:

- حالا يا صغيرتي، ساعد لك شيئاً تأكلينه ريثما تصحو أملك. ما رأيك بشطيرة جبن؟

- أحب الجبن جداً.

- ساعد لي أنا الأخرى كوباً من الشاي.

- حسناً جدتي، وأنا مثلك أريد شايًا مع الشطيرة.

أحضرت ما أعدته وجلستا تشاهدان التلفاز الصغير، وما لبثت رهف أن قضمت قضمتين إلا وباغتت جدتها تسألها:

- هل بإمكانني أن أذهب هنا إلى المدرسة؟

ارتسمت على شفتيها بسملة إعجاب بحفيدتها، ومدت يدها تربت على كتفها، بينما بصرها ناح غرفة هالة مصوباً، والعقل يستدعي الذكرى على وجه السرعة من الزمن الغابر، فتخال شبح ابنتها أمامها وهي تبكي وتستنجد بها أن تجعل أباها يحيد عن قراره بمنعها من الذهاب إلى المدرسة وحرمانها من استكمال دراستها، فقالت وهي تربت على كتفها بنحو:

- يبدو أنك نبيهة يا صغيرة، وتحين العلام ك...

لم تكمل كلماتها إلا وسمعت صوت طرقات على باب الشقة تحفظ جيدا اسم صاحبها.

إنه أدهم قد أتى كعادته ليطمئن عليها، قامت إليه تلبية نداءات يديه، متهللة الأسارير، مبتهجة الوجه على غير عادتها، وكأن الزمن قد ندم على أفاعيله بها وقرر أن يعتذر لها مصوبا خطأ الذي ارتكبه بحقها من تجاعيد قد اتخذت من وجهها سكنا وصفرة جعلت من جلدها تعريفا للون الأصفر وإبداله بنضارة حية من رحيق الشباب، استقبلته بترحاب واحتضنته بشدة.

تباينت ردود فعله ما بين دهشة انتابته للوهلة الأولى ممزوجة بالفرحة لرؤية حالته فرحة بشوشة، وما لبث أن حل شعور ثالث ألا وهو التعجب الذي أتى يتوكأ عصا النبض الذي تقافز من مجرد رؤيته لرهف؛ فها هي النسخة المصغرة من هالة تقف أمامه، وأنى له أن ينسى يوما وجهها؟!

سأل حالته؛ تأكيداً لحسنه أكثر من كونه يستفهم:

- من الصغيرة؟

- هذه هي المفاجأة التي أخبرتك عنها في الهاتف قبل قليل، هذه هي رهف ابنة هالة.

ازدرد ريقه وهو يحاول النطق فلا تسعفه الحروف، فخرجت الكلمات متلعثمة:

- ابنة من يا خالة؟

- ابنة هالة يا ابني، أنسييت هالة يا أدهم؟
- نسييت، آه يا خالة نسييت، نسييت نفسي، نسييت عمري.
- أين هي هالة؟ أينها هي الآن؟ وكيف عادت؟ ومع من؟
- نائمة الآن يا بني، نامت وكأنها لم تنم منذ سنين.
- كيف عادت؟ ومع من؟
- عادت هي ورهف، ولم تحك لي شيئا حتى الآن.
- أخيرا عادت، لقد يئست من عودتها، بحثت عنها، لم أترك شخصا أعرفه يقطن المملكة إلا وتواصلت معه للبحث عنها، لم أدع سييلا بإمكانني أن أسلكه لأسأل فيه إلا وسألت، فلم أجد لها أثرا، الجواب دوما لا توجد أي أوراق رسمية تثبت وجودها هناك، ولا حتى هذا التيس الذي زوجتموها إياه، لم أجد لاسمه أثرا رسميا في الدفاتر الحكومية.
- أكنت تبحث عنها دون أن نخبرنا؟ فهمت الآن لم طلبت مني رؤية نسخة عقد زواجها الذي معي.
- لم أجد ما يطفئ نار لوعتي كيما أشارككم إياه.
- كلامك قاتل يا ولدي.
- لا عليك يا خالة، متى ستستيقظ؟
- لا أعلم، لم أحاول أن أوقظها؛ فهي متعبة جدا وترغب بالراحة.

- دعيها تسترخ، نحن بانتظارها.

قام إلى رهف يستقطب ودها، مداعبا إياها محاولاً أن يستفهم منها عن حياتهم السابقة بطريقة وادعة، فإذا به يرى النور يتسرب إلى خارج الغرفة من تحت عقب الباب، نظر مترقبا مقبض الباب عساه يتخلى عن صمته ويتكلم منبئاً بخروجها، بيد أنه ظل صامتا دون كلام.

مضى ما يزيد عن الساعة ولم تخرج، استشعر الحرج من نفسه التي شرعت تحدثه:

- لربما هي خجلة منك.

ثم عاوده احتمال آخر:

- لا بل حائقة عليك؛ ألسنت من خذلها ولم تستطع أن تخلصها من بغيهم عليها، وتمنعهم من تزويجها؟

- ما كان بيدي شيء، طردوني وعنفوني ووصموني بالصيبانية وعدم المسؤولية.

النتيجة واحدة، بيعت بأبخس الأثمان. اخربي يا نفس، كفاك إيلا ما.

قاوم رغبته الملحة عليه لأكثر من مرة في أن يقوم بطرق الباب عليها ويستأذن للدخول، كما كان يفعل في السابق، بيد أن عقله ينهره زاجرا أنه شتان بين ما كان وما هو كائن، الزم مكانك.

تعاوده الحيرة تغزو بعلامات استفهام إلى رأسه فتنهكه وتزيد من معدلات انفعالاته التي يجاهد في إخفائها عن أعين خالته والصغيرة، يلتفت إلى رهف يسألها:

- كيف حالك يا صغيرة؟

- أنا بخير.

- دوماً بخير.

- كيف حال أبيك؟

- لا أعلم عنه شيئاً؛ فلقد سافر وتركني وأمي منذ زمن.

- سافر؟ إلى أين؟

- لا أعلم، أخبرني أُمِّي أنه سافر إلى مكان بعيد جداً، اسأل أُمِّي.

تدخلت الجدة تقاطعها:

- حسناً يا رَهْف، انتظري يا بني حتى تخبرنا هالة بنفسها، فهي لم ترح قلبي بأي شيء.

- حسناً يا خالة، لقد تأخر الوقت، دعيني أذهب الآن وسأعود في الغد، حالما تكون هالة قد استراحت بما يكفي، ومن ثم نستطيع الحديث معها.

هي في غرفتها قد سمعتُ صوته، بل استشعرت حضوره وتنسمت عبق طلته، وهو ما زال واقفاً أمام باب الشقة، نعم سمعت وأحسّت وتنهدت،

بيد أنها عجزت عن المواجهة، عجزت عن استنكار يوم عصيب تتوسل فيه إليه أن يحميها من بغي أبيها، وضغوط أمها عليها كيما توافق على العريس، فعجز.

ترجته أن يساعدها كيما تهرب من البيت، عرضت عليه نفسها زوجة ولو بعقد عرفي حتى لا تكون لرجل غيره، وأبى ونهر.

عادت منه خاوية الوفاض، دامية القلب، مكلومة الروح، لم تجد وقتذاك تبريرا لتصرفاته، لم تجد شيئا من تلك الرجولة المزعومة التي كانت تؤطر كل تصرفاته معها، ويذيل وعوده لها بامضائها، بيد أنه وقت التطبيق الحقيقي لها لم يفعل، وقت المحنة فشل، وقت الاحتياج الفعلي تخلى. لعنته وقتها ولعنت نفسها، بل لعنة الحياة كلها.

سرحت مع نفسها تحدثها وهي تسترجع الماضي القريب قائلة:

- نعم، لعنت أسمى ما علمتني إياه يا أدهم، لعنت الحب. الحب الذي عجز أن يفعل ولو شيئا واحدا لأجل المحبوبة، أظن أن ما كان بيننا حب من الأساس، أم مجرد أحاسيس غضة أفرزتها طبيعة مرحلتنا العمرية التي مررنا بها؟ إذ هل يعترف الحب بالعجز؟ هل يعترف بالخذلان؟

ألم ينطلق الاختبار الذي وضعنا فيه كلانا من لحظة الانشطار التي أصابت كبد الالتقاء الروحي كما فلسفت لي الحب، حين سؤالي لك عن ماهيته؟

أو لم تكن تحسب حسبنا لإمكانية حدوث انشطار فتأهب له متسلحا
ببعض من قوة؟

وعندما كانت الطامة وحدث الانشطار، ألم تسمع دويه فتقاوم؟ أعلم
مسبقا كلامك، وردات فعلك بأني أنا ذاتي لم أثبت، نعم لم أثبت لأن وهنك
أوهني فوق وهني أضعافا وأضعافا.

استفاقت من شرودها الذي لم يقل ضراوة عما كان هو فيه شاردا بالخارج،
استردت نفسها الغارقة منتبهة لصوت الباب يغلق بقوة، ففطنت إلى مغادرته
للبيت، ولذا قررت الخروج خاصة أن الجوع قد بلغ منها مبلغه، وحاجتها
للاغتسال من عناء السفر باتت ضرورية مع تلك الرطوبة الخائفة التي يتشبع
بها الجو صيفا.

التقت بأمها ورهف جالستين في الصالة، فأمست عليها معقبة التحية
بسؤال:

- من الذي كان هنا يا أمي؟

- أدهم كان هنا وكان يود رؤيتك بشدة، لكنك رفضت الخروج علينا
وهو بالبيت، فاستحى وغادر.

- لم غادر سريعا؟

- أبعد كل هذا الانتظار لك وتقولين سريعا؟ عجباً لك!

الرجل كان سيجن وهو جالس، يترقب طللك، شعرت للحظة أنه سيقوم من مكانه منتفضا ويفتح عليك الباب ليوقظك وإن كنا بالأساس متأكدين من يقظتك.

- حسنا أمي، أنا مجهدة ولم أكن لأستطيع التحدث إلى أي أحد.

- وهل أدهم أي أحد؟ رحم الله الأيام الخوالي التي كنتِ تتلهفين إلى حضوره وتنتظرينه بالدقيقة.

- وهل حافظتم عليها يا أمي، أم انتزعتوني من انتظارها انتزاعا دون أن تأخذكم بي شفقة ولا رحمة؟

صمتت الأم دون إجابة بكلمة؛ فهي لا تملك ردا يبرر ما اقترفه في حقها من جرم.

- ها يا أمي، لم لا تجيبيني الآن؟

- هيا يا ابنتي، استهدي بالله وتوضئي وصلي ما فاتك من صلوات حتى أنتهي من إعداد العشاء، فلقد تصورنا جوعا، حتى ابنتك لم تكمل حتى شطيرة الجبن التي أعطيها إياها حين صحت، فأسرعي كي تطعميها أنت. أجابتها وهي في طريقها إلى الحمام:

- حسنا يا أمي، سأغتسل سريعا، جسدي بحاجة إلى انسياب الماء عليه لعله يزيل كل عوالق الرحلة المرهقة وينسيني عناء السفر.

كان سيل الماء المتدفق عليها من منبت رأسها حتى قدميها كفيلا لا بإذابة
أدران الجسد العالقة على المسام وحسب، بل كان من شأنه أن يخالط كل
خلجات روحها؛ ليكون لكل خيط عمل يؤديه مع كل خلجة؛ فهذا خيط
يلامس وجعا كان نائما نومته الكبرى فنفخ فيه الروح من جديد ليقوم من
نومته حيا نابضا تارة بالحسرة وأخرى بالحنق، وآخر يخالط جرحا لم يندمل
بعد فيجعله ينتفش ويتنفخ صديدا تتقزز من رائحته فتتمنى إنهاء الغسل كيما
تنشفه وتضمده حتى يطيب.

وخيط آخر يلامس تلك الخلجة الواقعة في المنطقة البينية لا إلى هؤلاء
ولا إلى هؤلاء، تلك المنطقة التي كانت مفؤوده بأدهم الماضي وأدهم الحاضر
والراغبة من أدهم المستقبل، أدهم الذي استوطنها بكل حالاته؛ فعلى الرغم
من ثلاثية تواجده الزمني معها إلا أنه لم يكن له في قلبها إلا عمليين إما الحب
وإما الحب.

أغلقت محبس المياه وظلت في مكانها حتى نفذ كل القطر المتساقط فكانت
آخر قطرة تلامسه هو، هو وحسب، فعلى مدار نبضها الساكن تلك المضغة
القابعة على يسار صدرها كان لها كل قوتها، كل ضعفها، كل عمرها الآفل،
فكانت هو، بيد أنها أكثر ما تخشاه أنه لم يكن هي.

خرج يائسا بائسا تتوافد على روحه كل صنوف المشاعر التي يمكن أن
تتوافد على روح تائهة وسط ركام الذكريات، قضى ليلته في مكتبته منكبا على
دفتر مدوناته يراجع عمرا سطره في كلمات، وحبا ترصعت بلالئه أجبنة

الأوراق، قرأ وقرأ وقرأ حتى توقف عند تاريخ الليلة، وهنا عاودته أدوات الاستفهام تعصف بظنونه المترامية على أطراف عقله.

كان من المفترض أن يعاود زيارتهم في آخر النهار، بيد أنه لم يشعر بنفسه إلا وهي "هالة" تفتح له باب بيتها إثر طرقاته المتتالية عليه في شقشقات البكور، الأم ما زالت نائمة وهالة قد اكتفت نعاسا بعد جرعة النوم المكثفة ليلة البارحة، فتحت بعدما أجاب على سؤالها من الباب؟ فإذ به هو بشحمه ولحمه.

وقفا وكأن على رأسيهما الطير، يتأملها صمتا وتأمله أزيزا، هكذا دوما كانت لهما لغتهما الخاصة بهما وحسب والتي لم ينسها أي منهما رغم كل ما مرَّ عليهما من مرٍّ، يتناجى القلبان حضورا ويتعانقان بعدا، أمامها يقف لم يكن قد تغيرت هيئته إلا من بعض خصيلات شيب قد زينت سواد شعره المموج، وجهه المشرب خمرة جذابة قد استقاها من أبيه الذي ورث منه أيضا أنفه الأقرنى، أما عن عينيه البنيتين اللتين على امتداد اتساعهما تظهر غيمات الحزن عالقة على أهدابهما، تحاوطهما هالات من السواد المعتق في محابر الحزن، بنيته الجسدية كما هي لم يغير عليها الزمن بنقص أو زيادة، جسد متناسق البنیان. استرعى انتباهها الشيب فطافت ببياضها سبع أشواط لعلها تستهدي إلى سر بزوغها فلم تهتد.

أما هو فها هي تقف أمامه بكامل هيئتها، تغص قلبه صفرةً قد عكرت صفو الحليب الذي تشكل ذات ولادة ليتخلق منه وجهها الملائكي، وجه

لطالما طالعه فلم يرَ في ملامحه سوى صورته، وما تلبث أن تستشعر حملته
فيلقي الحياء منه بظلاله الوردية على وجنتيها فتتوهج حمرة وتنزوي صورته
سريعا إذا ما لامسها الخجل.

تأمل ملامحها ثانية وثالثة ورابعا، كلما همَّ برفع يده يتحسس ملامحها التي
ما إن رآها راءٍ أيقن أن السماء قد نفخت فيها من روح الحوريات فلا ترى إلا
بعين الجمال ولا توصف إلا بحرف الجمال.

بادر هو بقطع وصلة الصمت التي امتدت لما يقارب النصف ساعة،
ليستأذن بالدخول، فهمت أن تأذن له، بيد أن صوت أمها عاجل ردها آتيا
من الداخل ليخبرهما بأنها استيقظت لتوها وهي تتمتم:

- اللهم بك أصبحنا يا كريم.

رأتها على حالتها هذه، فقالت موجهة كلامها إليه:

- خيرا يا بني، ما الذي أتى بك باكرا هكذا؟

تلعثم قليلا وهو يفكر في إجابة مقنعة، فلم يجد فقال:

- لأطمئن على...

لم يكمل الجملة باسمها وجنح إلى الجمع.

- لأطمئن عليكن.

- نحن بخير.

فهمت لهفته على هالة التي دفعته للحضور في هذا الوقت الباكر،
فابتسمت له وأكملت:

- تفضل يا بني ادخل، لم تقف هكذا؟

انتظرنى عشر دقائق سأصلي الصبح، فلتعدي له مشروباً يا هالة إلى أن
آتي.

- لا لا لا أريد شيئاً، اجلسي يا هالة أريد أن اطمئن عليك.

- حسناً لن أتأخر، انتظراني أنا الأخرى أريد أن أعرف منها كل ما حدث
لها وهي بعيدة عنا، فهي لم تحك لي حتى الآن.

أنهت الأم الصلاة وجلس الثلاثة، بدأ هو الحوار موجها حديثه لهالة التي
لم تنطق بكلمة في الحوار السابق والتزمت دور المتفرج الصامت قائلاً:

- أخبرينا ماذا حدث لك منذ أن غادرتي مع زوجك؟ وكيف عدت؟
وأين

هو؟ ولم لم يعد معك؟

لقد علمت من نشرات الأخبار بتفاقم الأحداث الجارية في المملكة،
وأن الأوضاع الأمنية مقلقة في ظل تأزم الوضع السياسي، هل لذلك علاقة
بعودتك؟ وأين زوجك الآن؟ هل هو من أرسلكما؟ أم ماذا؟

طيلة السنوات...

توقف عندها ولم يرد أن يخبرها ببحثه عنها، هو يريد أن يسمع منها هي ولا يربكها بتفاصيل بحثه عنها.

كانت أسألته التي تشع براءة وهو يورد كلمة زوج بكل أريحية في صياغتها تتوالى عليها تترى، تستمع إليه وتومئ برأسها أنا معك أنصت إليك، بيد أن علامات البلاهة تأبى إلا أن تخرج من مخبئها مسرعة لترسم على ملامحها رغما عنها، إذ إن أدهم يتحدث كما لو كان يتحدث عن امرأة تعيش حياة زوجية طبيعية، حاولت التزام الهدوء، فلم تستطع إذ انفلت عقال لسانها صارخا به:

- أي زوج هذا الذي تتحدث عنه؟

- زو.. زوجك

صمت لهنيهة ثم واصل:

- ذاك الخليجي الثري الذي تزوجك.

- آه، ثري صحيح.

- ما بك يا هالة؟ ما الذي فعله بك؟

نظرت إلى أمها ثم عادت إليه ثانية:

- الذي بي أن جميعكم بعمومني ولم تزوجوني، بعمومني بأبخس الأثمان

ورحتم تهنؤون وكأن شيئا لم يكن.

- هالة، من قال لك أننا هنئنا؟

يا هالة أنت واهمة.

- إذا سمحت، دعني أكمل الحكاية يا حضرة المحامي، ولا تصدق لهفتك المصطنعة ولا تصفني بالوهم، أنت لا تعرف شيئاً.

- أنا لهفتي مصطنعة يا حبي.... ولم يستطع أن يكملها إذ نطقت هي مخنقة:

- دعني، دعني أكمل حكاية الذل والقهر والعار.

لم يعد يمتلك شيئاً من حروف، فحلت النظرات محل الكلام أن أسمعك يا حبة القلب، والأم تراقبهما في صمت مخزٍ من ماضٍ عاق.

راحت تقص الحكاية كاملة وهما في حالة من الذهول والهلع، الأم ترتعش يداها وتبكي بحرقة، لا تدري أتبكي من شعورها بالذنب لما اقترفته في حق ابنتها، أم من حسرتها على تلك الفجائع التي مرت بها ابنتها؟

أكانت زيجة الندامة والحياة وليس كما كانت تقول لتقنعها بأن هذا العريس هدية السماء لها لتعيش في رغد أبدي بعيداً عن الفقر وقاذوراته؟

أما هو فقد انتفخت أوداجه، ونفرت عروقه إذ غلى فيها الدم وأخذته الحمية على عرضه الذي انتهك مرتين وليس واحدة.

نعم هي عرضه وامراته وحبيبته التي لم تزل مكانتها كما هي لم تتزحزح قيد نبضة.

مرّ الوقت دون أن يشعروا به، فقط خشخشة الصدور المتجمرة تسري
في المكان بعدما انتهت من القص، ووجوم يعتلي الأوجه المكلومة، سمعوا
بكاء رهف آتٍ من غرفتها تنادي أمها، فقامت إليها هالة مسرعة، تضمها
وتحضنها وتلبي طلباتها.

فاستأذن هو دون استئذان من خالته للانصراف، فقد أصبح قاب قوسين
أو أدنى من أن يفقد قدرته على التحكم في أعصابه، ولا في لفظة كلامه،
فخرج دون أن يسمع ردا يقال.



الفصل السابع

وللقلوب شريعته الخاصة

حين نقف عاجزين عن مساعدة من نحب، نشعر بأننا واللاشيء سواء، حتى الأيام تمضي وكأنها لا تمضي، الأشياء تتغير من حولنا ونحن عن التغير هذا عميانا، يتحدث إلينا ذونا وردودنا عليهم الصمت الصموت، اللقب الأقدّر على وصف حالتنا هو أننا أموات على قيد الحياة، ولربما أحياء على قيد الموت نرتجيه أن يخلصنا مما نحياه من عجز آبق إلينا من كل حذب وصوب.

مرّ أسبوع كامل لم يأت أدهم لزيارتهم، كان حبس نظراتها التي لم تفارقه لحظة منذ أن غادر، حبس لومها له، حبس احتياجها له وإن آثرت لجمه وعدم البوح به، حبس حبها المنطفئ في عينيها، المتجمد في ملامحها الساخطة على كل شيء وأي شيء.

في خلال هذا الأسبوع أختا هالة كانتا قد قدمتا من أجل الاطمئنان عليها وعلى ابنتها بعد هذا الغياب الطويل، اللقاء الذي خفف إلى حد معقول من حالة الحزن المخيمة على البيت منذ إفراغها لشحنة غضبها وما حكته من مأس أدمتها في المملكة.

اندجت رهف في هذا الأسبوع مع أبناء خالتها، وكأن الدنيا قد قصر عملها على إسعادها هي وحسب لتقول لها اهنأي والعبي كيفما شئت. فلأول مرة في حياتها تقابل أطفالا مثلها، فكانت تلعب وتلعب وتلعب وكأنها تخشى على اللعب من النفاد، فلا تدع وقتا إلا واستثمرته لعبا حتى أنهكت الصغار معها من كثرة اللعب.

أما هالة فبالرغم من شرودها في حال ابنتها ومآلها، وطيف أدهم الذي يراودها بين الحين والحين يسرقها من حولها لتذهب معه بعيدا بعيدا حيث كانت علاقتها قبل سبع سنوات، كانت تجاهد نفسها في أن تتفلت من قبضات نداءاته وتنفض عن ذهنها إلحاحه عليها بالإنصات إلى كلماته التي تستقطب قلبها ناحية قلبه من جديد لتندمج مع أختيها وأطفالها الفرحين برهف وخالتهن، تسمع أقاصيصهما وضحكهما وحتى ما يرويانه عن مشاجراتهما مع زوجيهما، ورغم محاولات التفلت منه كانت تغلح تارة وتحقق تارات؛ ليمر الأسبوع الموحش عليها بدون رؤيته، وتساfer الأختان إلى بلديتهما حيث تسكنان ويعود الهدوء الحزين من جديد يلقي بظلاله على البيت.

لم يطق البعد أكثر من ذلك وفاجأهم ذات مساء بطرقات يده على الباب، استقبلته حالته بلهفة وتوق كأنه غاب عمرا وليس أياما، بينما استقبلته هالة استقبال الغريب فلم تبدِ ودا ولم تتلاطف في الحديث، الشيء الوحيد الذي حملها على محاورته هو أنها قد انتوت على بدء اتخاذ الإجراءات اللازمة لإثبات نسب ابنتها خاصة بعد رفض مسؤولي السفارة مساعدتها في الوصول إلى الأمير والتحقق من نسب البنت إليه بحجة تعسر الأمر بل استحالته في ظل الأوضاع الأمنية المضطربة بالمملكة واحتمالية تعرضها للإيذاء في حال إقدامها على ذلك وهي ما زالت بالمملكة، واكتفوا فقط بتيسير سبل عودتها للوطن كيما تنجو بنفسها هي وابنتها.

بدأ هو الحوار معها فور ترك حالته للمجلس وتوجهها إلى المطبخ لتعد له قهوته التي يحبها مصطحبة رهف معها؛ كيما تترك لهما فسحة من الحوار عسى ذلك يخفف على ابنتها حزنها قائلاً:

- كيف حالك هالة، عساك أصبحت أفضل؟

- نعم أفضل بكثير، والحمد لله أنك أتيت؛ فإني قررت المضي قدما في سلك السبل القانونية لمعرفة نسب ابنتي.

- جيد جدا، أنت بحاجة إلى محام إذن.

- ولم أتحدث إليك الآن يا حضرة المحامي؟

- نعم عزيزتي، أمرح معك فقط، المحامي ومكتبه ومعاونوه رهن أمرك.

- أشكرك، فقط بإمكانك أن تكلف أحد معاونيك بتولي القضية وإخباري بما هو مطلوب مني.

- أحد المعاونين يا هالة؟ لم تقولين هذا؟

الصباح الباكر إذا تفضلت أنت علي بعمل توكيل لي لأكون محاميك الذي سيتولى أمر القضية، وإن كنت أفضل أن أقول أنا الأب الذي سيتولى أمر ابنته.

- لا داعي للمبالغة، شكرا لتعاطفك، بالصباح سأذهب لعمل توكيل لك.

- في الصباح سنذهب معا لبدء الإجراءات كاملة، فقبل التوكيل أنت بحاجة إلى تجديد بطاقة الرقم القومي، أنسيت ذلك؟ بطني أن صلاحيتها قد انتهت منذ سنوات، ألا تذكرين حين كنت معك لنستخرجها أول مرة؟

- لا لا أذكر شيئا، سأنتظرك بالصباح إن شاء الله، أرجو ألا تتأخر.

- حسنا عزيزتي، يبدو أنك نسيت كل شيء حدث معي فقط، الثامنة صباحا سأكون أمام البيت.

أنهيا الحوار ويد خالته تمتد إليه بالفنجان ليتناولها وقد بدأ السرور يدب بقدميه في نفسه، ففي الغد ستكون معه وحدها بدون ثالث، لربما يستعيدان من جديد حوارات الماضي العفوية التي لا تعرف الألقاب ولا التعقيدات ولا حتى الخوف إليها سبيلا، لربما يستطيع أن يلين ذلك الجمود المسيطر عليها، لربما...

بينما لا يطيق لسانها فيه قولاً، كانت عينها تنضح به شعور لا تعرف له
مسمى سوى الكره؛ بيد أنه كره من نوع خاص، يمثل روحها وحدها ويحكي
قلبها وحده إذ تلتهم ناظرة إناء تخاطبه صامتة:
أكرهني وأكرهك.

أكره وهني المتعاضم فيك، يسامق السماء، يمر عليك ورغم ذلك يأسرك
ولا يؤثرك.

أكره قوتك الزائفة إذ تقابلني بها، تعرج منك إلي حتى تخفت ثم تندثر؛
وإن توشحت بوشاح الضجة المصطنعة والسلطة المسؤولة؛ ففي قلبك
الشوق يغزوك يوهنك في ليقته.

أكرهني لأنني لم أرَ اكتمالا لعشق إلا معك، لم أستلذ بمدارات الموجودات
من حولي رغم بعدك وبعدي إلا لأنها تجود عليّ بك وتضعيني فيك. كنت
أظنه ذات حلم على سنام العاجية عشقاً أفلاطونياً لا يحدث هنا بين مدائن
الذنوب والمعاصي، بين صراعات النفوس، وقذائف القدر.

أكره ثباتك الواهي، وأنا المتشبثة بأضلعك أن تحرك.. انطق.. قل لي كيف
تبدو هكذا قويا، متماسكا، صلبا، صلدا، وأنا التي اجتمع عليها الحرق
والغرق وكل صنوف الألم؟!

أكره ثرثرتي التي لم تخلق إلا في لقاءاتي معك في عهدنا الأول، ومع الغير
كنتُ الخرساء البكماء التي لا تصلح لمخالطة البشر.

أكره صمتك الضافي الذي دائماً ما كان يوخزني على استحياء أن أوجزي
في الكلام، أو فلتصمّتي، وتدعي الأعين تتبادل السلام حباً.

أكره صمّتي الآن الذي يضح بك، يقارنك بين ماضيك والحال، بين
لهفات الماضي الطفولية، وصلابة الحاضر الرجولية، بين شغف حضورك
الذي أستشعره رغماً عني، ورتابته الفعلية.

كرهت المقارنات التي يمد ذهني تحت أقدامها كلما صمّْتُ؛ أعلمت لماذا
كل هذا الصخب؟!

أبحث عنك، عن روعي، عن سندي كما كنت ألقبك في البدء، عن رفيق
أمن بي إذ كفر أبي، عن حبيبي الذي خلعت على أعتابه كل أردية الكرامة
والأنفة، وآخرها انفلات سنا عيني يكتبني إليك بالنظرات الذابلة.

أكره صمتك إذ أخشى أن يكون حاضره غيري، أقول أخشى ألا
تبا للخشية؛ إنها الحقيقة التي لزم عليّ استيعابها جيداً؛ فلهم كامل الحق
بأن يأخذوك دوني، أتراهم يكتبونك ببلاغة أفضل مني؛ فتتعلق حلاوتها
بروحك، لتظل سارحاً فيها شاردًا بهم حتى بعدما يولون؟!

يا ويح قلبي! أكره غيرتي فيك، أكرهها حباً، أمقتها شغفاً، إذ ليست من
حقّي فيك بعدما سكنت إلى غيري، أكرهها إذ تجعلني أجن وأفقدك لصوابي
وحكمتي، أفرع نفسي لوما ولا تقرع، أجلدها بسوط الكرامة فلا تجلد،
عمياء لا ترى إلا ثورتها التي تحرقني وتحرقك.

أناشدك ألا تقترب، فما رأيته منك اليوم، كم أنك تجيد التحكم في
دواخلك، أهذا صحيح؟ أنهر قلبك كيما لا يلح عليك وهو التائق إلي.
أخبرني بصدق أنهره؟!

أكره غيرتك كلما تذكرتها كيف كانت رغم حبي لها وجنوني بها حال
استشعارها من جديد؛ لأني أمتثل لكل نتائجها دون نقاش، ولا أملك غير
"حاضر" أصبحت أعاني رهاب "الحاضر" الآن.

أكرهني إذ أحنك، إذ أعكر صفو جلستك، وأنا ما رمت يوما غير
سعادتك، أكرهني إذ حرمتك في ساعة من ماضٍ مرافقة الورقة والقلم، وأنا
من كانت ولا زالت تتلف إلى مساسها بعد يدك، لو تعلم كم كنت أنتظر
كتبك كي ما تحتضنها أضلعي؟ لو تعلم كم قبلة كنت أهديها لها دون أن
أخبرك؟ كم دمة كانت تسقط رغما عني فور كل عناق؟

أكره يقظتي فيك إذ تخطفني بعيدا، وأكون بين نارين أأستسلم لك
ونظرات من حولي تطالعني، تراقبني، تتقصى بالهمز واللمز عن حالي الذي
لا أدري هو لا أعلمه، وأسألك لم لا تأتيني في نومي كي ما أكون معك دون
أعين تتلصص عليّ أو زجر من داخلي أن استفيقي من غيوبتك.

أعلم بعد استجابتك لدعوتي ورؤيتك، بت أكره مناماتك رغم عشقي
لها إذ تحمل لي صورتك وقلبي يتضور جوعا إليك بحقيقة واحدة. أكرهني
وأكرهك، وأعشق الكره إذ إنه معك.

خرج دون أن تشعر به، فعيناها ما زالت تحتضن عينيه وإن غاب جسده، وما أفاقها إلى هزّ أمها لكتفها مرات ومرات حتى انتبهت إليها بنظرة خاطفة حولة تركيزها إلى مقعده الفارغ منه؛ فأيقنت بذهابه.

مرّ عليها بالصباح وفقا لما اتفقا عليه، وبدءا رحلتها نحو معرفة الحقيقة، وفي طريق عودتهما من أولى الطرق التي سلكها سويا استأذنته أن يوقف السيارة أمام أقرب مكتبة لبيع الأدوات المدرسية لتبتاع دفترًا وقلماً، سألها عن السبب، فأجابته بأنها تبتاعهما من أجل رهنف إذ ألحت عليها مرارًا وتكرارًا أن تأتيها بدفتر وقلم تصطحبهما معها في حقيبتها المدرسية حينما يأتي موعد الالتحاق بالمدرسة.

تلفظت بجملتها كلمة كلمة في ثقل بين كأنها تُؤلد الكلمات من رحم الذاكرة البعيدة، إلى جوارها يطالعها بعيون غائمة ونفس حائرة لا يدري ماذا يقول، وهو من شاركها لحظات انهيارها أمام فجاعة الصدمة التي وقعت عليها كالصاعقة حين أخبرها في طريق الذهاب أثناء حديثهما حول كيفية إثبات النسب بعدم القدرة على إجراء تحاليل الحامض النووي في ظل عدم توافر أي أثر من جسد الزوج؟

فلم يجد إجابة أفضل من الصمت، وأمام أول مكتبة صادفته بالطريق، توقف وهم أن ينزل من السيارة بغية أن يؤدي المهمة بدلا عنها إلا أنها رفضت وبشدة وأصرّت أن تدخل المكتبة وتشتري بنفسها، نزل عن رغبتها

وجلس ينتظرها بالسيارة، ولجت هي المكتبة واشترت ما تروم، ثم عادت ومضيا في طريقهما للبيت.

في تلك الدقائق المعدودات التي قضتها بالمكتبة، كان يبحث في معاجم اللغة عن كلمات تترجم شعوره لعله ينطق جملة مفيدة موجزة ينهي بها ذلك الصراع الدائر بين قلبه وعقله، فإذ به ينصاع لأمر قلبه الذي يدفعه دفعا ناحية جملة واحدة نطقها على حين غرة من الزمن وفروضه الثقيلة على الروح ومن الحياة وطقوسها الظالم للقلوب، وبمجرد ركوبها السيارة وجلوسها إلى جواره نطق دون مقدمات قائلا:

- اسمعي يا هالة، إن للقلب شريعته الخاصة به آمن بها من آمن وكفر بها من كفر من أربابها، وأنا يا هالة قد آمنت بها وما حدث عنها ولو ساعة واحدة، لا بل ولا ثانية واحدة، لقد تزوجك قلبي منذ ولوجك إياه زواجا أبدياً وأبى أن يكون على ملة غيرها، والآن لا بد وأن يسلم قلبي وأتزوجك بكل جوارحي على دين الإسلام.

طالعت وجهه المتأجج حمرة وكأن الدماء ستلفظها مسام جلده خارجا بعد إحالتها شظايا متناثرة إثر امتلائها بها عن بكرة أبيها، ثم قالت:

- ما زلت تتفلسف كما أنت.

- ولكنك ما عدت تقطعين خيط حديثي المتصل بمدخلاتك الطفولية التي لا تريدين منها غير سماع كلمة واحدة.

- صدقت، ما عدت أقطع حديثك، لقد نسيت مداخلاتي تلك ككل شيء مضى وانقضى، وأظنها نسيته، وصدقني لن أحاول تذكرها كيما أعود.

انعطفت بوجهها في اتجاه النافذة فارة ببقايا روحها لعلها تحتفي وسط زحام الشوارع، وتغيب بين السابدين، بيد أنها لم تفلح في التماهي مع الجموع الغفيرة وبحركة لا إرادية أطلقت ضحكة مدوية أعقبها نسيج متقطع، أوقف على إثر فعلتها محرك السيارة فجأة فتوقفت محدثة صوتا مفزعا ارتج له جسدهما.

سحب دفعة من الهواء ثم أطلقها زفرة واحدة وأدار نفسه ماذا يده تربت على كتفها يهدد خاطرهما المكلوم، ثم أنزلها ليمسك بكلتا يديها بين يديه قائلاً:

- كفانا حزنا لأنفسنا وإزهاقا لأرواحنا، أما آن الوقت لنتم ما قطعه العوز وجرمه الفقر وحرمة علينا الحياة؟

أما آن لنا أن نعيد النبض إلى القلب بعدما عاد من مهجره وحيدا متلجلجا من صقيع القسوة؟ ها هي وثر قلبي بين يديك تريد أن تدفئك.

أما آن للبنات البيت أن تتراصن لشئد ما تهدم من قبل البناء؟

أما آن لراوي الحكاية أن ينهي الصراع ويعيد لأبطال الرواية حقوقهم المسلوبة ظلما وعدوانا؟

كان يحدثها والدُّرُّ من محار وجهها تتساقط حباته ثم ما يلبث أن ينطفئ
بريقها على يديه - المتشبثة بيديها - إثر ارتطامها بوهج عروقه النافرة من تحت
جلده وأزيز صدرها يكاد يصيح، ألا تبا! ألا تبا للحياة والجور والحرمان!

أعاد طلبه ثانية:

- أريدك زوجة لي.

فصاحت به وصرخت دون وعي تقول:

- لن أسرق أحدا كما سُرقت أنا.

- وهل أصبح الزواج سرقة؟

- أنت لك زوجتك ولك منها ابنة، ولم يعد لك في حق ولا لي فيك
حق.

- والله شرع المثني والثلاث والرباع، ولنا فيما شرع الله حق، بل هو كل
الحق الذي سلبنا إياه.

الرجل يا عزيزتي إن أحب امرأة ما برحها قلبه وإن امتلك زمام الأربع
كلهن بزيجة واحدة، من دونها ما اعتبره القلب متزوجا.

- عليه أن يُنحي القلب جانبا، وإن شاء نحره بسكين الإهمال ومضى.

قل لي ما ذنب امرأة سكنت إليك وأرادتك لها رجلا كاملا، ولربها لم يطرأ
بخاظرها يوما أنه من الممكن أن تناصفها فيه أخرى؟ اطمأنت إليك ونامت

ملء جفنيها وهي توقن بأنك رجلها الأوحـد، ثم تأتي أنت الآن وتضرب
بكل معتقداتها فيك عرض الحائط وتوقظها على كابوس زوجة ثانية، أم أنك
تريديني كما فعل "....."؟

قاطعها صائحا:

- اصمتي ولا تكلمي حرفا واحدا، ولا تتفوهي بكلمات تذيب رجولتي
التي وقفت عاجرة عن حمايتك من أيديهم القذرة، أنت ملكة حرة وستبقين
دوما للطهر منبعا جاريا ماؤه، فلا يلوثه قذر ولا يحط منه إن لامسه بهتان.

أريدك زوجة على شريعة الله السامية المقدسة، وليس على شريعة الأوغاد
الدنيئة الغارقة في بئر الرذائل والشهوات.

اسمعيني جيدا، أريدك زوجة معززة مكرمة، وسأعلم بذلك زوجتي
وجميع أهلنا دون استثناء، سأخبر خالتي فور وصولنا بطلبي هذا وأعلم أنها
لن تردني.

-أنت واهم، لن يستقيم الأمر، فأقلع عن هذا ودعني وشأني، دعني أربي
ابنتي التي لا أعرف كيف ستكون نظرتها لي حينما تعلم حقيقتي وحقيقتها،
حينما تذهب إلى المدرسة ويسألونها من أبوها؟ فلا تحيب، حين ترى زميلاتها
يتأبطن أذرع آبائهم وهي تتأبط ذراع الفراغ القاتل، أول حق لها أن ألحق
باسمها اسم أب لم أستطع أن أوفيه تجاهها، نضحك عليها وننسبها لمن معنا

منه ورقة كما اقترحت أنت وإن كانت صورية دون أن ندري أهو الأب حقاً أم لا؟ نحاول أن نطيب الدنس بالعود فيأبى إلا أن يفوح علينا بأصل رائحته.

نحن نكذب لنجمل الوقائع ثم نقنع أنفسنا بعد ذلك بالصدق، فيكون الكذب مضاعفاً، والتضعيف قابل للاطراد.

- قلت لك لن أضيع حقها، وإن عجزنا عن إثبات النسب الآن، واقترحت هذا الحل كيما تسير أمور البنت بشكل طبيعي، فسأظل أتبعه حتى أمسك بهما لنعرف لأيهما يعود نسب البنت مها طال الزمن؟ أعدك يا هالة، ثقي في.

أنا محام ولست بائع كلام يا عزيزتي، وقبل ذلك وبعده هي ستكون ابنتي وأكون لها أباً وستكونين زوجتي.

- أرجوك، كفأك ولا تحملني ما لا طاقة لي به.

- أرجوك أنت، كفأك ولا تحمليني ما لا طاقة لي به، كفى ما عشته دونك وما عشته دوني، لا تكذبي فأنا أعلم داخلك جيداً، داخلك هذا كان ملكي وأنا من ملأته نقشاً بي فلا تراوغي، تنعين حزن زوجتي وابنتي، ومن ينعي حزن قلبي على فراقك وعجز روحي عن حمايتك؟

ما ذنبي إن كان القلب كله لك؟ لا تظني أنني كنت هائناً في غيابك، وأني أحيا حياة وردية كالتي خططنا أن نحياها منذ الصغر؟

- كفأك أنت، لقد تزوجت وأنجبت، فلا تدعي الحب.

- آه لو تعلمين الحقيقة المريرة التي اعتدت عليها بل وتلذذت بها حتى أدميتها، كنت ممثلاً بارعاً جداً، أمثل دور الزوج بإتقان وإلا ما استطعت الاقتراب ممن تنعين حزنهما، كنت أخالها أنت، وجهها وجهك، جسدها جسديك، أطلبها الصمت حتى أحدثك أنت فيها فلا يقطع حديثي لك كلامها، قبلتي لها كانت لك أنت، احتضاني لها كان لك أنت....

صمت ولم يكمل ضارباً بقبضة يده على مقود السيارة ثم عاد ليوصل ما قطعه:

- أعلم أنني كنت أناانياً جداً، أناانياً إلى الحد الذي لا حد بعده، لكن جاهدت رؤيتي لك فيها مراراً وتكراراً وكنت تفرضين علي وعلى الحضور، وما كنت لأتي قبالتها إلا وهي أنت.

صدقيني ربما الآن وأنت كائنة معي ستكون الصورة مغايرة، ربما أجد لها مكاناً يجاورك بقلبي، أو تجزل لها نفسي ودأ إن أوصد القلب بابه في وجهها. نعم أعلم كم عانيت وتألمت، لكن والله كان ألمي كألمك أو أشد، ربما أنت تركك ذاك الأمير ورحل عنك بعد حملك، لكنني أنا كنت معها ليل نهار، ورغم ما يثور بداخلي، كنت أعلم أنه لا ذنب لهذه المخلوقة الضعيفة التي ابتليت برجل مثلي، كنت أحاول أن أؤدي ما علي من واجبات تجاهها وألا أحرمها حقوقها وإن كانت زيفا وتمثيلاً، وحين رزقت بابنتي أدركت لطف الله لي واجتهدت في دفن مشاعري فيها وكنت متعمداً ألا أسميها باسمك.

لا تنظري لي هكذا، نعم تعمدت ألا أسميها؛ فيوم قلت لك لو أراد الله أن يكون لي منك ذكراً ورزقت منك بنتاً سأسميها باسمك، قلت ساعتها ابنتنا وليس ابنتي، وأنّي لي أن أحذف "نا" جمعتنا وأبدلها بياء الملكية خاصتي وحدي؟! والآن، أما قد آن الوقت لنسميها؟ أرجوك أجيبيني بالموافقة.

- يفعل الله ما يريد، دعنا نذهب؛ لقد تأخر الوقت وتأخرنا على رَهف وأمي وستقلقان علينا.

لم يجد رداً كلمياً مناسباً، في حين كان داخلها متأوها يهذي:

- وتشقيني من حيث لا تدري، وتظن أنّ في داء بالروح مستعر، أه لو تدري أنّ دائي في علة الكلم، لما أشحت عن صمتي، وتأففت من صدي، وما كان منك الصلف وحدثني كحديثي إياك من خلف حُجب الصمم.

ثم بطرف عينيها صوب السماء المفتحة أبوابها ترسل تأوها متحشراً بالصدر وتدعو رها:

ورفقا يا رب بالكاظمين عشقهم الذي ما دروا له تبديلاً، اللاجين لنبض قلوبهم إذ ينفلت، وأرواحهم يسلوها في مغبتها طيف عابر لعناق.

أفرغ كامل طاقته واختناقه في السيارة ضاغطا على البنزين منطلقاً بسرعة جنونية كاد بسببها يصطدم بأحد المارة، فصرخت بجانبه، فانتبه لانفعالاته واعتذر للشخص ومضى في طريقه متخذاً من السكون لجأماً حتى وصلاً إلى بيتها، ترجلت هي وولجت البيت بعدما رفض دعوتها المتذبذبة للدخول.

الفصل الثامن

وللضعف صنوف عدة

فلما جن عليها الليل مودعا نهارها الذي لم يكن أقل حلقة في معناه
وتفاصيل أحداثه من حقيقة الليل في سواده الضافي على الكون، سكن نبض
الحياة من حولها واصطرخ نبضها هي معلنا أنه قد آن الوقت لثورته المقموعة
من قبل عقلها الطاغية.

أعاد عليها القلب حديث أدهم المفؤود بحبها، وشجن قلبه المؤءود من
خذلانها له، فخالته أمامها وراح صوت داخلها يعلو ليحييه بما لم تجرؤ على
البوح به في آنه:

- أتمطرنى بآهات أشواقك وتقص علي حيلك للظفر بي من امرأة أخرى،
وكأنك تحدث صنما لا تؤثر به ابتهالات عباده إذ إليه يتضرعون، وإلى حماه

يلجأون، دون أن تدري أني صنم نُفخت فيه الروح مذ تغشاه بزوغك بعد طول انزواء في ركن الأيام الخوالي، أزهدت على نصل كلماتك روحي التي شاب مفرق رأسها وجدا، وأنت تظن أني لم أشتقُ إليك يوما، كاذبة أنا إن قلت لا ما اشتقت، وكاذبة أشرة إن قلت نعم اشتقت، فكلمة واحدة لا تكفي الجواب، بل أبوح بما لم أبح به من قبل.

اشتقتك كل ذرة في جسدي، وكل نبضة بقلبي، وكل حنية بروحي، اشتقتك عددا بغير منتهى، والقسم على كل كلمة في هذا العدد غير المعلوم اسمه ثلاثا يعظمه.

اشتقت مذ كانت " أحبك " التي نطقتها على استحياء من وجل اللقاء ورقبة الضمير غرسا للروح اليباب، فامتألت بها وفاض الري من حيث لا أدري من أي منبع كان الفيض؟ أكننتها ومضيت بها مبتهجة أنتظر يوما يجمعنا فيه رباط مقدس ويخمرنا الليل بجلال الحب فتهني غرس الجسد.

أتعلم؟ كانت هذه أحلام لفتاة عشقت دون أن تذوق، لكنهم هدموا أحلامها حين وطئوها عنوة، فأبت الروح إلا أن تفر منهم وتسكن في عاجها تنتظرك، وأنين اللفهه يراودها على استحياء بين ليلة وأخرى؛ فتشرع إلى ذاك القميص الحريري الذي جعلت منه حرما آمنا عن أي عين غير عينك، تَشَرَّبَ من حليب السماء والتمع من ضي نجماته، تسدله على جسدها بروية بالغة فيتراقص واللحن الخفي في أتون النبض مع قسماتها المنحوتة عاكسا

بمرآتها حورية لتوها سقطت من بين ذراعي قمرها إذ شده من جملها،
وعلى ظهرها العاري الذي لن تعرف حدود عريه إذ لا فرق بين نصوعه
ونصوعها إلا من حمرة برائحة الورود قد أزهرت البياض، تسدل خصلات
شعر مهرة عربية أصيلة تتمايل بخيلاء به كلما رفعت ساقا عن أخرى، كان
الشعر المرسل في زهو قد اتخذ السواد غذاء له من هجيع ليلة ليلاء ليكون
ليله ونهاره، تراودها نفسها كلما استشعرت اقتراب حلولك المؤمل أن ترفع
خصلاتها إلى أعلى رأسها أو تضمها لتسدلها على أحد كتفيها ولكنها تقرر في
برهة بقائه كما هو مرسلا، حتى تلامسه أناملك وتطعمه أشعارك وتعطره
أنفاسك، وبعدها القرار لك وحدك، إن شئت أعليته وإن شئت أرسلته ثَمَلا
بقبلاتك التي لثمتها إياه، فأنت الأمير الشرعي لها والمهرة ملكك وما حوت،
وأنت صاحبها فيما اجتوت وفارسها الأول والأخير، واللجام يمينك وكل
دواخلها رهن حكمك، ولتمض بها حيث انتويت وانتوت.

أفاقها من حوارها لطيفه صوتُ رَهف المتحشرج تسألها كوبا من الماء،
فلَبَّت طلب صغيرتها وسقتها حتى اكتفت، ثم مالت عليها تذرّها ثانية
لتستكمل نومها في هدوء تنعمت به هذه الليلة بعدما آوت الأصوات إلى وثر
حناجرها غافية، أما هي فقد عاد العقل ينهرها على ما خالته قولاً، وراحت
تلقي باللوم على نفسها التي ضعفت دون أن تدري عن أي ضعف تلوم؟
ضعف التخيل، أم ضعف التوق، أم ضعف الرفض بعد اللقاء؟

هبت خطوات أقدامها مستيقظة تسرع ناحية حقيبتها تستخرج الدفتر من
مخبئه وفوق سريرها الحديدي بجوار ابنتها النائمة اضجعت بظهرها إلى ظهر
السريـر ممسكة به، وعلى ظهر غلافه الخارجـي راحت تملأ الفراغات الآتية:

اسم الطالب: الأخيـذة.

اسم المادة: رسائل مـيتة.

السنة الدراسية: العام الثامن بعد السبع العجاف كرامتهم، السمان
جراحهم ومذلـتهم.

طوت الجلدة ومعها طوت ارتعاشات أناملها خلف رغبة البوح الملحة
عليها، فتحت الدفتر، وفي منتصف الصفحة الأولى كتبت مقدمة تعزي فيها
الدفتر، وتربت على صدر صفحاته إثر جرأته وإقدامه على قبول تسطيره
بمآسي الأنفس المكـلومة:

"بنفس مقدار الألم الذي تشعر به الصفحة إثر طيك لها، تشعر روحك
بسريان الراحة في كامل جسدك الذي أشبع وجعا حتى اكتفى، فاطو ولا
تبال لوجع الورقة، هي من جنت على نفسها حين تحملت سواد المداد".



الفصل التاسع

رسائل بعث الماضيء إلهء الحياء

الصفءة الثانية بمتصف السطر الأول بخط عريض نقشت رسالءها الأولى:

إلى الفقر:

أيا فقرا أوردني موارد الصَّغار والذلة؁ لم أكن يوما من الساخطين عليك ولا من المتأففين من قرع طبول آهاتك؁ بل لم أر فيك عيبا ولم أتوار من شينك عن أعين الوجهاء كما يفعل أصحابك؁ ربما لأنني لم ألتق يوما بوجهه عليه أثر النعمة والثراء سوى ذاك المشتري الدميم الخلق والخلقة الذي ساقني كالبهيمة حيث أراق دمي وقطع لحمي ثم باعني وقبض ثمني.

حقا لا أدري ولا أريد أن أعرف سبب عدم بغضي إياك؁ فشعوري كان نعمة أحلتها أنت نقمة ووبالا ألبستني إياه عمرا.

لكن دعني أسألك سؤالاً مقلوباً، لم كرهتني أنتَ ولفظتني خارج سياجك
الأسود؟ أكنتُ عالية عليك؟

ليس لي قيد جحر صغير فيك يضميني، تسألني كل ليلة وأنا أضع جانبي
فوق فراشي الصلب وبطني نصف ممتلئة والنصف الثاني يئن خواءً: أراضية
أنتِ؟

فأبتسم إليك في حبور وأقول وما لي لا أرضى وأنتِ الواقع والحال،
والسخط عليك لن يدفعني إلا إلى ذل السؤال؟

كنت أتودد إليك حين أقنع أُمِّي أنني شبعت وأضع أمامها فتات الفتات
الذي وضعته هي لي قبلاً في الطبق الذي أُمامي، معذرة منك، كذبت فيك،
فلم يكن عندنا أطباق كثيرة، كان طبقاً كبيراً وربما اثنين متوسطين آخرين
من النحاس نأكل فيهما الطعام، وقدرين تستخدمهما أُمِّي للطهي من
الألومنيوم.

قل لي، ألسنت أنا من كانت ترتق أثوابك المعدودة التي لم تتجاوز أصابع
اليد الواحدة فأتناوب عليهن صيفاً وشتاءً وأحياناً تشاركني أخواتي فيها
ريشاً نشترى غيرها إذا ما توافرت بعض القروش التي تمكننا من شراء أردأ
الأشياء؟ وغالباً ما كان يأتي الجديد إلا بعدما يتهلهل الثوب عن آخره، فلا
يشفع فيه رتق ولا تمضي في نسيجه إبرة؟

انطق ورد علي، أما عندك من جواب يريح الفكر المترنح بساحة رأسي يا
فقر؟

الملفوظة

الثانية عشر بعد منتصف الوجد.

طوت الورقة وعلى رأس ما بعدها كتبت:

إلى أبوي:

أقف أمامكما عاجزة حائرة؛ إذ لا أعلم هل تجدي معكما الكلمات نفعا، أم
أن الوقت قد مضى وقُضي الأمر الذي فيه تستفيان؟

نعم قضي وانتهى.

قضي ثلاث مرات، الأولى منذ ثماني سنوات وقتما بعثاني، والثانية بعد
موتك يا أبي، والثالثة الآن، وأنا أكتب وقد جنيت حصاد حظلكم وتجرعت
من كؤوسه المترعة بالآهات.

ولكن ما أكتبه الآن لكما ليس إلا اقتداء بمريم البتول يوم وضعت ابنها
نبي الله وكلمته عيسى عليه السلام: ﴿يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا
مَنْسِيًّا﴾ أقولها وشتان شتان بين الصورتين يا أمي؛ فهي قالتها وهي الطاهرة
المنزهة، وأقولها أنا وأنا المذنبة بغير ذنب، البريئة دون براءة تشفع لها، فأني
لأخيدة تثور حين تباع في سوق الشهوات؟!!

يا ليتني يا أمي أملك القدرة على القول بمقالة أبي يوسف - يعقوب -
عليهما السلام: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

أما أنت يا أبي، وقد وارك الثرى وأصبحت الآن بين يدي الله، فدعني
أخاطبك بأثر رجعي؛ فهذا حقك علي من العتاب ولا بد أن أؤديه...

دعني أسألك من غير جواب انتظر، بل للوعة في بالسؤل قد تنطفئ:

- أما أخذتك الغيرة على عِرْضك وهو يمتهن ويراق على عملات
النفط الورقية؟ هل رأيت الأوراق المقبوضة مخضبة بدمي؟ أما كانت مخضبة
بجشعك يا أبي؟ أكفاكما ما أنقذكما إياه المشتري مقابل لحمي؟!

ها أنا عدت يا أبي ورحلت أنت، وما وجدت حالكم ببعيد عما تركتكم
عليه غير سقف من الخرسانة وجدران اتخذت بنيانها من الطوب الأحمر المطلي
بدهان شاهد على العمر الذي عشموه من دوني.

أخبرني يا أبي... احضري معنا يا أمي، أخبراني: أَسْتَدْفَأُتما بجلدي المدبوغ
تحت وطأة القذارة؟ أم احتميتما من ماء المطر بجداول شعري المسحوب قسراً،
ليتدللاً ذلاً في بلاط السلطنة؟

فلتخبراني لم تَتِمَّا تعليم أختي؟ أما كفت النقود لتعليمهما؟ أما كفاكما أنني
لم أكمل تعليمي وضاع عمري سدًى في سرداب اللاقدرة الذي أسكنتني
إياه؟

أجيباني ولا تتركاني أحادث الورق المحموم بأوجاعي، ألم تُعَدَّا تعرفاني
بعدما عدت؟ نسيتم أن لكما ابنة مباحة؟ عدت يا أبي، عدت يا أمي ولكن
لست وحدي، بل جلبت إليكما نتاج صنيعكما في، أسألاها هي من المذنب؟

أنا أم أنتما؟ أم أن هناك طرفاً ثالثاً عصياً علي إدراكه، وإن أدركته ساعة فيقينا
محال بلوغه؟

المنسية

الثانية وأداً بتوقيت الفقد.

طوت الثالثة وهي تضغط على فكيها بغیظ وعنوت الرسالة:

إلى سمسار الدنس:

لو تعلم أيها الحقير كم استغرقت من الوقت في التفكير أأكتب إليك أم
لا؟ لضحكك ملء شديك كما ضحكك تلك الضحكة البلهاء حين رأيته
أول مرة، ما زلت أتذكر لعبك الذي كان يسيل على صدرك المتخم، ولكن
دعني أدون لك وعنك، فحيونة الإنسان التي أصبغت بها شهواته لا تنفي عنه
أصل خلقة السامية، سأجرك من كل قاذوراتك العالقة بداخلك النفسي،
سأعيدك إلى مادتك الأولى من أصل الخلقة؛ لعلك تكون أبا لتلك المسكينة
التي أكاد أجن أو أقتل دون معرفة من وضع بذرتها؟ أنت أم المغفل الذي
نصبت عليه؟

ماذا جنيت إذن من ممارساتك الشنعاء تلك؟ أجنيت المال القذر أم جنيت
الذنب الموبق؟ أين أنت الآن؟ أحي أنت أم ميت؟ إن كنت حياً ولا زلت
ترتع بروض مملكة الزينة، فأين أنت في ظل تلك الاحتجاجات المتفاقمة
والمتأججة نيرانها تلتهم أسيادك؟ ألتجأت إليهم ليأووك معهم؟ أم التهمتكم

أفواه الساخطين عليكم تلوكم فلا تبقي منكم باقية؟ أم وجدتهم فروا إلى مكان غير معلوم واختبأت في أحد أوكارك المشبوهة؟ أم لم يتنبه أحد لصعلوك مثلك ففررت إلى بلد آخر باحثاً عن صيدة ثمينة لأمير مملكة جديدة؟

آه ثم آه لو أراك الآن أمامي أيها الوغد، قاتلك الله أيها العليج دنيا وأخرى وأوقع بك في فخاخ صنيعك، وأراني فيك يوماً كيوم عاد وثمود.

المشتراة

الرابعة حنقا بتوقيت البهيمية.

رمت الدفتر أمامها ودثرت نفسها بذراعيها تلفهما محتضنة داخلها الواهن، لعلها تمنحه بعض القوة وكذا الدفء؛ فعلى الرغم من حرارة الجو إلا أنها كانت تتلجلج، ارتعاشات جسدها المتزايدة في حاجة إلى لحاف يدفئها طمأنة، استمرت على حالتها لما يقارب ثلث الساعة حتى هدأت وسكن داخلها، أطلقت زفرة هواء وهي تنحني لتمسك بالدفتر كيما تكمل رسائلها وشرعت في رسالتها الرابعة تكتب:

إلى المغفل:

لو تدري أيها المدعو أميراً كم كنت أضحك سخرية من هذا العبث حين ترسم علامات الهيبة والإمارة! تضبط وضعية العقال المجدول من جدائل سبائك على غرة الترف الفاحش ثم تخرج على حاشيتك متبخترا مزهوا رغم كونك أول المغفلين وآخرهم!

لم أكن لك سوى أنثى معدلة، ولم تكن أنت المستخدم الأول كما كنت تظن، كنت شهوانيا إلى الحد الذي أعماك عن كل شيء بالحياة عدا رغبتك، حتى وثقت في حثالة الحثالة من رعيتك، فأدنيتهن من بلاطك الملكي؛ إذ يشبعون حاجاتك ويأتوك بكل ما لذ وطاب، لكنك أيها الغبي كنت تدفع ثمن البضاعة الجديدة فيستمتعون هم بها كما تستمتع أنت بوجاهتك وأنت تلقي إليهم بعملاتك النقدية، فيهرعون إلى جمعها لاهئين ولخدائك لاعقين.

أيها المغفل، كنت تدفع لهم ثمن استخدامهم هم لا أنت، أمامك يمثلون الخنوع والولاء وهم يردون إليك الصاع صاعين حين يلقون إليك ببضاعتهم المزجاة بعد إعادة التهيئة... ألا سحقا!

ليتني ألقاك، لا شيء سوى أن أبصق على إمارة تتزعمونها وهي في حقيقتها وسخ وقذر.

أريد منك فقط أن أستبين، هل أنت الأب الحقيقي لابنتي أم لا؟ وإن كنت أنت الذي يعود له نسبها، فعليك أن تطمئن لا نريد من مالك شيئا، فقط اسمك يكفي حتى تكمل ابنتي حياتها كأى طفلة؛ فنسبك لو تدري وصم وعار، ولكنه النسب الذي لا بد من توثيقه ورقيا، ودعني بعد ذلك أقطع أنا رحمه؛ فلا نرغبك ولا أنت بالأساس فينا راغب، أنت قضيت ما قضيت واكتفيت، وإلى ضحية أخرى سعت.

الساقطة

الخامسة تمردا بتوقيت السخط.

الفصل العاشر

حين يجتمع الجنون والعقل

وما أجمل الغرق إن كان في بحر الأحبة، لا نرتجي نجاة ولا نمد أيدينا لأي يد تمتد إلينا كيما تنتشلنا من هذا الغرق اللذيذ، بل نسبح إلى أعماق نقطة فيه بإمكاننا أن نصل إليها لنرد جوعنا فيه وليتنا نشبع أو نروي ظمأنا فيه وليتنا نرتوي، أو نتنسم عيره وليتنا نكتفي.

مع آخر كلمة كانت مئذنة المسجد القريب تصدح بأذان الفجر يعقبه الجملة المعتادة لاستنفار همم العباد " الصلاة خير من النوم "، استمعت إليها بإمعان وهي التي لم تسمعها منذ سنوات، حدثت نفسها بل خير من الدنيا كلها وليس النوم وحسب يا إمام.

هبت من مقامها لتأدية الفريضة، ثم عادت بعدما شعرت أن نسيم الفجر يتسلل إليها خفية من أعين الإشراف عبر دينكم الفارقين العلوي والسفلي فيما بين إطاري الشباك والجدار الهرم الذي يحتضنه منذ سنين، داعبت ذراته

أنفها، فاستقبلته استقبال الأم لرضيعها الجائع بيد أنها لم تلقمه هي ثديها؛ إذ ألقم هو روحها من حلوله صفاءً وسلاماً، أعانها على استكمال رسائلها في الدفتر، فأول من خطر ببالها في هذه اللحظة هو، إذ لا مجال لغيره الآن وهي على حالتها هاته.

فراحت هذه المرة على جبين الورقة تلثمها من حرّ أنفاسها المشتاقة وتكتب:
إليك وحدك:

لن أكتب اسمك ولن أسمح لشفتي أن تتلفظ به، فما اعتدت نطقه طيلة السنوات الماضية سوى صمتا، وكنت أتخاطر معك بالنهار بوحا، وفي الليالي الخائفة ألتقيك حلما.

حرمت على لساني أن يستمتع بنطق أحرف اسمك خشية أن يعتل من عظيم فرحته بك؛ فيلتجم للأبد. وإن نطق على حين غرة مني، كنت أتلمس شفتي إذ تتحرك فأشعر بداخلي كله يتحرق شوقا إليك، تذرف عيناى دمع الترجي فبدلا من انطفاء الشوق إذ به يتأجج ويتأجج. اكتفيت بك وطنا حيث اللاوطن، ورجلا حيث اللارجل، وحييا حيث اللاحيب ومعلما حيث اللاكتب.

أتذكر حين كنت تستعير الكتب من مكتبة الجامعة، وتأتيني بها في كل زيارة لنا مدعيا أنك تزورنا للاطمئنان على خالتك، "أمي" التي لم تكن لتلنفت إليها حتى بمجرد رؤيتي، تتعجلني قائلا:

- هيا هيا لنقرأ سويا.

أخجل وأماطل في المجيء قائلة:

- أنا التي لم تكمل تعليمها، ما عندي من شيء ذي قيمة لأضيفه لك،
لست مثلك أنت الحقوقى المنتظر والمثقف الذى أنجبته العائلة.

تجذبني من ذراعى وتوبخني على مقالتي قائلا:

- أجهل مثقفة قادرة على فهم لغة العقاد الذى حارت فيه عقول، وبيان
الرافعى الذى أسكر أدباءهم فى دروب الأدب باعات، شكرا للفقر الذى
جعل أباك يعزف عن إكمال تعليمك؛ كيما تعكفين على دراسة كتب العظماء
السابقين، وأكون أنا معلمك ومرشدك ورفيق دربك يا أديبة. يوما ما
ستكونين كاتبة عظيمة وستذكرين حينها نبوءتى هذه يا أديبتي.

أطأطأ رأسى ناحية الأرض وأتمتم داخلى:

- يا ويحى! أحببتُ أعقل مجنون وأجن عاقل، كاتبة من هذه التى تتحدث
عنها أيها المثقف الحالم؟

تكمل وأنت مشرب العنق والابتسامة العريضة مرسومة على وجهك:

- وستكونين أجهل زوجة لأعظم محام فى البلد، وستكملين تعليمك وإن
كنت أجد فىك ما قل وجوده فى كثيرات من فتيات الجامعة من زميلاتى،
وشهادتك الإعدادية هذه تعادل شهادة دكتورة، بل الدرجة الفخرية
ولاشك!

أجيبك وأنا أضحك:

- الدرجة الفخرية؟ واثق أنت مما تقوله؟ أم توزع الدرجات كيفما يحلو لك؟ فلا أحد يجاسبك، وربى لأنت مجنون يا أدهم.

تعاجلني وعيناك تمنع النظر في عيني:

- هالة، لا أريد أن أرى انكسارا في مرايا عينيك مطلقا، أريدها لامعة كيما أرى صورتى فيها دوما كما تحيين أنت، أسمعُ؟

كنت قادرا على إذابة حزني في دقائق معدودات، يا ليتها دامت هذه الدقائق، وتوقف عمر الزمن عندها وحسب ولم يكمل المسير.

أتعلم؟ لو رجع العمر على عقبه مصطحبا إياي لما تأخرت عن إجابتك للقراءة لحظة واحدة، كنت تقرأ وترفع صوتك في القراءة وبعدها تناقشني وتشرح لي ما يستعصي علي فهمه، تتحول إلى شخص آخر وقت النقاش، تكون جادا مقطبا ما بين حاجبيك إلى درجة تثير غضبي، أقطع عليك حديثك واسترسالك في الشرح كيما أستميلك تجاهي لاستخلاص كلمة واحدة من فيك "أحبك"، لكنك كنت جادا حتى في هذه، أما تمقت الجدية الآن؟

ما زلت أتذكر ذاك اليوم الذي عدت من الجامعة باكرا عن موعدك المعتاد ومررت ببیتنا أولا قبل بيتكم، وكانت إحدى محاضراتك ما تزال حاضرة في ذهنك، فقممت وبدون أي مقدمات متقمصا شخصية أستاذ الجامعة، تسألني عن معلوماتي عن الرأسمالية.

قلت لك: أتسخر مني؟

فقلت: كلا، بل أمهد لك.

وبدأت تشرح لي مصطلح الرأسمالية، ما زلت أذكر كلماتك وكأني أسمعها الآن إذ قلت:

- الرأسمالية: نظام اقتصادي ذو فلسفة اجتماعية وسياسية تقوم على أساس تنمية الملكية الفردية والمحافظة عليها متوسعا في مفهوم الحرية معتمدا على سياسة فصل الدين نهائيا عن الحياة.

أتذكر أنك يومها جعلتني أرده خلفك كما الطلاب وكأنك كنت تسقيني العلم من كؤوس؟ وأكملت تستطرد:

- إن المحاولات التي تجري على قدم وساق في تطبيق الرأسمالية الغربية بحذافيرها في مجتمعاتنا ستأتي على الدين ومنهجيته وعلى القيم الأخلاقية المتوارثة عبر السنين، خاصة في ظل إصرار مطبقه على أن المادة وإشباعها هو أقصى أهدافه لتحقيق السعادة للفرد، متجاهلين الشق الروحي تماما الذي لا تقل حتمية إشباع احتياجاته أهمية عن إشباع الشق المادي وعلى إثره يصبح كل من الفسق والفجور والعري والإباحية من السمات العامة والأركان الأساسية في كل عمل حياتي يقوم به الفرد في مجتمعه، وإذ ما نادى نفر منا بالعودة إلى النهج الإسلامي ستكون هناك الكثير من التهم الملعبة التي تنال من فكر أصحاب هذا النداء ووصمهم بالتطرف والرجعية.

وفي غمرة انشغالك واندفاعك في الطرح باعْثُك بسؤال مكون من كلمتين - ما الحب؟

فأجبت دون اندهاش وبنفس الحمية التي بدأت بها وكأن السؤال لم يفت من عضد حديثك شيئاً:

- الحب هو ذلك الشعور الذي لا يعرف البينيات ولا الفلسفات، الحب هو مولود تخلق في الملكوت العلوي من نقطة الالتقاء الروحي، ثم يستوي على عوده خطأ مستقيماً يسبر أغوار الحياة، شاقاً عابها في مساره السرمدي المعدوم النهاية.

أمعنت في وجهك طويلاً وأنا أعض على شفتي، فأكملت موضحاً ما أخفي علي من معنى قائلاً:

- الحب يا هالة، شعاع لا يوطره علم داخل الروح ولا يرسم له حدوداً جغرافية في القلب، إذ لا يؤثر على أقباسه شيء سوى انشطار نقطة البداية. عديني يا حبيبتى، أن نبقي عليها متماسكة البنية، قوية النبض ما حيناً.

كانت هذه هي المرة الأولى التي تنادينى "حبيبتى"، وكررت على الوعد مرة تلو المرة حتى قلت لك:

- أعدك، أعدك، أعدك.

لم أخلف وعدي، ولم أحنث إذ أقسم القلب قبل اللسان على الوعد ثلاثاً بالأخون.

واليوم أعترف لك بأنني كنت ضعيفة فيك إلى الحد الذي ليس قبله ضعف ولا بعده وعد بالتقوي في حضرة الاحتمال، مريضة بك إلى الحد الذي ليس بعده سقم ولا أمل في امتثال الروح للبرِّ منه، وإن استخلص أطباء العشق من زعافه الساري من الوريد إلى الوريد دواء.

أما الآن فمؤملة فيك بأن تكون العماد الذي تستند إليه ابنتي أملا لا يعقبه بلوغ، ومستبصرة بقلبك أبوة استجمعت كل ألوان الحب ما عرف منها وما لم يعرف فصهرته فيها تحنانا يُطَيِّبُ كل شقاء. فكن لها أبا حتى وإن لم تكن أنت صاحب البذرة، فما لرهف ذنب أن بذرها الأفاقون.

فما اختار الصبار لون خضاره الأقم ولا مرارة قطره الذي تمتعض منه الأنفس، وما اختارت الجورية أحمرها الكياد وعطر رحيقها الذي يشمل المارة بها، الاثنان نبثا واستوى كل منهما على ساقه، كل منهما تعرف على ذاته وتصالح معها راضيا بقضاء الله فيه أن سوَّى هذا لهذا، وذاك لذلك.

هكذا هي صغيرتي، أمل أن ترضى بقضاء الله في نفسها، أربت على كتف أوجاعها، وكن لها أبا بنكهة الصديق، وصديقا بنكهة الأخ، وأخا بنكهة الأمان، كن لها كل هؤلاء وأكثر كيما تمضي قدما نحو حياة جديدة.

ساعدها أن تعصر الماضي في معصرة الروح لتستخرج من آلامه قوة ومن جوارك حيننا وحبا يعينها على مواصلة الطريق، أرجوك، أحبها كما أحببتي؛ فهي بعض مني يسكن إليك يا كلي.

صدقني لا أملك سوى كلماتك التي نظمتها في غيابي وأهديتني إياها بعد
عودتي بصوتك، وكلما سألتني.

- أسمعيتها؟

أجيبك أن لا.

وصدقني أنا بالفعل لم أسمعها، أنا كنت أتفلسفها صبرا وأتذوقها خمرا
وأندثر بها بردا يتتابني في غير مواعده. لم أكذب عليك حين قلت لم أسمع،
أنا حفظتها حفظا وزرعتها بالروح زرعاً، ومررتها على القلب توقاً، حتى
مضيت وأنا أسمعها بداخل القلب كدقاته تنبض.

وها هي القصيدة أنشدها لك مع إشراق روعي، فلتنصت:

ذات مساء مكتحل بالجووى.

أفل فيه القمر بعدما.

توارى عنه ضياؤها.

تدثرت فيه الأنجم بوشاح الحنين لألق لحظها.

وقفتُ على أطلال أبيات القصيد.

أرثي قلبي المتيماً بحبه.

فروادني نسيم الهواء محملاً بعقيق طيفها.

فغدوت أدور وأدور.
كما الدراويش في أفلاكها.
أنسى الناس من حولي.
وأنسى المكان وأنسى الزمان.
فلا يحضرني من الوجود سوى همسها.
فلكم تعاتبني كل اشتياق أيا عاشقي.
أعد لي القلب من جديد.
أعد لي عمري الوليد.
أعد لي النبض الوئيد.
يجري صوتها الخفيض.
بين جنبات روعي.
كما النهر يشق الجلاميد.
تنعم دواخلي بجنات.
وينبت من الجذب.
حب الحصيد.
ينادي النبت عليها:

أيا حبيبة القلب العليل .
هلا دنوت ؟
ستتوجين مليكتي الليلة .
على عرش الحب العتيق .
ستكونين حوراء جناني .
في السماوات العلايا .
ومن قبل في الأراضين .
يرشقني سهم مناجاته .
يصييني الجوى الميين .
أنأى بروحي الظامئة .
وأرحل عن الدنا بعيدا بعيدا .
أطالعه ... بوجه السما .
أناديّه ... فأُسمع كل من بالملا .
أين أنت يا أنا ؟
وأين وردات حلمي الجميل ؟
أين أيمان القسم التي قطعت ؟

وأين الوعود التي بقلبي أودعت؟
وأين الشهود على حب لا يغيب؟
انزوى صوت الحبيب.
وماجت السماوات برعود.
يخلفها برق مريب.
تجيني شهب المحال.
ترميني بشرر الأوزار.
ترمقني بأعين البهتان.
أمن بعد خضاب الزمان.
وبتر ساق النبت وبعثرة الأوراق على سفح الفراق المميت.
تسألين السما وتقولين:
أين أنت يا أنا؟
وأين وردات حلمي الجميل؟
عاد صوته من جديد .
تداخل مع عنفوان السما.
فتشوشت المسامع.

وارتطمت الأوجاع .
بجدران المدامع .
فعلا صدها بعد حين .
يستحلفني بالذي .
أودعنا الهوى .
أن صارِعِ الأوزار .
ولتنحِرِ الأوجاع
ألقِ بها في أقاصي .
غياهب النسيان .
ولنلتقِ من جديد .
أعاوده والقلب نزفه .
على دواخلي يفيض .
وفوضاي تعتلج .
روحي المبعثرة .
على جوانح الهوى العنيد .
أجبنني ...

أيا صاحب القلب العليل .

كيف لي أن أصارعها .

وعمري في الهوى طريح؟

وسهاد الليل الأليل قاتي؟

وذر الدمع المسفوح زاجري؟

يلجم القلب: أن... لا .

فلا أناديك في همسي .

ولا في السر والعلن .

أيا... .

أيا حبيب الروح، فلا... .

صدى صوت الفراق .

تعاظم عند مسامعي .

ها قد أزف الرحيل .

ولا لقاء يجمعني بالحبيب .

انقضى الخضب الجليل .

وانخرست همهمات القال والقليل .

سكن المساء...
صمت مدجج بالأفاعيل .
طعنني بسيف البعاد الأليم.
فما عادت تؤلمني نزغات الحنين.
وكأنني أهوى الذبيح .
أهوى الدماء تجري من شرايني والوريد.
فأهيم على قلبي .
لا أرى سوى أنتِ
انتظريني ...
سأخوض أغوار الليالي .
قادما إليك .
وقد نُحرت ألفا أو يزيد.
ويبقى يا حبيبتى .
السهد دائي والدواء بعيد .
وسنأك يبرز في العلا لكل غاد .
وإني وأيم الله لفي حبك قتيل .

لن أودعك وداع الراحلين إلى غير رجعة؛ فإن قلبي قد ترهبني فيك بالحياة
على أمل اللقاء، هناك في دار الخلود وحينها ستكون لي وحدي وسأكون لك
وحدك.

فلتدعُ لي بها مأوى، فما عادي ملاذ غيرها ولا منية غيرها، وصدقني لن
نجد أظهر منها بيتا نضع فيه اللبنة.

المتيمة

السادسة تيمًا بتوقيت شروق روجي.



الفصل الحادي عشر

ولا يزال الدفق سارياً

انتصفت عدد الصفحات بين يديها، أحدث ببصرها تطالع في تأمل صامت ذاكما الدبوسين الممسكين بشطري الدفتر دون أن تنفرط الأوراق، فتخال صورة رهف أمامها كهها وهي تمسك بتلابيبها، ثم ما تلبث أن تشعر بتذمرها، فترفع عنها يديها وتطوقها بذراعيها تستقطب منها الدفء والحنان، تبسم هالة محدثة نفسها ولا تزال الصورة واضحة في عينيها:

- أنت يا رهف ذاك المشبك الذي يمنع أمك من الانهيار والسقوط، أنت هو يا رهف، فكوني هكذا دوماً، إني أستشعر بتراخي قبضتك علي، وأن الهاوية تناديني، فأمسكي بي وأحكمي القبض يا صغيرتي.

مالت عليها وانحنت على جبينها الغض وهي نائمة تقبلها، ثم اعتدلت في جلستها وإلى الدفتر والقلم عادت من جديد وراحت تكتب بمنتصف السطر الأول:

إليك رهف:

أحدثك الآن من الزمن الآفل الذي رأيتك فيه بعين قلبي فتاة ناضجة
قادرة على استيعاب ما أقصه عليها، ربما لا تعلمين أين كنتُ أنا؟ كما لا أعلم
أين أنتِ الآن؟

ولكنني دوما كنت وسأظل أراك بعين الأم، وإن اختلفت من حولنا
العيون وتفاوتت الرؤى ودار الزمان دورته ألف دورة، فإني أخبرك كما أخبر
ذاتي، يا بضع لحمي، وقطر دمي، وكل ذاتي.

إليك يا ابنتي...

أنت الآن كبرتِ بما يكفي كيما تقرأين رسالتي، ونضج عقلك كيما يتفهم
كلماتي ويستوعبها جيدا، ويدرك مراميها تمام الإدراك.

اعلمي أنني لم أظلمك وإن ظلمك هو ظلم لي بالبدء، لم أختَر مصيرك هذا
وحاشاني أنا أختاره لنفسي قبلك يا ابنتي، لكنه العوز الذي غدر بي وبك،
فقدان الحيلة أمام إلحاح أبوين استشعرا أن السماء قد فتحت أبوابها على
مصراعها وراحت تمطرهم بالأموال المشتهاة حين طرق بابنا الأرضي من
ارتضوا دنسه وخيانتته.

نعم لم يفكروا كيف ستكون حياة ابنتهم في بلد لم تطأه قدماها من قبل،
وكيف ستكمل حياتها مع رجل لم تعلمه ولم تخبر عنه شيئا سوى تخمة ثرائه
وسواد عقاله، خرمها المال الذي رأياه يا ابنتي بطول الأمد في بلوغ النعيم
ونزع عنها رداء العاطفة الأنور وألبسهم الفقر ثياب الصلف والدياثة.

دعك منها الآن وأصغ إلي:

إن الأقدار يا بنيتي إذا وقعت وصارت قضاء، علينا ألا نستحي من الإخبار بشأنها، فما كان لنا يد في صنعها وهي قيد الكتابة في ألواح السماء، أ يكون لنا يد في تغييرها وقد أضحت واقعا؟

يدنا الوحيدة في التعامل معها عقب الحدوث هو ردة فعلنا حيالها، فنتقبلها بالرضا والتسليم ونرجئ وقوعها لحكمة ربانية قد نعيش دهرا حتى نعلمها، وقد نموت دون علمها.

لذلك بنيتي، لن أخجل منك حينما يقع في يدك هذا الدفتر الذي اشتريته لك خصيصا وكان من المفترض أن يكون فارغا من الحروف، أوراقه ناصعة البياض كيما تلونها أنت، لكنني فحمتها ببرادة الرصاص المشورة عليها. ساحميني يا ابنتي، فقد حققت لك شطر أمنيتك وأثقلتها ببوح مأساة أنت أول ضحاياها لا أنا.

ورغم كل ما ذكرت، فاعلمي أنني تركتك إلى جوار رجل لن يضيعك، أخبره يا ابنتي أكثر مما أخبر ذاتي، سيعطيك من الحب عطاء من لا يخشى فاقة قلبه، سيهديك حنانا لم يهدك إياه أحد قبله، ولا أظن بأن هناك أحدا بعده، أحبيه يا ابنتي فله في قلبي ستم المقام وفي روحي عظيم المرام ومن نفسي له حسن المقال.

أعلم أنه حين تقرئين كلماتي سيكون حبه قد تشجر في بستان روحك
وأسمق بحلييها، وأورفت غصونه فألقت بظلالها على سنوات عمرك، وما
إخباري لك إلا لأبلغك أنه يستحق حبك وهو أولى العالمين ببنوتك حتى
وإن لم تكن نسبا.

كوني بخير يا كل الخير، وإن كان ليد الشر أصابع عبثت في خيريتك،
فأنت الخير الذي ما إن عمّ طغى ومحا كل شر.
الأم.

الثامنة تحنانا بتوقيت بوحى.

بدأت رهف تتقلب في السرير إيذانا باستيقاظها، أسرعت هالة إلى
حقيبتها لتخبئ الدفتر قبل أن تراه الصغيرة وتلح عليها في أخذه ليكون
لها خاصتها، نعم هي لن تفهم المکتوب بالأساس، ولكن ليس هو الوقت
المناسب لاطلاع أي حد عليه حتى ولو كانت الصغيرة التي لا تحيد القراءة
والكتابة بعد، استيقظت أم هالة هي الأخرى.

مرّ اليوم كعادته ساكنا خاليا من الصخب إلا ذاك القادم من الشارع
يعكس جلسته التي يعجب بها ونداءات صبي المقهى التي لا تتوقف طوال اليوم
بدءاً من الإبكار على صوت الراديو وصوت الشيخ عبد الباسط مرتلا قرآن
الصباح، وحتى منتصف الليل وسكون الحارة إلا من صوت زهر الشطرنج
على الطاولة يرميه الساهرون هوّا.

تستعيد هالة معايشة ما نُفِيت بعيدا عنه لسنوات، تتأمل دون تأفف حركة المارة وضجيج الورش الصناعية الواقعة على أطراف الحارات المتلاحمة والمتشابكة كأمعاء البطن الواحدة، وأصوات حناجر أولاء الباعة المتجولين، هذا ينادي على روبايكيا للبيع، تسمع صوته فتبتسم ولسان حالها يقول:

- يبدو أن هذا الرجل قد وطأت قدماه المنطقة بالخطأ؛ فكل ما فيها روبايكيا مستهلكة خالية من أي رمق للإصلاح والتعديل.

وذاك الوافد من إحدى قرى محافظات الصعيد ينادي في مكبر الصوت خاصته "بصل للخزين" فيرحل سريعا بعدما لا يجد استجابات شرائية توافي بضاعته، يبدو أنه لا يعلم أن ساكني المنطقة لا يوقدون القدور إلا في المناسبات وأن استخدامهم للبصل لا يتعدى حدود طبق الفول الذي هو بالأساس الغذاء الرئيس في الثلاث الوجبات عند الأغلبية إلا من قلة قليلة تخلو مواعدهم منه في بعض الوجبات.

وثالث هناك على عربيته الكارو حاملا أعواد القصب، فذاك يُسمع نداؤه صَدَّاحا على أبواب الحارة ينادي مرة أو مرتين ويمضي سريعا، فقد فطن إلى قدرات الأهالي إلا من يوم الجمعة تتزايد مبيعاته ويحقق مكاسب مرضية له.

في المساء، كانت طرقات يد أدهم تسبق أستار الليل المكتحلة بالعم، فتحت له رهف، فسلم عليها ولثم وجنتيها وأعطائها حلوى قد ابتاعها لها خصيصا، جلس ثلاثتهم بعدما سلم على هالة وقبل يد أمها، التي شرعت

بدورها في مساعدة رهف بفتح علب الحلويات، ولسان حالها وهي تطالع وجه أدهم توبخ نفسها:

- هذا هو أدهم الحنون فوالله لو أنجبت ولدًا ما كان ليبرني كما يفعل هو، ولا يعطف علي مثله.

تنظر إليه والدموع في عينيها تترقق، تعتذر إليه في صمت:

- آسفة يا بني على ما فعلته في حق حبك لابنتي يوما.

اعتبرته طيشا لا يستحق الاهتمام، ولا حتى الالتفات إليه.

تعض أناملها ندما على نظرتها إليه حين جاءها يتوسل إليها بأن تمنع أبا هالة من تزويجها من ذاك الثري العربي. فصرخت به واتهمته بالصبيانية والطيش وطردته من بيتها قائلة:

- دعك من هالة ولا تقترب منها ثانية، ستتزوج وتسافر وانتهى الأمر، اذهب أنت وابحث عن حرفة تقنات منها، تساعد أباك بدلا من أن تكون عالة عليه، اخرج من هنا، لا أريد أن أراك مجددا.

أغلقت في وجهه الباب مسفهة من توسلاته إليها حينها، بينما الآن هي من تريد أن تتوسل إليه حتى لا يترك ابنتها وحيدة.

تبادل أدهم وهالة النظرات في صمت وكانت الثانية ترسل له رسالة خفية يحملها ألقُ عينيها الخافت في شروء بادٍ لكل ذي بصيرة، وكأنها تترجاه ألا يعاود عرض ما طلبه البارحة أمام أمها؛ فهي تعلم أنه من المؤكد إذا علمت

بالأمر ستباركه وتشجعه، خاصة وأنها باتت تخاف على هالة وابنتها في زمن بات الغدر فيه هو السيد الأمر، ولعل قربه منها يخفف عنها شيئاً من قساوة الماضي، وربما أيضاً زواجه من ابنتها يريحها من عذابات الضمير التي تلهب فكرها وعاطفتها الأمومية بكل ساعة من ليل أو نهار.

قطعت هالة وصلة الصمت تسأله:

- أالزلت تذكر كاتبة كانت تنشر لها قصص قصيرة في إحدى المجلات الأدبية التي تأتيني بها، وتقول هالة اقرئي، أتيك بكتر ثمين لا يقدره الكثيرون؟

لقد وجدها معروضة للبيع بثمان زهيد لدى باعة الجرائد.

ابتسم على مقولتها الأخيرة وهو يحجبها:

- نعم ما زلت أتذكرها، بل وأقرأ لها إلى الآن وأتابعها على صفحات الفيس بوك والمواقع الإلكترونية التي تنشر فيها كتاباتها الأدبية. وما يزال الكثير لا يقدرون قيمة الكتب، بل في ازدياد هم.

أومأت برأسها وفي داخلها بعض الحسرة؛ فهي لا تملك جوالاً من الأساس، حتى ذلك الهاتف الذي قد ابتاعه أدهم لأمها من قبل كيما يطمئن عليها لا يمكن الدخول به على صفحات الشبكة العنكبوتية، قرأ ما يدور في داخلها فعاجلها:

- هذه هدية متواضعة، أرجو أن تقبلها، هاتف نقال جديد وحديث مزود بشريحة للاتصالات والإنترنت.

أنت بحاجة إليه الآن، من خلاله بإمكانك الدخول على حساب فيس بوك الذي أنشأته لك. وكذا تستطيعين متابعة الكاتبة وغيرها من الكتاب.

وأجدها فرصة طيبة تستعيدين فيها ذوائك القرائية السالفة.

ثم أمسك بالهاتف ودخل على موقع لتحميل الكتب الالكترونية وقام بتحميل بعض الروايات القديمة التي تعشق مطالعتها.

فرحت باهتمامه بها ورغبته في إسعادها بعودتها للقراءة من جديد قائلة:

- أشكرك أدهم... سأعود للقراءة عليها تنسيني بعضا من مرارة الواقع.

- لا شكر بيننا هالة، ستنسين وسيعود الحق لأصحابه.

- دوما متفائل، لم تتغير.

- ثقي بي، أنا بجوارك ولن أدع الحزن يطالك ثانية.

- أثقلتني يا ابن الخالة، معروفك في لا أوفيه حقه.

- المعروف في أهله ليس معروفا، إنما هو واجب علي فيك يا كل أهلي.

صمتت ولم تستطع الرد، وإلى جوارهما رهف ترسم بالألوان في دفتر رسمها، وقد غفت أمها وهي جالسة، فاستأذن بالانصراف، فأذنت له.



الفصل الثاني عشر

وتأبى جذور الحب أن تجث

وها هو الليل من جديد تأوي فيه هالة إلى نفسها، تتبادل معها أطراف الذكرى، تبكي، تضحك، تبسم، تصرخ في صمت وتصمت في إصدار تموت على أثره الروح ألف ألف مرة، بيد أن هاته الليلة لم يدعها هاتفها الجديد ترمي بين أحضان وحدتها تتصرف كيفما شاءت؛ فبعد ساعتين تقريبا من مغادرة أدهم لهن، وجدت هاتفها يناديه، فإذا بالشاشة تضيء باسمه على برنامج "ماسنجر" الذي أخبرها كيف تتعامل معه ومع الفيس بوك آن الزيارة، لم تقوَ هي على النطق بأي كلمة بعد مبادلتة التحية، فتابع هو قائلا:

- كيف حالك؟

- أتمنى أن تكوني بخير وأتمنى أن تكوني فكرت جيدا بأمر طلب الزواج.

أجابته:

- أرجوك أفلع عن التفكير بهذا الأمر، وكف عن الحديث فيه، يبدو أنك أهديتني الهاتف كيما تعيد وتزيد في موضوع الزواج كيفما شئت، ووقتما شئت. ويبدو أنني أخطأت حينما قبلته منك.

رد عليها والغضب يتطاير مع ذرات أنفاسه، تشعر بوهج وجهه وهو على الجانب الآخر يكاد يلفح أذنها:

-أنت تحاولين خداعي وخداع داخلك، اعترفي أنني ما زلت حيا بداخلك، ما زلت فتى أحلامك وفارسك، ما زلت زوجك الذي تنتظرين موثقته، لن أكف عن طلبتي يا هالة حتى توافقين عليه ولو بعد حين.
لن أكف، أسمع، لن أكف.

أغلقت المكالمة دون إجابة بعدما عرى مشاعرها أمام ذاتها وذاته؛ إذ تيقنت أنه ما زال قادرا على سبر أغوار قلبها وفهم ما تجاهد دوما في إخفائه. ألقت بالهاتف إلى جوارها واتجهت إلى حقيبتها تستخرج الدفتر من محبته كيما تعيد قراءة ما سطرته في الليلة الآنفة، وإذ بها لا تقرأ بل تكتب مجددا:
إليك يا مَنْ إليه إِلِيَّ...

كنت قد انتويت ألا أكتب مجددا بعدما كتبت لرهف، لكنني لم أقوَ على غلق الدفتر دون أن تكون أنت آخر من أكتب إليه، أنت أول من علمني أن

أكتب ما يجول بداخلي، وما يطالعه خارجي، أتذكر تلك المفكرة الصغيرة التي أهديتني إياها في ذكرى يوم مولدي؟ وقلت لي: اكتبتي فيها ولكن ما يسرك وحسب.

تبسمت حينها وقلت لك:

- ما يسرنى وحسب؟ إذن لن أكتب فيها قط.

قلت: اضربي بعصا الأمل السحرية شبح الحزن، يخفت وينطفئ، أرجوك لا تجعل الحزن يخالط أي شيء يصلك مني.

أتعلم يا فرحي الذي أشابه عمر حزني، لم أكتب فيها غير اسمك وحسب. ما أسعدني أمراً في الحياة سوى اسمك إن ذكرته أو كتبتّه، فالمفكرة كلها باسمك وهي إرثك مني وإن كنتَ بالبدء أنت مهديه.

لكن أوصيك بأحقيتك في ملكية الدفتر بكل أحزانه وشجونه، سأترك كليهما لك؛ فأنت الوريث الشرعي لحروفي ومن حَقك كل ما كتبتّه، وأصغ إلى نصيحتي عليها تكون عونك:

- كلما تقرأ رسالة من رسائل الدفتر، اذهب إلى المفكرة واقرأ اسمك بالصفحات، لن تحتاج إلى معرفة ترقيم الصفحات ولا أن تضع علامة على الصفحة التي تقف عنها فكلهن الكلمة ذاتها، كلهن أنت.

أتعلم لم لم أبتدئ بك رسائل الدفتر؟

لأنني أعلم علم اليقين أني لو ابتدأت بك لما انتهيت ولما خططت حرفاً آخر لغيرك، وأيم الله لكنّ سأنفق كل رصاص قلبي عليك، وسأصغر من حجم خطي كيما تكفي الأوراق بوحى فيك، لكني لم أفعل كما لم تفعل أنت وتسمي ابتك باسمي.

آثرت أن أبقىك داخلي وأحاورك داخلي ولا أخبر الأوراق بسري فيك، لكنني تراجعتم عما آثرت بآخر نبضة شهقت بقلبي إليك تخشى عليك الأفول، الليلة أشعر بأن طائف الموت يطوف حولي يغازلني متودداً إليّ، يمد يده ينتظرنى أصافحه، لذلك كتبت إرثك ليكون لك مني ذكرى تهدد خاطرك وتخفف عنك ثقل الحزن حين يحثم على قلبك يريد وأده بعد رحيلي.

أعلم أنك لن تنسى كيما أقول لك اذكرني أو تذكرني، ولكن سأقول لك: حدث ابنتي عني وعن شوقي إليها آناء الحب وأطراف الحنان. أخبرها عن أمومتي لها، وسعيني للإتيان بحقها وأنا وكلتك أمر إرجاع الحق لها.

أخبرها أني لم أسع يوماً بل لم أفكر بالأساس في احتمالية نشأتها في تلك الحياة البائسة.

ازرع فيها العلم والمعرفة اللتين لم تتمهما معي كما تواعدنا، لا تدعها لقمة سائغة يلوكها فم الناس مع كل نائلة من نوائل الزمن، بل ازرع في فكرها بذور القوة مع حسن الإدراك وأنا أوّمن أن طرحها ستكون أشجاراً سامقة الفهم في سماء عقلها.

أقرأ لها كما كنت تفعل معي، علمها الفلسفة ولكن لا تفلسف لها الحب؛
فما عاد بالعمر قلوب تحتمل فلسفات الحب التي حرمتنا من سجيته وعفويته،
أخبرها أن الرأسمالية باغية فيفرض سلطانها الحاكم لعوالم الأرواح، وأن
الاشتراكية ظالمة في تقسيمها غير العادل حقوق الأجساد.

انح معها في الحب منحى ثالثا اسقه لها سقيا زمزم لحجاج بيت الله الحرام،
اجعلها تنضله حتى تمتلئ به حواشيها عن آخرها، أطعمه لها رطبا جنيا كيما
يولد من كل خلجة بجسدها شعور ظهور ظهور نديّ.

اغزل منه أثوابا طاهرة وألبسها إياها مع كل صلاة خاشعة التبتل في
محاريب الأرواح، علمها كيف تؤديها وتدرّبها عليها في الصبح والمساء كيما
تغدو أيامها كلها أعياداً مجيدة.

أَحِبِّهَا يَا أَدْهَمَ، أَحِبِّهَا...

هي من ستكون عوضا لك عني بإذن الله، إني رجوت منه ذاك، وظني
به أن سيسّجيب، ستشبع جوع روحك في قطعتي، وسيروي ظمأ قلبك
مني سلسيل براءتها، لكن عدني ألا تجور بسبب ابنتي على زوجتك، أعلم
أنك لن تكون ظالما فيما بين رهف وابنتك، ولكن الأهم عندي هو زوجتك،
اعدل بين روحي الكائنة في ابنتي وبينها.

أرجوك لا تضيع حقها مهما طال بك الزمان، فلا تتركها وحيدة شريدة في
عالم جل ساكنيه ينتمون إلى فصيلة البهيمة.

أعلم أنني أذكرك برهف للمرة الثالثة تقريبا، تحملني؛ فإني أم لا تملك من
الأمومة سوى شعورها لذلك أوصيك وهذه هي المرة الأخيرة التي أوصيك
فيها:

"صنها فإنها بضع مني يؤذيني ما يؤذيها ويفرحني ما يفرحها وإن كنتُ
في تعداد الموتى".

أكاد أرى اندهاشات ملامحك وضربة يدك على الدفتر متعجبا من بلاغة
ما كتبت تارة، ومن شجنه أخرى ومن كثرته ثالثة، ولكنني سأجيبك بأنك
كنت خير معلم لي، أتذكر حين وصفتني بالأديبة، ها هو أن أكتب إليك
رسائي، وها هو إلى جانب ما علمتني إياه مع القراءة، أعيد على مسامعك
جملتك الخالدة: "إن الفواقع تصنع منا نحن البشر فلاسفة وأدباء".

ودعني أزيدك من الحكمة كلمة أذيل بها جملتك: "وشعراء أيضا". فلقد
صنعت مني شاعرة تنظم القصيد وكأن الزمن أبى إلا أن يكون في روعي
روح منك، كنت تنظم القصائد في بعادي، وأنا أنقشها بسيقان الورود
المزهرة على الجدران الحجرية التي شيدت منها حديقة المنفى، أطلعها كل
شروق وأردها وأودعها كل غروب فتودعني إلى أن وشم بها القلب وشما
عصي الطمس والإزالة.

كنت أخالك مارا بي، حائما حولي، معرضا عني فأناجيك بالنظم:

يا من ترى برهان عجزى جميعه

منشورا على الخد دمعاً
يلهب الباقيات من وجداني
وتمر بالدار المفتوح بابه
تناظرني والبوح صمتاً
وعن وجهي تولى شطرك
وللشوق المطل نحوي
من عينيك تداري
مالي بحيرتك صبرا
في غض الطرف عني
ولا أنا بالقرب منك
تنطفئ ناري
كن حازماً بالهوى تنجو
وأبلغ زهور عمري الغايات
بين ذراعي انتظاري
أبلغها أن نبع القلب
قد جف ماؤه قسراً

بعدهما كان يفيض عليّ

يسقي كل بستاني

قل ما شئت ولا تخجل

فليس بين المحيين أعدار

إن افترقت أجسادهم يوما

هذا بمشرق وذاك بمغرب

فكلا قلبيهما موصول بالثاني

فلئن جمعتهم جنان الروح

فذا هو عين الرجاء المتبتلة

تقيم صلاة الحب المرتحى

في محراب الأمانى

علمت أني بالأمس البعيد كنت لك الظالم الأكبر، وأنى اليوم أدهسك
بابتعادي أكثر وأكثر، وأن كلماتي هاته ستستدر دمعك الأغلى والأطهر.

لا بأس يا حبيب الروح، فليس كل الدمع محض ماء مالح الطعم مرير
الإحساس؛ دمعك ما هو إلا رוחي الفارة بكل تكوينها مني إليك، رוחي
الساكنة بين عينيك، ابكِ حتى كلما ضاقت بي العين نزا بكاني القلب نبضا،

ابكِ وأخرس توائق الجسد حتى تشفى من شهوانية العشق الممزعة أسماه
بأيادي الزمان، ابكِ حتى ترد روحي بروحك كواثر العشق المعتق بخلاصة
الطهر في جنان الحياة الأبدية، ابكِ حتى تعتنق كل الخوالج هذا العشق المنزه
المرتجى الذي لا تقيده عورات الأجساد وتحله موثيق وتوقيعات وتحرمه كل
ما دونها، مترفع هو ومنزه عن كل مزاللق الحس وتوابعه.

ابكِ ولا تخش البكاء...

ابكِ حتى تحضل روحك وتشفى تماما من كل شائبة دنيوية خالطت
حبك لي.

التائقة.

لا توقيت لبوح نافذة سهامه حيث أبواب الرجاء.

أغلقت الدفتر، قبلته بعزير عينيها، ملأت صدرها برائحة رصاصه،
ومعها عقب أحزانه وآلامه ثم أطلقتها زفرة زفرة بروية وهدوء، ولسان حالها
تحدث طيفي حبيبها وحبيبتها:

- الآن أكملت لكم البوح ورضيت لكم الدفتر ذكرى وونيسا.

هرعت إلى كنية خشبية عتيقة العمر، شاهدة على زواج أمها وأبيها لم تجدد
مساندها القطنية إلا مرة واحدة أو مرتين على الأكثر طيلة السنوات الماضية،
موضوعة إلى جوار الجدار المقابل لباب الشقة فهي بالنسبة لهذه الأسرة
الصالون الذي يستقبلون فيه زائريهم، قد حُفر بسطحها الأفقي خزانة

يستخدمها أهل البيت في حفظ ودائعهم النقدية والأوراق المهمة، بيد أنهم لم يملكوا يوماً قنطاراً ولا قطميراً، فبقيت الخزانة فارغة، لم تمتد إليها يد سوى يد هالة لتدس بها مقتنياتها الثمينة المهداة إليها من أدهم.

فتحت الباب بترقب تخشى عدم وجود ما حفظته بها من سنوات مضت قبل رحيلها، وإذ بالقدر يفاجئها بوجودها كما هم غير أن الصفرة قد أرهقتها والذبول قد شبيها، أمسكت بها وكأنها أمسكت بالعمر الآفل كله بين يديها "مفكرتها، وثلاثة كتب: (أوراق الورد، سارة، الأجنحة المتكسرة)، وفتات ورود معتقة بداخلها شاهدة على حب لم يرَ نور الحياة، أخرجتها، احتضنتها احتضان العائد بعد سفر طويل، سمعت صوت رهف تناديا، فأسرعت بوضع الدفتر إلى جوار تلك المقتنيات، وأعادت الكنبه بعدما بسطت عليها الفرش إلى وضعيتها الأولى.



الفصل الثالث عشر

علمه جمر الحب تتشظيه الذكريات

وهل تكون للحياة حياة إن كانت بحاجة إلى أن توضع في غرفة الإفاقة
وتوصل بأجهزة التنفس الصناعي؟

هل انتظار النهايات هنا يكون محملا بالرجاء أم انتظارا محفوف بالخيبات؟
هل التوقعات تجدي أو التكهّنات تروح عن الأمل المختنق في دياجير النفس؟
هل الذكرى تعتمد التجلي صباح مساء فلا تقتصر على الليل وحسب حين
يغفو الناس لتتأبط ذراع الألم وتطوف بأقاصي الروح لتقطف من حدائق
اللوعة جورية تبكي، فتكون المدامع جهارا نهارا، لا تهاب شفقات الأعين؟
هل السؤال بأي يوم نحن يكون ذا أهمية تذكر إذ ما كنا نصحو كما نبيت،
تدهسنا عجالات الزمن دون رحمة؟

مرت الأيام متشابهة إلا من إلحاحات رهف المتزايدة للذهاب إلى المدرسة،
في عصر يوم ما وقفت قبالة أمها تحدثها:

- أمي، متى سأذهب إلى المدرسة؟

- حاضر، قريبا ستذهين.

- متى؟

دوما تقولين قريبا قريبا إن شاء الله ولا يأتي هذا القريب.

- رهف نحن في الإجازة الصيفية ولا توجد مدارس الآن.

- لكنني أرى من شباك غرفتنا أطفالا يحملون كتباً ويروحون ويحيئون.

- نعم، هؤلاء يذهبون إلى الدروس الخصوصية.

- أريد أن أذهب مثلهم.

- حاضر رهف، سأفقد مدرسة جيدة وأرسلك إليها لتدرسين معها.

- متى إذن؟

- رهف، لا تسألني كثيرا، قلت لك سأرسلك إذن سأرسلك... انتهى.

- آسفة أمي، أخشى ألا تفعلني كالعادة.

- لا سأفعل إن شاء الله، سابقا لم يكن بمقدورنا أن نخرج من البيت أو

السجن كما كنت تسمينه، الآن الوضع مختلف، اتفقنا رهف؟

- اتفقنا يا أجمل أم، يا أمي .
- في دقائق أصبحت أجمل أم يا مأكرة؟
- دوما أنت جميلة يا أمي، أحبك جدا.
- لثمت خدها بقبلة طفولية بلسمت جراح أمها المتقيحة داخلها، فبادلتها
باحترضان طويل أفاقهما منه يد الجدة تربت عليهما وتضمهما إلى صدرها كأنها
امتلك الدنيا كلها وهما بين ذراعيها.
- في المساء هاتفت أدهم:
- مساء الخير أدهم، كيف حالك؟
- مساء النور يا هالة، بخير حال والحمد لله.
- كيف أنتِ ورهف وخالتي؟
- جميعنا بخير، كيف حياة؟
- بخير، تود زيارتك ورؤية رهف، لقد حدثتها عنها كثيرا.
- حسنا، وأنا ورهف نشاق لرؤيتها.
- أود أن أسألك هل حادثت أحدا لأجل قضية رهف؟
- ما زلت أسعى جاهدا في التواصل مع منظمات حقوقية عربية ودولية،
ففي الداخل يرفضون التواصل معي كلما عرفوا تفاصيل الجناة، لأن القضية

ستطال جهات خارجية وسلطات عربية، وهم يرفضون الدخول في عراق خاسر على حد قولهم، حسبنا الله يا هالة.

- وابنتي هذه ما شأنها وشأن الجهات السيادية؟ أليس من حقها أن تنسب إلى أب شأنها شأن أي طفل معلوم النسب؟ البنت تلح علي كل يوم تريد الالتحاق بالمدرسة.

- اهدهني عزيزتي، لن أدع حقها ولا حقك يضيع سدى، لكن حقيقة الأمر صعب، خاصة في ظل الأوضاع السياسية المتخبطة التي تمر بها المملكة، والتي تأثرت بها بلادنا هي الأخرى، الناس هنا خانعون لأصحاب الكروش والأشولة كما تعلمين، وقضية كهذه لو تفجرت ستثير فورة أصحاب النفوذ هناك وبالتالي سيصبون جام غضبهم علينا هنا.
قاطعته صائحة:

- لا تشرح لي؛ أنا لا أريد سوى حق ابنتي في النسب، أريد أن أعلم أيها أبوها؟

- يا هالة، أنا فقط أوضح لك لتعلمي أن المشوار طويل وبحاجة إلى طول نفس مّنا، من المؤكد أن هناك عشرات بل مئات الهالات، قصتك ليست قضية شخصية تخصك وحدك، بل قضية رأي عام.

أما عن مدرسة رهف واستخراج شهادة ميلاد لها، فالأمر سهل بموجب نسخة العقد العرفي الذي احتفظت به خالتي، قمت بتوثيقه وبالفعل استخرجت لها شهادة ميلاد، كنت سأحضرها لك في الغد.

- وما أدراني أن السمسار هو أبو رهف؟

- يا هالة، افهميني جيدا، نحن الآن بحاجة إلى وثيقة ميلاد للبتت تمكناها من الالتحاق بالمدرسة وغيرها من الجهات التي ستحتاج إليها فيما بعد، سنرضى بذلك مؤقتا حتى نتمكن من إثبات النسب فعليا، ثقي بالله ثم بي، والله لن يضيعها.

- لله الأمر من قبل ومن بعد.

- أستاذ الآن منك.

- تفضلي عزيزتي، ارجوك اهدئي واستبشري خيرا.

- سأحاول، مع السلامة.

- مع السلامة، في حفظ الله.

أغلقت الهاتف فإذا بإشعار يخبرها بأن كاتبها المفضلة وافقت على طلب الصداقة التي أرسلته لها منذ يومين.

وجدت نفسها تهفو إلى القراءة لعلها تجد فيها تطيبا لخاطرها، فراحت تتجول في صفحتها تلتهم الكلمات التهاما إلى أن وقعت عينها على قصة قصيرة استعذبت العنوان جدا وحلقت معه فوق الغمام:

"وإذا السماء أنجمت"

راحت تعد كوبا من القهوة ليكون برفقتها آن القراءة، أظهر الهاتف إشارته الحمراء معلنا جوعه وحاجته إلى الغذاء على شحنات كهربائية، انشغلت لعدة

ساعات مع أمها وابنتها ونسيت أمر قراءة القصة، وقعت عيناها على الهاتف، فتذكرت أمر القراءة، عادت إلى متصفحها مجددا وبدأت:

" وإذا السء أنجمت "

وكانت كلمة الله لها أن انشقي، فانشقت.

ومن رحمها خرج ذياك الجسد العاري من كل مخيط، مكسو جلده بذر الثرى يستره وحسب.

الأعين جاحظة تبحث عن أي شيء يُرى في تلك العتمة الكاحلة، والذارعان مصفوفان كل إلى جانبه موصود بوصلات طينية لزجة الملمس، هلامية المنتهى تمر في طريقها بالقدمين الثقيلين ببقايا الحشا التي خرجت مع الجسد آن الولادة، لكنها ما زالت ممتدة إلى الرحم المسجور ببطن الأرض.

الصوت المنحبس يكابد قضبان الخرس، يحاول النطق.

إحدى اليدين تكابد قيد الطين وتنتزع نفسها منه انتزاعا، تطيش في المحيط تبحث عن أي منجى من هذه المشهدية الظلماء، تلامس خشاشاً شائكا ينغز فيها نغزاً دامياً، تسمع حفيف ورق يبس يتكسر في يسر وكأنه بانتظار الملامسة حتى يشرع في فعلته تلك، كتلة ضخمة خشنة الملمس تتبدى له في الظلماء وبه يصطدم.

إنه جذع ضخم لشجرة عتيقة ضاربة بجذورها في عمق العمق، اليد الثانية هي الأخرى تحاول سحب نفسها من غمد جانبها؛ لتعاون أختها على

بلوغ بغيتها، يمتدان دون خلاص تام من هذا اللزج، لكنهما بالأخير ينجحان في الوصول إلى جذع الشجرة يعانقانه ليكون لهما ثقلاً معاوناً فيسحب بقية الجسد المثقل العالق بعنق الرحم.

تسقط آخر حبة معلقة على طرف غصن جاف وشيك التهاوي، لكن حبله السري الذي يربطه بأمه لم يكن قد جف بالكلية بعد، ولربما جفّ لكن بحاجة إلى حركة خفيفة لتحسم أمره بالفراق، وها هو قد انفصل عنها.

ولربما تأثرا بعناق الجذع والتشبث به أو أن المشهد كله كان صادما له فهو دون إرادة، أو كل ذلك جميعا.

تعددت الأسباب والانفصال واحد.

شعرت هالة أن روحها تعافر للانفصال عن جسدها، ولكن هناك شيئا ما يحاول أن يجذبها إلى الجسد ثانية، تلتقط أنفاسها وتعاود القراءة من جديد.

وسقطت الزيتونة الأخيرة داخل مصباح ملقى أسفل الشجرة، محترق فتيله بالكلية، وإذا به يتبدل بآخر جديد ناصع البياض، يتلففها نهما فيعتصرها عصرًا، كمن اشتاق حتى فتت الشوق كبده وقطع نياط قلبه وعلى حين غرة تجلّ أمام عينيه غائبه، فهو على محتضنه شوقاً حتى ليخفيه داخله فلا يرى منه شيئا.

اشتعل الفتيل يضئ المصباح، مرسلا شعاعه يحترق داجية المشهد، ويبعث للعين بالأمل في عودتها للعمل لتمتلى بنور الرؤية وأجاج الرهبة.

الصدر يلهث أنفاسه المتعثرة الخطى في طريقها شهيقاً وزفيراً، والقلب يحاول الإمساك بذاك النبض الهارب ذعراً.

والسماء البعيدة تستنير ببزوغ نجمة فيها، يشخص البصر نحوها مصطحباً بقية الجوارح تشدد من أزره متكئين على ضوء المصباح الذي خفت إثر بزوغها، واسود طرف الفتيل العلوي وتباعدت خيوطه فيما بينها في ذا الجزء المتفحم لتَوّه.

لا تدري من ذا الذي يدنو؟ النجمة هي من تعرج إلى أسفل لتقترب من الجسد أم الجسد هو الذي يسمو إليها بالعلا؟

تتحول النجمة ويتبدل وجهها النوراني إلى وجه عجوز شاحب، تكابد شعوراً ما لا يدرك كنهه، بيد أن ابتسامتها متعسرة التجلي وكأن شيئاً ما يمنعها، ربما حنين ينبش رفات ذكرى، وربما ألم يسبق البسمة فيعترض طريقها، لكنها تصرّ أن تبسم بأي حال، ناظرة إلى الجسد تسأله:

- لم تأخرتِ عن الموعد؟ انتظرتكِ كثيراً، كل صباح أسترّق السمع لطرقات يدك على الباب، ويمر النهار حتى يحين الليل وأعاود انتظار الغد دون مجيء منك.

آخر لقاء بيننا ما وددت رحيلك من جواري، كف يدك كنتُ أحتضنه بكلتا يدي حينها وأطبّقُ عليه خشية الهرب، كنت أستمّد منه ما يروي ظمأ حنيني إذا ما غادرت.

لكم كان فيه سحر عجيب! كل الآلام كانت تحتفي، وكأن لم يكن بي مرض، أستم ثيابك وأنت تحتضنين رأسي وتقبلينها، فأتمسك بك أكثر، كان عقبها شهيتي إذا ما انعدم الهواء من حولي وما لبثت أن ودّعني على وعد بالعودة ولكنك لم تعودني.

نظر إليها برهبة ووجل يستدعي الكلمات الغائبة أن تحضر قائلاً:

- وعدتك أن آتي، لكنك من تعجلت الرحيل الأبدي، لم تمهلنا الأيام ولم ترق للاشتياق الليلي، مرّ الزمن بطبيعته الكونية ولم يختصر من عمره ليزيد من أعمارنا ويجود علينا باللقاء.

لكنك بذكري خالدة، وفي قلبي مقيمة، ولدربي كنت المعلمة الأمية التي خبرت عن العلم ما لم يخبره أهله، صدقيني سنلتقي لقاء أبدياً لا افتراق بعده، فلا تملي الانتظار فما مللته قط.

انطفأت النجمة وعاد المشهد إلى سابق عهده.

الجسد إلى جوار الجذع غارق في ذكرى نجمته الراحلة، والمصباح إلى جواره يضوء عتمته، بيد أنه خفت خفوته الثاني، وازدادت المساحة السوداء في الفتيل.

وهنا شدهت هالة من وصف هذه النجمة العجوز وتوقها للجسد وتلك المشاعر الفريدة التي تربط بينهما، حب خالد لا تؤثر فيه غضبات الحياة ولا سكّنات الموت وبآخر هذا المشهد وجدت نفسها تنطق باسم جدتها قائلة:

- نعم هذه النجمة هي جدتي التي لطالما كانت تربت على كتفي، هي أول من حزنّت لقرار أبي بعدم إكمال دراستي، هي من نهرتني على فعلته تلك وتمنت لو كانت تملك المال لتنفقه علي لأستكمل دراستي كبقية صديقاتي، لكنها لم تئس ولم تتركني لليأس؛ إذ إنها رغم أميتها كانت دائمة المواظبة على دروس العلم وصلاة الجمعة في المسجد القريب، فكان لها الفضل علي في حفظ كتاب الله، لولا تشجيعها لي ما حفظته، فكان مؤنسي في وحشتي، رحمة الله تنزل عليك في كل حين يا جدتي.

دعت ما تيسر لها أن تدعو وفي قلبها توق إليها قد تملك منها تملك الصياد من فريسته، ثم واصلت القراءة.

تكرر بزوغ النجوم والآن نجمتان تبسمان في الوجه المظلم، إحداهما تحتضن الأخرى، النجمة الأم تحد النظر في الجسد الشاخص فيتوق، تلوح إليه يمينها، حتى بدأت المسافات تتلاشى والأبعاد تتزائل كما السابق.

شرعت النجمة بالحديث موجهة كلماتها إليه والخاشع بقلبه نحوها فلا تسمع له نبضا، وقالت:

- كيف أنت وكيف جنين بطنك؟

اشتقتك كثيرا واشتقت حواراتنا على أرصفة الحاضر نستدعي من الماضي ذكريات الطفولة، نداعب بها صغارنا بين أيدينا ونستشرف منها مستقبلا حالما أنيقا.

لم لا تجيئيني؟ اشتقتُ صوتك، ناديتك مرارًا دون جواب منك وأنا في
حضرة البعد، صدقيني ما اخترتُ الغياب، ولا آمنت به يوما وها أنا هنا الآن
لأطمئن عليك وعلى وليدك إن كان قد أهلك.

حاول الجسد أن يحرك ما بين شفثيه لينطق، فإذا به يعانده ولا يتحرك،
لجم اللسان.

محاولات ومحاولات كلها تبوء إخفاقا والنجمتان يخبو نورهما شيئًا فشيئًا
حتى انطفأ.

والجسد إلى جوار الجذع يهوي في ارتطام يعيد إليه حركة اللسان، فينطلق
حديثًا كحصان انطلق بعد كبوة عساه يستدرك ما فاته من سبق مستغيثا
بنجمته أن تعود لتسمعه:

- فوالذي أضاء بك السماء وأعتمها بعدك لم أنطق في بزوغك طوعًا،
لفَّ الوهن منطق حرف وخر في هاوية الصمت، فلتغفري عجزتي ولتبزغي
لأجلي.

أنا من اشتقت صوتك الندي يا خلاصة الطهر وآخر قطفة في موسم
النقاء، وأجمل شمس سطعت فأنارت الكون بهجة، فعشبت أرضه خضارًا
وأزهرت فيه زنايق حب أبدي تقلني إليك في كل حلم شفيف.

رحلت يوم قذف رحمي إلى الدنيا وليدي الذي عنه تسألين، ليكون
سلواي فيك يا من سلواه يأبى إلا أن يكون الأئين، وليكون عهد علي ألا
يموت ذكراك في ولو بعد حين.

- يا الله! أيعقل أن يكون أبي وأمي كانا قد اشتاقا لي؟

أيعقل أنهما ندما على ما فعلاه بي؟

أيعقل أن أمي كانت تستشعر وهني وضعفي أثناء حملي فكانت تناجيني؟

كانت تسألني عن حالي وحال جيني؟

أيعقل يا أمي أن تكوني أنت وأبي هاتين النجمتين؟ لكنهما رحلا معا في

القصة، أما في الواقع لم يرحل سوى أبي، انتظرتني يا أمي كي تطمئني علي وعلى رهنف.

كانت هذه تساؤلات هالة المنتجة تنطق بها وهي تكابد الألم الذي انتاب

عضلة قلبها فأوجعها بعدما قرأت فقرة النجمتين، وبأعين أدمائها البكاء راحت تستأنف...

ارتجف المصباح وخفت للمرة الثالثة واتسعت مساحة السواد في الفتيل

عن سابقتها، أرعدت السماء لخبر ما قد بلغها، وحشدت كل بقايا السواد

الذي سكن جنبات دياتها، وصدى صوت يناديها أن زمي زمي... فاجتمعن

بديمة واحدة أفرغت ما حوته على الجسد الممسوس رعدًا، المرتجف رعبًا،

المتمم كلما (اللهم رفقاً) وعلى آكام الحزن المفترش الجذب حطت عناءها،

ثم انزوت، سكنت السماء وأقلعت، وغيض القطر في قلب الأرض وهيت

همسه شوقاً (هيتَ لكْ).

بزغت نجمة جديدة ولكن هاته المرة فاضت على صفحة السماء نورا، وكأنها استعارت ضوء القمر ليلة تمامه وكانت هي هو. وكالمرتين السابقتين دون مسافات كان الحوار، وبدأت النجمة حديثها للجسد الذي غسل كسوته الترابية ماء المطر الأنف سقوطه، وتلاشت من على يديه آثار الطين اللزج، وتفتت البقايا العالقة بأقدامه وتماهت في أديم الأرض، وغدا الجسد طائرا غصّا طريا، خفيف الثقل ريشًا تحمله نسائم الهواء السارية صعودا من الأرض إلى السماء وحين اقترب قالت النجمة:

- لا تبكيني يا رفيقة؛ فها هنا الراحة والنعيم الأبدي، وما دون ذلك جحيم مستعر وإن كان ظاهره الترف، كوني على يقين بأن الحياة هنا عندي لا عندك بأرض العابرين.

كل الآفلين مروا بأرضك دهرا، قيدتهم بعوالق طينة حشاها، وكستهم من ترابها، واستظلوا بشجرتها حين نشوة اعترتهم، لو أطالوا المكث في ظلها لدامت سعادتهم، بيد أنهم سرعان ما يختنقون وهما من الظل، فيهرعون منه إلى ما سواه فتتخطفهم كلاليب الشقوق وإن همت عليهم الغيمات كانوا في زلالها من الزاهدين، فتركوها ينهلها التراب فتحيله لجة هم فيها من الغارقين.

لاتحافي ولا تحزني إنكِ مردودة إلينا وستبزغين.

هنا لم يستطع الطائر أن ينطق، فقط ظل يرفرف بجناحيه ويغمغم بأشياء غير مفهومة المعنى ولا معلومة الحرف.

خبا النور للمرة الرابعة حتى تلاشى، وغابت النجمة في الزرقة التي أحييت رماداً! ونسيم الهواء هاته المرة يعيد الجسد إلى الجذع في هدوء وسكينة، يلفه بريشات بيضاء هي الوحيدة المتبقية منه بعد التحول.

وقفت هنا ولم تتذكر سوى رفيق عمرها، وحبيب روحها الذي طالما كان لها سنداً ودعماً، هو من كان يخلق لها من رحم الحزن سعادة، ومن رحم المحنة قوة تعينها على مواصلة الحياة، هو من علمها كيف تخلق من كبد الألم آمالاً عديدة وليس أملاً واحداً، وما زال هو كما تركته لم يتغير بل أصبح دعمه أكبر وأكبر، وحبّه أضعاف أضعاف ما مضى، وإصراره على نصرتها يزيد من قوتها كلما وهنا، ثم تمت:

- لا خبوت أبد الأبدین، ولا حُرمتك أنا وابنتي يا كل أنجمي بل كل سماءي.

أكسبها تذكر أدهم بعض الهدوء والدعة وبطمأنينة أكملت القراءة...

أحدّ الجسد بناظريه في كل شيء حوله، يعيد استكشافه من جديد، يتعرف عليه تعرف الزائر الذي حل بأرض غبراء لا صاحب فيها ولا دليل، طمأننة لطيفة سرت بكل خلجاته، ألف المكان، هدأ تنفسه وأرخت روحه حبال الخوف وتركتها تغط في سبات عميق، بيد أنه ما عاد في المصباح سوى ذبال الفتيل والانطفاء "قاب قوسين أو أدنى" من اللهب.

هنا شخص يبصره ناحية الشجرة لكنها لم تكن قد أثمرت بعد رغم سقيا السماء لها، كانت قد أورقت واكتست الأغصان ثوب الخضار النضر، غرق

الجسد في ظلمته هو لا يروم إلا زيتونة جديدة تعيد للفتيل الحياة، لكن من أين له الفوز بها؟

دأبت فكره حيرة وليدة، فانشغل بها يلاطفها وأمسك المصباح بكفيه ورفع أمام وجهه وكأنه يستجديه أن يصمد معه حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا، سقطت دمعة يتيمة من بين حواف الأهداب فالتقت بآخر ومضة في المصباح، شهقت الروح معها وانقطعت الأنفاس وأيقن بأنها النهاية، وألا فكاك ولا فرار من تلك العتمة السرمدية.

فإذا بالفتيل تعاوده الحياة، ويرتفع لسان اللهب عاليا، يمتلئ المصباح بقبس من نور مهيب يلقي بظلاله على الطبيعة فيلبسها حلة فاتنة تشع ضياء بازغا لا يعقبه انزواء ولا خفوت.

انتصب الجسد واقفا تظله غاشية من صمت متأمل، يزهو في أحضان الكون البهيّ، يلثمه قبلات السكينة النديّة على جبينه، ويهديه رياحين الحياة، فيعود إلى الشجرة فيجد فيها ظلال النجاة من قيظ الحرور.

هرم الزمن وشابت رأس أيامه، وحين اشتياق أصاب قلب السماء عاودت كرتّها فأعتمت من جديد وأرعدت رعدتها الأخيرة، لتكتب نهاية الحكاية، فبزغت النجمة الخامسة تتوسط عقد أخواتها الأربعة، تصيح بأعلى صوتها:

- ألا بعدا للفراق اللعين!

تمت...

مع كلمة تمت كانت هالة قد وهنت مجدداً بل وهربت روحها على أعتاب
الفقرة الأخيرة حيث خفت واندثرت النجمة الأخيرة.

انقبضت خفقات صدرها تستشعر الوحشة والوحدة، تحدث نفسها
متعجبة: كيف لهذه الكاتبة أن تكتب كتابات قاتلة هكذا، تغرز بسن قلمها
في قلب القارئ لتزهق روحه على مقصلة الختام والنطق بكلمة "تمت"؟

أمسكت بيد ابنتها تقبلها لتستمد منها بعض الطمأنينة التي جعلتها
تستطيع التنفس بشكل طبيعي، دقائق وهدأ روعها واستقر نبض قلبها،
فكان أول من خطر ببالها أن تهاتفه في هذا الوقت رغم تأخره هو أدهم.



الفصل الرابع عشر

وضاقت الروح ذرعا بأجسادها

حين يكون التردد ديدن الموقف، لا ندري من يلوك من؟ أهى الكلمات تلوك الأنفس في فم حروفها العرجاء؟ أم هي الأنفس المختنقة بالغصص فلا تقوى على رفع شفة عن الأخرى لتتكلم؟

ينتبه العقل لحركات الجسد غير المنطقية، حركات العين الزائغة تتلفت يمينه ويسرة، حركات اليد تهاوش الهواء، حمرة الوجه المتوهج، العرق المتصبب فوق الجبين، فيخاف ذلك اليقظ وقتئذ على جسده الملقى على قارعة الحيرة يترنح، وروحه الهائمة دون حركة في محيطها لكنها من الداخل تتمزق، فيتدخل هو كيما يسوس المشهد متخذاً قراراً حاسماً وفق رؤاه وحده متغاضياً عن مناوشات الروح وملاحظات النفس.

أمسكت بالهاتف، ثم ألقته مرة تلو المرة، مترددة تُقبل ثم تدبر إلى أن تغلبت على خجلها من الاتصال به في هذا الوقت المتأخر، تذكر زوجته فبماذا ستنتع من تتصل بزوجها في هذا الوقت المتأخر؟

يجيبها داخلها ربما تصمها بالساقطة!

يا إلهي ساقطة، لست هذه المرأة، ثم نفضت عن ذهنها فكرة الاتصال مؤجلة إياها لوقت آخر، وطفقت تجوب آخر محادثة بينهما من أولها إلى آخرها لعلها تهتدي لشيء تسد به رمق قلبها الجائع إلى حديثه، دقائق وظهرت أيقونة متصفح في برنامج الماسنجر مضاء بالأخضر، انتظرت أن يباردها هو بالاتصال أو حتى المحادثة كتابة فلم يبادر؛ إذ كان هو الآخر يقرأ آخر محادثة كانت بينهما قبيل النوم، اختلست بعض حبات الجرأة من أدراج الخوف وضغطت على زر الاتصال، فأجابها سريعا وبصوت متلهف قد ساقته نزغات الحنين المشبوب ببعض من أطيايف القلق:

- هالة، كيف حالك؟ هل أصاب إحداكن مكروه؟

تلعثمت؛ فلقد عاودتها نفسها اللوامة تؤنبها على إقدامها؛ فهي تعرف أن الوقت غير مناسب للاتصال، وهو لم يعتد منها الاتصال إلا للضرورة، فكيف تهاتفه في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

كرر عليها السؤال:

- ماذا بك؟ أجيبيني، هل أصاب إحداكن مكروه؟

للمت شتات نفسها المبعثرة، وشراف خجلها المدلاة من فستان الحياء
المطرز بالشوق الذي تتزين به روحها وأجابته:

- نحن جميعا بخير، لا تقلق، فقط شعرت بالضيق وأول من مر بخاطري
كي أتحدث معه هو أنت، آسفة على الإزعاج.

كان يستمع إليها وهو ينهض من فراشه متجها إلى غرفة المكتب كيما
يحادثها منه بأريحية وهو جالس على كرسيه المفضل الذي يشعره بالسكينة،
كلما كتب إليها في دفتره من عليه، وأجاب:

- الحمد لله أنكن بخير، لا تتأسفي، ليتك تعلمين كم يسعدني اتصالك!
تنسنت أريج السعادة من جملة الأخيرة، وأبت أن تزفرها ثانية، فساد
الصمت عبر الأثير، فأكمل:

- هالة، أنتِ معي؟ خشيت عليكن غاليتي، أنا معك وكلي آذان مصغية،
ما الذي أصابك بالضيق؟

- لا شيء، فقط قرأت قصة، انقبض على إثرها قلبي واختنقت مدامعي.
- قصة ماذا؟

- قصة الكاتبة التي سألتك عنها من قبل "راوية الراوي".

- نعم تذكرت، مؤكدا أنها قصة "وإذا السماء أنجمت"، قرأتها قبل
قليل.

- صحيح؟ أنت تتابعها مثلي؟

- وكيف لا أقرأ ما تقرأينه، ولا أتابع ما تتابعينه يا....؟

ثم قطع كلمته الأخيرة ولم يلفظها، لكنها قد استقرت في سويداء قلبها دون نطق، وأكمل:

- العجيب أنني شعرت على إثرها براحة وسكينة غير عادية، إذ أدركت كم هي هينة هذه الحياة!

لا شيء يستحق أن نبكيه في هذه الدنيا ونقف على قبره حتى ندفن معه بعد طول نواح، مهما يكن ما نكابده فيها، علينا أن نعطي للأرواح فسحة نلبي احتياجاتها البسيطة بعيدا عن متطلبات المادة المرهقة والتي لا تنتهي أبدا، حتى إذا ما أتى الرحيل نكون قد وفينا حق الجسد والروح.

- على الرغم من أنك أوجعتني من حيث أردت أن تهدد خاطري إلا أنني متعجبة من رؤيتك هذه.

- ولم تتعجبين يا هالة من رؤيتي؟

- أنت تعلي من قيمة الروح وحاجاتها السامية في حديثك الآن، بينما تسعى بكل جهدك لتلبية احتياجات الجسد للمادة، تسألني الموافقة على الزواج منك متجاهلا أرواحنا وأرواحهم، وكأنها كالعدم، أليس الأولى بنا صون الحب هذا في معاقل الروح كيما لا نؤذي غيرنا؟

- وهل قربنا برباط مقدس أصبح إشباعا للمادة؟

عجيب إسقاطك هذا، معلم فاشل أنا إذ لم أستطع أن أدرسك فلسفتي على الوجه الصحيح، لكن يا تلميذتي الغالية جانبك الصواب هذه المرة وللمرة الثانية أقولها لك، فعيها جيدا:

الشرع الذي يعلي من قيمة المادة والروح على حد السواء قد أعطانا الحق في الجمع بينهما، أنت من يقدم واحدة على الأخرى، بل يسفه من واحدة بغية تسويد الأخرى، لا أدري لم تحجري واسعا؟ صدقا لا أدري.

سكتت لدقائق كيما تستوعب مقالاته التي لم تكن تتوقعها منه، ظل ينادي عليها مرات ومرات:

- هالة، هالة، هالة...

حتى أجابته:

- نعم، أنا معك.

- أتمنى أن تكوني معي بحق، أخبريني ماذا بك؟ أستشعر أن هناك شيئا آخر هو الذي أهمك هكذا وليست القصة؟

- أبدا، لا شيء.

- أتحفين علي وأنا من أخبرك أكثر ما تحبرين نفسك؟

أعلم أن قضية رهف تشغل بالك، وتدميك كلما فكرت في شأن نسبها لخوفك أن تكون رهف بنت الأمير وبالتالي تكون ابنة غير...؟

قاطعته هي هاته المرة ترجوه ألا يكمل جملته:

- كفى، لا تنطقها، أنت تدبحني بكلمتك، لا أتحمل أن تحدثني بها نفسي، فكيف إذا ما أفصح بها أحد ويكون هذا الأحد أنت؟

- يا هالة، صدقيني اللفظ موجه لي ألف مرة، فكلما تذكرت ما مررت به لعنت نفسي فوق الألف ألفا؛ إذ لم أستطع أن أحميك من هذا الوغد وسيده، لكن أريد أن أهون عليك هذا الشعور القاتل، فالأمر لم يكن بيدك، أنت لم تذهبي إلى قصره طواعية، هناك فرق كبير بين من أخذت عنوة واغتصبت ومن خلعت عن نفسها رداء الستر، وفي وكر العهر رقصت على عرضها، حتى حملت بحشاها نبثا حراما، لا تميتي نفسك بعذابات تفكير ووساوس نفس ليست بمحلها.

انهارت إثر حديثه الجريء، وانفجر بركان الكلمات والدموع دون حساب لعواقب:

- كفاك، كفاك وجعا، أنت لا تشعر كم أهتني بحديثك! أنت تزيد من عمق جراحي لا تطبها.

- آسف يا حبيبتى، آسف.

- وهل يجدي الأسف في حال كحالي؟ مهما يكون فالنتيجة معلومة، روح لا ذنب لها، طفلة بريئة ربما لو علمت حقيقتها لعنتني ولعنت نفسها

ألف مرة، ولا لوم عليها إن أزهقت روحها بيدها في ظل مجتمع لا يرحم الضعيف، ولا ينصر المظلوم.

- ومن سيخبرها من الأساس؟ البنت صغيرة وما زال أماننا متسع من الوقت حتى نعلم من أبوها الحقيقي؟ وهي الآن منتسبة للسمسار وكما أخبرتك هذا ما يهمننا الآن.

- وماذا لو لم يكن أبها الحقيقي وكان الأمير هو الأب الحقيقي؟ أنت بالأساس لم تجد من يتعاطف مع القضية ويحمل على عاتقه هم البحث عن الجناة وتقديمهم للمحاكمة، أنستطيع أن نثبت نسبها له لو كان هو؟

- لو كنت فقط تملكين أثرا من أحدهما لتمكنا من عمل تحليل الحامض النووي ودحضنا كل هذه الاحتمالات وعرفنا من الأب الحقيقي؟ وحينها ستكون أدلتنا قوية أمام أي محكمة محلية أو حتى دولية.

- صدقت كان يجب علي أن أحتفظ منها بأثر.

قالتها بتهكم بالغ وهي تزم شفيتها وتضرب بقبضة يدها على فخذها منفعة ثم، أكملت:

أنا احتفظت بها هو أكثر من مجرد أثر، احتفظت يا عزيزي بالقهر والوجع والغربة والنفي خارج حدود الحياة، احتفظت بالعار يلطخ جبينى ما حييت، أحتفظ بماذا؟ من فرط الاشتياق كان يجب أن أحتفظ مثلاً، ألا تحجل وأنت تقول لي هذه الفرضية يا سيادة المحامي المبجل؟

- آسف هالة، لم أقصد إزعاجك، هذا هو الدليل الذي يمكننا به الوصول للحقيقة، ولم تكن نيتي استثارة غضبك، لكنه الواقع المرير، لا بد من أي أثر للرجل حتى نتمكن من إجراء التحاليل، وكان الطريق إلى الأب سيأخذ منحى مغايراً أسهل مما نحن فيه الآن، نحن بحاجة إلى معجزة لنعرف أيهما الأب؟

- فوضت أمري وأمر ابنتي لله، هو حسبي وحسبها.

- لن يخذلنا بمشيئته، ظني به خيراً. هالة، طرأت على ذهني فكرة الآن.

- ما هي؟

- ما رأيك أن تتواصلي مع الأستاذة راوية لربما تساعدنا في نشر القضية وطرحها على صفحات التواصل الاجتماعي، فضلاً عن أنها قد تأخذها الحمية والانتصار لبنات جلدتها وما يتعرضن له من انتهاكات وتصعد القضية في الإعلام المقروء والمسموع، وحين يجد المسؤولون أن القضية قد ذاع صيتها لربما نعثر على من يساعدنا في الوصول إلى الأمير أو السمسار؟

- وأقتضح أنا وابنتي على الملأ، ونصبح لقمة سائغة في فم الجميع، هذا يكذب، وذاك يصدق، وثالث يسب ورابع يثر نكاته وسخافاتة علينا.

- لا لن تظهرني ولن يعرف الناس اسمك، اطلبي منها أن تنشر القصة بدون ذكر أسماء، لن نخسر شيئاً، حاولي أن تتواصلي معها وأنا سأحاول عن

طريق بعض العلاقات أن أتواصل مع أحد من المسؤولين بشكل مباشر بدلا من تلك المنظمات التي تسمي نفسها حقوقية وفي الحقيقة هم أجبن ما يكون للنضال من أجل استرداد الحقوق، هم فقط واجهة لفاترينات الديمقراطية المزيفة في بلادنا.

- حسنا، في الصباح أرسلها.

- وأنا بانتظار النتائج.

- تصبحين على خير.

- وأنت من أهل الخير.

أنهت مكالمتها والتي استشعرت معه فيها بكل صنوف المشاعر من وجد ونزق وجنون ورضا.

ثم أغلقت الهاتف وهي في غمرة من الشرود، وَجِلَّة من القادم؛ لا تدري هل ستفلح خطوتها وهل ستوافق الكاتبة على التعاون مع قضيتها أم لا؟
لم تستشعر حالها إلا وهي تتحسس الهاتف الذي كان في يدها ليلة أمس، فلقد داهمتها كتائب النوم فأسرتها دون مقاومة منها.

وكعادة الصباح عند الأستاذة راوية تكتب منشورا صباحيا مبهجاً للأرواح الحزينة، مطبياً للأنفاس العلية، استغلت هالة فرصة تواجدتها في هذا التوقيت ورسلتها:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أستاذة راوية، أنا إحدى قارئتك الشغوفات جدا بما تكتبين، أقرأ لك منذ بدايات كتابات حضرتك، لكن انقطعت لسبع سنوات عن كل ما يخص عالم الكتب.

انتظرت هالة منها إجابة، مضى الصباح وحلَّ الليل موصولاً به، واليوم الذي يليه بأكمله ولم تجب، أصابها الغبن وشعرت بأنها ما كان يجب عليها أن تراسلها من البداية.

اتصلت بأدهم وهي في حالة متوترة تلومه وتعتب عليه وتخبره ندمها على أنها امتثلت لاقتراحه، وهو يطيب خاطرها ويقدم لها العلل في عدم رد الكاتبة لربما مشغولة ولم تقرأ رسالتها بعد، أمثالها تأتيهم آلاف الرسائل فكيف يُجِبْنَ عليها كلها؟ ويعلمها أنها لم تخسر شيئاً فهي لم تحكِ لها شيئاً إلى الآن، وأنه سيسعى في مساعيه كما هو.

وبنفس اللحظة جاءها صوت الرسائل يخبرها بقدوم رسالة جديدة، نظرت إلى الشاشة فإذا بها من الكاتبة، أخبرته بأنها ترد على رسائلها، فتركها تكمل حوارها معها على أن تخبره بالنتائج.

فتحت المحادثة فإذا بها قد كتبت:

- وعليكم السلام والرحمة والإكرام

أهلاً ومرحباً بك عزيزتي، فلقارئات البدايات منزلة خاصة في قلبي.

عساه انقطاع خير بإذن الله، وعوداً حميداً يا رب العالمين.

- أعزك الله أستاذة، في الحقيقة لم يكن انقطاع خير وهو ما أود الحديث مع حضرتك بشأنه.

- تفضلي أنا معك، أسمعك.

- القصة تبدأ بتزويج أبي لي رغما عني منذ ثماني سنوات، كنت قد أتممت السابعة عشر وقتذاك، تحت تأثير وإلحاح من عمي تم تزويجي لثري خليجي قد صادف وتعرف عليه إذ كان سائقه الخاص في بلدنا، وحين ...

كانت الجمل تأخذ وقتا طويلا في الكتابة، وهالة لا تستطيع أن تكتب كل التفاصيل، فاستأذنتها في الاتصال بها هاتفيا قائلة:

- أيمكنني الاتصال هاتفيا كيما أطلعك على كل التفاصيل؟

- بالتأكيد، يبدو فعلا أن القصة طويلة ومن الأفضل الحديث صوتا بدلا من الكتابة اقتصادا للوقت الذي يضيع فيها.

- حسنا، سأتصل بحضرتك.

- تفضلي.

تحدثنا هاتفيا وحكت لها هالة الحكاية بأكملها، فما كان من راوية إلا أنها تأثرت جدا بها، ورغم ذلك كانت تخشى أن تكون قصة ملفقة، فطلبت منها ما يثبت صحة كلامها.

صورت لها عقد الزواج العرفي؛ فهو كل ما تملكه من إسناد مادي، بينما دلائل الروح جهة، ثارت وغضبت لأجل تلك المسكينة التي راحت ضحية

الفقر وجشع الأب وجهالته، وكذا شهوانية السلطان وزبانيته، والآن تغلق في وجهها الأبواب بحجة الدبلوماسية والمصالح العليا قائلة:

- هالة، لابد من طرح قضيتك على الرأي العام، وفضح كل هؤلاء وإزالة الأقنعة عن وجوههم القبيحة.

- نعم، هذا ما أود فعله ولكن دون ذكر اسمي أو اسم ابنتي، ريثما يتطوع أحد لمساعدتنا فعليا، فكما أخبرتك أن ابن خالتي أدهم هو المحامي المتولي أمر القضية، وقد حاول طرق باب أكثر من منظمة حقوقية ولكنهن رفضن التعاون معنا، لكنه ما زال يحاول الوصول إلى أحد المسؤولين بمقدوره المساعدة في الوصول إلى أحدهما السمسار أو الأمير، لكن كل ما يهمني هو إثبات نسب ابنتي.

- بل الوصول لكليهما يا هالة؛ فكلاهما مجرم يستحق العقاب.

- صدقت، ولكن...

- ليس هناك لكن، سأنشر القصة في عدد المجلة القادم وسأعنون لها بمعانة من رحم الواقع، وكذلك سأنشرها على متصفحي ولنتنظر ردود أفعال القراء حولها، لا ندرى لربما يأتيانا من المساعدات ما لم نتوقعه.

- سأنتظرها.

- إذن إلى لقاء.

- إلى لقاء.

أنهت هالة معها المحادثة، واتصلت بأدهم لتخبره بها دار بينهما، استبشر بالخبر خيراً، وتراءى له طيف الحق من بعيد؛ إذ إنه هو الآخر كان على موعد بعد انتهاء إحدى مرافعاته مع أحد القضاة الذين يعرفون قيمة العدل معنى وسلوكاً وحكماً، وليس كالذين لا يعرفون عنه سوى حروفه الذهبية المزينة بها الجدران خلف منصة الحكم "العدل أساس الملك".

مهنة المحاماة جعلته يتمتع بعلاقات كثيرة ومتعددة مع أشخاص منهم الصالح ومنهم الطالح، حاول أن يتقصى من علاقاته بعضاً ممن يتوسم فيهم الخير والصلاح، فكان من ضمن هؤلاء قاض نزيه قد تصادقا في الفترة الأخيرة بطريقة فيها من الود ما يشجع أدهم أن يحكي له قصة هالة لربما يساعدها.

قصص عليه الحكاية والذي تعاطف معها بدوره، ووعدته بإيصاله بأحد الساسة الذي اشتهر عنه أنه من ذوي الأيادي الطولى في الدفاع عن حقوق المظلومين، واعدًا أدهم بترتيب لقاء عما قريب مع هذا السياسي، فمثل هذه القضايا مسارها لا يجري عبر المحاكم ولن يقبل بالخوض فيها أي أحد.

صاغت "راوية" الحكاية بأسلوب أدبي بليغ أخذ بناصية ذوات قرائها، فلقد استطاعت سرد المعاناة بشكل مثير للدهشة، هالة ذاتها صاحبة المعاناة تأثرت بالمشهد وكأنها تعيشه لأول مرة، رغم تجربتها كثرة مرارة التجربة خلال كل تلك السنوات السالفة وما زالت غارقة في لجج عتمتها حتى الآن.

كانت المفاجأة على شبكات التواصل الاجتماعي مدوية حيث أظهر مستخدموها تعاطفاً إنسانياً بالغاً مع الضحية من كل الأطياف الفكرية،

والجغرافية الجنسية، حتى ولو تخلل هذا التعاطف قلة متحيزة لمملكة
الأسودين تنفي عنها أي تهمة أو حتى تعتبر أن لها يدا في هذه الجريمة، رغم
أن الإشارة إلى بعض أمرائها ومواطنيها بالعريضة والانحطاط باتت مدعمة
بتسريبات وحكايا لوقائع مشابهة، ورغم هذا التباين فإنه لم يقلل من قيمة
الصورة الإنسانية التي ظهرت جلية بين عموم المستخدمين.

أما التناول الإعلامي فإن كان مغايرا للوضع على صفحات التواصل
الاجتماعي؛ فوسائل الإعلام حسابات أخرى لا تلقي لها جماهير التواصل
في غالبيتها التلقائية بالا ولا أهمية، أثار عرض القضية جدلا أكثر اتساعا في
البرامج الحوارية على شاشات التلفاز، وأضحى التراشق بين المذيعين على
أشده في كل أمسية، وسمعة البلدين بين فكي رحى الحرب الدائرة. فهذه قناة
وطنية تدافع عن كرامة مواطنيها المداسة بالأقدام في بلاط السلطة، وتنعت
العروبة المتشدد بها صباح مساء بأقذع الألفاظ إذ لم تصن المملكة عرض
شقيقتها فيها.

وتلك قناة خليجية تسب الأسرة البائعة وتوصمها بالديانة إذ إنها هي
من باعت عرضها منذ البداية مقابل حفنة من مال تسد به رمق الفقر الناصر
أجسادهم، متسائلة أليس من الأولى بقادتهم ومسؤوليهم إطعام شعوبهم من
جوع وتأمينهم من حاجة تدفعهم إلى بيع لحومهم لكل مار بدلا من تكريث
أموالهم من أجل إطلاق ألسنة ناعقيهم للنيل من العروبة الشوهاء على حد
زعمهم؟

فيظل هذا القصف الإعلامي المتبادل والفورة العرقية التي تأججت بعده، بينما كان الأمير في وادٍ آخر غير الوادي، لم يرد معاونوه شغله بمثل هذه السفاسف فهم قادرون على لجم النباح بالطرق التي يرونها مناسبة، وتفرغه هو لاستعادة هيئته من جديد؛ إذ إن انشغاله بإخماد ألسنة اللهب المتصاعدة من قبل رعاياه كانت على رأس المهام والأولويات، بل كانت هي كل المهام والأولويات، وبالفعل نجحت محاولات إعادة الخنوع إلى نصابه من جديد، فلا مانع من إنفاق ما كان يُنفق على الجوّاري والمتاع على بعض الرعاع في إطار مرسوم ملكي بعطايا باذخة لا قبل لهم بها، وهذا خبر بالفونت العريض وعلى صدر الصفحة الأولى بتوفير فرص عمل بأجور مجزية لمن يشتكون البطالة.

وفي التلفاز حفلات الرقص والغناء طوال اليوم والليل على الإنجازات التي لا تعد ولا تحصى، والتاريخ المشرف لكل حكام المملكة منذ نشأتها وحتى الآن، والصور تضج بها الشوارع بدءًا من واجهات المحلات وإعلانات الطرق والفنادق والأسواق الضخمة والمستشفيات والمدارس، حتى واجهات البيوت لم تنجُ من المشاركة في هذا الضجيج البصري وكلها تحت شعار "يحيا الملك حامي حمى الوطن".

وكذلك بعض القمع المستخدم مع من لا يساقون في القطيع ولا يغريهم المال ولا تخدرهم الوعود، ولا تبهر أعينهم اللافتات، فهؤلاء وفقا للفتوى الموقرة خارجون عن الطاعة وعقابهم واجب شرعي على ولي الأمر، وإن لم يفعل فهو شريك في الجرم؛ لذلك وجب عليه الحزم ثم الحزم ثم الحزم.

لم تستمر الضجة الإعلامية التي غزت شاشات القنوات الوطنية كثيراً؛ إذ إنها خرسست بعد وقت ليس بالطويل، والأدهى في الأمر، وإن شئت قلت بل من المضحكات المبكيات التي انتهجها البوق الإعلامي ساعَتَدَ هو التحول الجذري، فيتناول القضية مجهولة الضحية الحقيقية بالأساس، فلم يعرفوا لها اسماً ولا عنواناً غير أن هذه المعلومات تعد من الشكليات التي لا أهمية لها، فما دور فريق الإعداد إذن؟ وما هو دور معدي البرنامج المذاع إذ لم يتغلب على هذه التفاهات؟

وحتى هذا لم يكن بحاجة إلى بذل جهد ولو يسير في التفكير، فهناك السلطة القادرة على تسيير البرنامج ومذيع هو معدّه ومخرجه وفق ما تريد إذاعته، ولم لا؟ أليست هي ربة كل شيء؟

استطاعوا وبسهولة معتادة استنساخ هالات عديدة مزيفة من هالة الحقيقية وابتتها عبر محادثات تليفونية طوال البث المباشر للمشاهدين تنفي قصتها المتداولة سابقاً، فهذه نسخة تسب الكاتبة راوية وتقول هذه أحداث لا أساس لها من الواقع، وأنها محض فكرة أدبية لكاتبة كل أحرفها من وحي الخيال، ولا علاقة لها بمشاكل الناس وحياتهم، فتكذبها علناً على الهواء، في حين أنها ليست بهالة ولم تلتق يوماً بالكاتبة محل السب والتشويه، بل لم تقرأ لها حرفاً.

وهالة ثانية يستدعونها في أحد البرامج تتحدث عن إنسانية الأمير ومواقفه النبيلة حيالها حيث اعترضت طريق موكبه أثناء مروره تستجدي عطفه وكرمه، بعدما تركها زوجها النذل في طرقات المملكة بلا مأوى، فأمر

لها الأمير وأجزل لها من الكرم وبدلا من أن ترد جميله، تعترف بأنها نادمة حيث دفعته رغبته في العودة إلى بلدها أن استغلت تلك الأحداث الناشئة بالمملكة وادعت على الأمير بما ليس فيه وشوّهته ورجاله العاملين على خدمة المحتاجين بأمر منه شخصا، فتبكي وتبكي حتى يخضل حجابها المنسدل أحد طرفيه على صدرها معذرة عما كُتب عنها من قصة ملفقة لا سند لها من الصحة.

وهالة ثالثة مع مذيع آخر تخبر بأن القصص المتداولة في وسائل الإعلام قصص مغلوطة، وأنها ما زالت بالمملكة ومتزوجة برجل خليجي من خيرة الرجال، وهما هي تتقلب في رياض نعيمه الذي لا حد له ليل نهار، وأنها قد تزوجت بهذا الثري الذي شغفته حبا وأذهلته فكرا عبر وسائل التواصل الاجتماعي حيث تعارفا عن طريق تلك المساة بالمنتديات الثقافية، فقطع الصحارى والبحار آتيا إليها ليتزوجها على سنة الله ورسوله، وفي دلال زائد عن الحد تخبر بأنه ياليت حظ بني جلدتها كلهن كحظها، لتكتمل كل مناحي التواصل والعلاقات الحميمة بين البلدين فلا تقتصر فقط على السياسة والاقتصاد والعلاقات الدبلوماسية بل وتتوجها العلاقات الاجتماعية بالتزواج بين البلدين الشقيقين.

ظهرت هالة رابعة وخامسة وسادسة وكلهن يدعين أنهن الهالة الحقيقية، بينما هي منزوية بركن قصي في بيتها تشاهدن كلهن وقلبها يعتصر ألما مما تسمعه، تكاد أن تفقد صوابها فتنهال على التلفاز تهشما، لكن "راوية" كان لها دور بالغ في تهدئتها، وصب الصبر والجلد عليها صبا.

الفصل الخامس عشر

هدايا القدر

وقد يهديننا القدر في لحظات اليأس والقنوط أناسا يكونون لنا السماء التي تظللنا، والأرض التي تقلنا، والمطر الذي يغسل أدران خريف أرواحنا، والشمس التي تطهر بذهبها النصوص جروح قلوبنا، والقمر الذي نسامره إذا ما استبد بنا أوار الوجد لمن نحب ولا نملك من أمر حبهـم إفصاحا يريح قلوبهم التائهة ويهدئ من لواعج الشوق التي نكابدها في حضورهم قبل غيابهم.

كانت راوية هي تلك الهدية والتي لحكمة غير معلومة تقترب من هالة كل يوم أكثر من ذي قبل، تبذل قصارى جهدها في مساعدتها، لكن خوف هالة الذي طغى عليها بعد ما شاهدته على شاشات التلفاز من تلفيق وتشويه للقضية مربكا لراوية بعض الشيء؛ تخاف أن تتخلى هالة في أي لحظة عن قضيتها وتؤثر الصمت في جحر الخوف، خاصة وأنها دخلت بشخصها في

دائرة الدفاع عن وهم كما وصمها بعض المذيعين ناصحين إياها ترك الكتابة لفترة تستعيد فيها القدرة على التمييز بين الحقيقة والخيال.

لم تكن شخصية راوية هشة إلى الحد الذي يجعلها تخاف من تلك الأقاويل خاصة وقد أثقلتها الحياة بمزيد من الخبرات وفي ظل وجود داعمها الغائب الحاضر "حامد" الطبيب النفسي الناجح في عمله والزوج المثالي في حياته وابن الخالة الرفيق منذ الصغر، ودائما ما يقف إلى جوارها في معاركها الأدبية منتصبا يشدد من أزرها ويقوي ساعدها ضد خصومها، وحين طرقت باب الدفاع عن حقوق المظلومين والمسلوبة حقوقهم من خلال كتاباتها الصحفية كانت مقالته لها:

(ألا تخافي من أحد ما دمتِ تدافعين عن حق مغتصب، ولم تقترفي كذبا فيما أوردته عن هذا الحق، فإنه لن يضيع حق وراءه مناضل، فلتتخذي من موقعك الأدبي والصحفي منبرا للنصرة من لا نصير له، وصوتا لمن لا صوت له، وقوة لمن هان على الناس وذل).

هاتفتها هالة ذات يوم تعتذر عما سبته لها من إزعاج وإهانات لا تستحقها كلما قرأت ما يكتبه مستخدمو وسائل التواصل على صفحتها أو سمعت ما يقوله الجهال والمأجورون قائلة بعد تبادل السلام والتحية:

- لا أجد ما أعتذر به عما طالك بسببي، أشعر بالخزي كلما سبك أحدهم أو افترى عليك.

- ولم تقولين بسببي، يا هالة؟ هذا هو المعهود مع من يطالبون بحقوق المظلومين، يا عزيزتي، هذا ديدن أصحاب المصالح وهذا البوق الذي يتغوط علينا قذاراته ليل نهار لا يعمل إلا لدى أولياء نعمتهم، فلا تحزني إن الله معنا.
- صدقت، إن الله معنا وكفى به نصيراً.

- ولكن يا هالة، لا بد وأن نتحرك نحن ولا نقف مكتوفي الأيدي خائفين هكذا، لا بد من مواجهة كل الأباطيل المتناثرة ليل نهار حول طبيعة القضية ومدى واقعيتها.

لا بد وأن نتحرك نحن للوصول إلى هذا السمسار وكشف جرائمه ومن ثم يمكن إدانة الأمير وفضحه على الملأ، حينها ستقوم الدنيا ولن تقعد ولا يستطيع حينها أي أحد من هؤلاء الأقزام المتطاولين علينا الآن أن يكذب.
- لكن أخاف أن يمس ابنتي سوء.

- قلت لك لا تخافي، في ثنايا كلامك وأنت تقصين علي الحكاية، قلت إنك تستنتجين من خلال الترحاب المتبادل بين السمسار والطبيب الذي أجرى لك عملية الترقيع وجود علاقة حميمة وصلات قوية تربطهما ببعض.
- أنا أكاد أكون متيقنة من ذلك، نظراتهما المتبادلة، طريقة حوارهما؛ فعلى ما يبدو أن زبائن الطبيب الواردة من السمسار كثيرة.

- حسناً، هل تذكرين اسم الطبيب أو المشفى أو حتى شكلها من الخارج؟ وهل كتب عليه من الخارج مشفى أم مستوصف؟

- اسم الطبيب أذكره جيدا، فهو يذكرني باسم أبي الذي لم يحسن إلي يوما، كانوا ينادونه "دكتور محسن".

اسم المشفى لم أنتبه إليه؛ كان بالإنجليزية حين أضاءت به اللافتة ولم أكن لأركز فيه، فشكل المبنى وتصميمه وضخامته هو ما جذبني، شيء مغاير تماما لما عندنا هنا، هناك تظنين أنك ستدخلين قصرا وليس مستشفى، حتى زواره يبدو أنهم من أصحاب الترف.

- حسنا جدا، سأرسل لك صورا للمستشفيات الكبيرة في نفس الفترة الزمنية منذ ثماني سنوات لعلك تتعرفين عليها.

- وما فائدة ذلك؟ أتظنين أن إدارة المشفى متورطة مع السمسار أم أن الطبيب هو من يعمل لصالحه كما يعمل هو لصالح الأمير؟
- لا ندرى من المتورط بالضبط؟ ولكن دعينا نحاول.

أنهت الحوار عند هذا الحد، لم تنتظر هالة ما سترسله لها من صور بل اتصلت بأدهم لتخبره بما دار بينها وبين راوية، وحين لم يجب راحت هي تبحث عن صور كبرى المستشفيات في المملكة وقتما دخلتها، اقتصرت في بحثها على مستشفيات العاصمة حيث كانت تسكنها، وهي تقلب في الصور التي يعرضها عليها محرك البحث جاءها اتصال أدهم مستبشرا بخبرها بأنه استطاع أن يصل إلى مسئول سياسي رفيع المستوى، تعرّف عليه عن طريق أحد أصدقائه ولحسن الحظ قد تنامى إلى علمه الضجة الإعلامية، وهو على

استعداد تام لمساعدتها ولكن شرطه الوحيد أن يلتقي بها ويسمع منها القصة وجها لوجه حتى يرد عما يروجه الإعلام بأن القضية مفبركة وما هي إلا من وحي خيال كاتبة.

وكالعادة زجرت هي من فكرة الظهور وأن تلتقي بأحد، فعاتبها هو الآخر بأنه لا بد من الظهور والمواجهة وأنه لن يتركها تقابله وحدها، سيكون معها وإلى جوارها يشدد من أزرها ويدعمها مرددا على مسامعها:

- سنمضي معا ولا فراق مجددا، حق رهف سنأتي به معا يا هالة، يدي على يدك تقويك، وذراعي على كتفيك تطمئنك وتحميك.

قصت عليه ما دار بينها وبين راوية، فشجعها على ذلك قائلا:

- إن هذا خيط قوي لا بد من التمسك به وبإمكانه أن يوصلنا إلى كثير مما نبحث عنه، وفي نفس الوقت سنمضي في الطريق الثاني مع المسؤل.

وأهى كلامه بأنه لا مجال للجدال، وأنه تم تحديد موعد مع هذا المسؤل ليلتقيا به معا، لم تستطع أن ترد قراره ودعمه إلا بالموافقة.

راود هالة الحنين إلى دفترها من جديد، كانت بحاجة إلى الهروب ولو لدقائق من هذا الاختناق الحياتي المطبق على نفسها؛ فالأزمة قائمة وإن لاحت بوادر أمل في الانفراج المرتجى.

أوت إليه ليلا حين يأوي الناس إلى فرشهم، احتضنته بكل ما فيها من مأس عصية النسيان، وأشواق أبيّة الانزواء، بل تتأجج بداخلها يوما بعد

يوم، تشعر بأنها تحتاج إلى صدره يطويها بين أضلعه ليحميها من أيادي الجور التي تحاول الإمساك بها، تحتاج إلى مسحة من يده على رأسها وكأنها طفلته فتهدأ ويسكن كل الفزع الصارخ داخلها، كانت تحتاج إلى قربه المحرم عليها، ولكن لا يسعها في ذلك إلا البوح بعدما أعجزها الاشتياق وفتت في كبدها الحنين.

فتحت الدفتر وراحت تكتب من جديد بعدما ظنت أن الكلام انتهى عند آخر رسالة، ولكن أنى لكلام المحبين أن ينضب؟ فكتبت إليه:

- ها أنا عدت من جديد لأخط لك، ليتني أمتلك منك ما هو أكثر من بعض دفقات أبثها سطوري خفية عنك، ولكن هذا عهدي بالحياة دوماً؛ فهي التي قد تخلف وعودها مع كل البشر سواي، لم تخلفه يوماً وما أظنها ستخلفه غداً ولا بعد غد ولا حتى لآخر العمر؛ فلقد اعتادت معي الوفاء بعهودها وأنى للوفي أن يخون؟

أيا شطر روحي، هل ران الصمت على الأرواح أم ران عليها ليل العتاب منكسراً من بعد العذاب؟

أيا كل حرفي، يقولون أنّ بكل روح تنثر فوق السطور حروفاً إصابة من مس، والآن، وأنا أكتب إليك أيقنت أنني ممسوسة بك.

تختنق صمات أحرفي من إحكام قبضتك عليها، فلا عذب البوح يمد المنع، والجذب قد شقق أرض المصعب.

ارحل حيث موطنك الأول، ولتتعجل في ملمة أشيائك من ثنایا القلب،
وذاك السیاج المحيط بالروح بغلالات الحب، فلتهدمه على درج العتب -
الذي طالما تحدثنا علیه - دون لوم.

افترقنا من قبل وسنفترق من جدید ولا ریب، ستعود إلى سماء دنیاك
حرّاً طليقاً، وأعود بروحي راهبة الهوى في محراب البعد، أقتات على فتات
الذكریات المهوشة حتى يزورني الموت.

أيا كل كلي، أزحق كلي وتبعثرت فيك سواكن نبضي وما عاد يصلحها
لما، وها أنا أعترف إليك بعد طول جهاد بأني في اشتياقي إياك تعبت.

لم تستطع أن تكمل، فقد ارتعش القلم بين يديها، راود الدمع جفניה
وبات على الرموش ينتظر طرفة واحدة لينسكب، أسرع تغلق الدفتر
خشية أن يحرق بشظى عينيها، دسته تحت الوسادة واحتضنت ابنتها تنتظر
النوم يزورها فتنشغل معه وتنسى وترتاح مما ألم بها من حال.

في تلك الأثناء جاءها صوت الرسائل يعقب بعضها بعضاً، فإذا بها كلها
من "راوية" وكلها صور عن المستشفيات كما سبق واتفقتا، كانت قد غمرتها
العواطف الشجية ونسيت أمر الصور التي قد بدأت هي الأخرى بالفعل
في البحث عنها، طالعت جميع الصور وبسهولة تعرفت على المستشفى
المروم وأخبرت راوية بها، ومن هنا جاء دور الخطوة التالية والتي ستقع
على عاتق "حامد" الذي أبدى رغبة جدية وصادقة لراوية - بعدما أخبرته
بقضية هالة - في المساعدة عن طريق علاقاته بالكثير من الأطباء الزملاء

العاملين في المملكة، وبالفعل استطاع أحدهم حصر أطباء النساء والولادة العاملين في المشفى في ذلك الوقت والحصول على صورهم الشخصية والتي ما إن طالعتها هالة حتى تبدى لها المشهد من جديد كأنه يحدث أمامها بنفس التفاصيل المؤلمة للبدن والروح.

هدأت راوية من روعها محاولة تطيب خاطرها وأخبرتها بأنها تسير على الطريق الصحيح، وأن الصعاب ستذلل لها وستحصل على حقها منهم في القريب العاجل.

في الموعد المحدد مع المسئول الذي ينادونه " مروان بك " والذي بدا من هيئته وحراسه وكذا استقبال طاقم العاملين بالفندق (المكان المتفق على أن يتقابل فيه مع هالة وأدهم) رفعة المكانة التي يتقلدها في أركان الدولة، وأنه ممن يقال عنهم تقوم له الدنيا ما إن أتى ولا تقعد.

كانت هالة متوجسة من اللقاء، خائفة من مدى صدقه في المساعدة رغم طمأننة أدهم المتكررة لها، تم اللقاء بالوقت المحدد، تبادلوا الترحاب، وانطلقت عبارات الشكر من أدهم لمنحها هذه الفرصة العظيمة، تلطف مروان بك في عباراته متوددا، وأبدى رغبته الشديدة في المساعدة للوصول إلى السمسار ومولاه، منفعلا متأذيا لما طال مواطنة عفيفة من بني جلدته من كل هذا الأذى، بعدما حكى له القصة بالتفصيل وأطلعته على وثيقة الزواج العرفي التي معها، كما أخبرته بشكوكها التي تصل حد اليقين بأن الاسم المدون ليس الاسم الحقيقي له.

فأخبرها أن لهم طرقهم الخاصة للوصول إلى أمثاله، خيم الصمت على ثلاثتهم إلا من نظراته المتفحصة لها من آن لآخر تخترقها حتى كادت أن تعريها من كل خيط يسترها وتلتهمها بأجفانه المتسعة عن آخرها، استشعرتها هالة جدا، فبدأت ارتعاشات خفيفة خفية تسري في كامل جسدها، ضمت حقيبة يدها إلى صدرها كيما تداري اضطرابه صعودا وهبوطا، حاولت غض الطرف عنه وعن عينيه اللتين تجولان ببصرهما في المكان من حولها، تحدث نفسها حديث متعقل بأنه لا يعقل أن يكون ما استشعرته صحيحا، فراحت تكذب حدسها، لربما ما مر بها هو ما أوجد عندها حالة نفسية من الخوف الشديد من الرجال على وجه العموم، وأضحت تفسر كل صغيرة وكبيرة من تصرفاتهم على نهج ما فعل بها من قبل من نهش لروحها الحية قبل جسدها الغض.

تماسكت ورسمت على محياها ابتسام الامتنان والشكر ريثما انتهى اللقاء الثلاثي على وعد باتصال منه ليبلغهما بآخر تطورات الوضع وما يمكنه أن يفعل في سبيل تعقب السمسار والإمساك به، وكذا بذل قصارى جهده في الوصول إلى البلاط الأميري.

مرت الأيام وكل يسعى من جانبه، راوية وحامد يبحثان عن الدكتور محسن، وأدهم الذي أصبح جل وقته لهالة وقضيتها، يتحسس أي وقت يفرغ فيه من أعماله حتى يكون معها إما على الهاتف أو عندهم بالمنزل، ابتعد كثيرا عن زوجته "إيمان"؛ فلم يعد يبالي بها قربا، كل ما يملكه من حس يصدق باسم

العائدة وحسب، كل أروقة عقله ترفض أن يسير فيها أحد غير هالة وكل ما يتعلق بها، وهي الأخرى لم تكن تتوانى لحظة طيلة ما مضى عن إعادته إليها، تدخل بعزم صبرها معركة غائب فيها عدوها عن عينيها، حاضر بكليته في نفس زوجها العاشق، فإن كانت المعركة شديدة عليها قبل عودة هالة، فتكبو ثم تنهض ثم تصر على المواصله، فقد أصبحت بعدها أشد وأثقل وأخوف ولا بد لها من نفس جسورة لا تعرف الهزيمة، بيد أنه أين هاته النفس وأين مواردها كيما ترد؟!!

فكرت مرارا في الذهاب إلى هالة تطالبها بالابتعاد عن زوجها، لكن ثمة خوف من ردة فعله إذا علم بفعلتها يجعلها تتراجع خشية أن تخسره للأبد. حتى طلب منها بنفسه أن تأتي معه وحياء لزيارة بيت هالة.

كانت الفرصة مواتية لها كيما تراها عن قرب لربما تستطيع فعل أي شيء تبعد به هالة عنه، لكنها لم تقو على القبول مطلقا، ترفض وتختلق الحجج حتى لا تذهب معه لزيارتها، تخشى الحضور الباهت، تخشى الحب المتقد في بريق العيون، تخشى الوهن في حضرة العذاب، تخشى القتل العمد الذي سيصيب كبد كبريائها الملتاع، تخشى مواجهة الموت في ساحة الحياة.

اتخذت من التجاهل عما يحويه قلبه لهالة قناعا ترتديه كلما قدم إلى البيت وجمعهما لقاء عابر، رغما عن قلبه وإذعاناً لكل محاولاتها في جذبها إليها، كان يقترب على مضض، ولكن ما زالت عيناه لا ترى إلا صورة هالة كما هي مخيمة

على وجه إيمان، بيد أنها سرعان ما تتكلم إلا وتطمس الصورة وتتلاشى المعالم وتتجلى حقيقة الحضور فيبتعد، يهرع إلى مكتبته يداوي جرحه بالكتابة.

كان يعلم جيداً كم هو جائر عليها، غابن لها، يبخس حقها فيه كزوجة من المفترض أنها أحق الناس به!

لكنه أمر القلب الذي طغى وتجبر، حكم بغير حق يفرضه ما بينهما من رباط، وهو كالأسير لا يملك إلا الاستسلام له وتنفيذ أوامره، أما هي فتارة تلملم أذيال خيبتها وتعود منه إلى جدرانها الأربع خاوية الوفاض، وتارة أخرى تسعد بنزرها اهتمام وبعيظ شعور وكلمة ترضى بها وتستقوي للقيام بمحاولة جديدة؛ لعل نصيبها من مكنون قلبه يزيد.

كانت تسمع أحاديثه عن هالة وابنتها مع ابنته حياة، تبتلع الغصة تلو الغصة، تاركة المجلس متعللة بأي حجة للصغيرة، حتى لا يكمل معها الحوار عمن سرقة منهما منذ عشرات السنين، حتى تأتي اللحظة الفارقة في عمر التحايل على الوجد، ينفلت منه عقول الكلمات فيناديها هالة، تبدد قوتها أمامه وترفع الدموع رايات الأسى، يغرب عنها دون اعتذار وكأنها اللاشيء أمامه.



الفصل السادس عشر

الروح بين فكَيْه الابتلاء تتأوه

لن أقول قاتل الله الشوق الذي أمد في عمر المسافات بيننا رغم الاقتراب،
تعاندين قلبك لتبتعدي وأعاند عقلي لأبقى على رصيف الاحتياج، لن أتنازل
يوما عن أن أكونك، أكونك أنتِ.

أحتاج إلى شيء منك أو ربما أشياء، ورجاء لا تسأليني عن ماهيتها؛ فإني
والذي سلبها مني لأتوقها منك ولا أدريها، كل ما أوقنه أنني أحتاجها وأنت
بشدة؛ ففيها اكتمال نقص نفسي، وتقويم عقوق قلبي، واستقامة جدار عمري
الموشك على الانقضاظ.

أوتعرفين؟ ربما يكون مجرد تواجد أنفاسك في محيط استنشاقني هو كل
الأشياء التي تبقيني ذلك الشخص الذي كنت آمل أن أكونه سواء أكنت
حاضرة أو غير ذلك، أكونه دائما وأبدا، وحين يحدث ذلك، فلتتيقني ساعتها

أن هذا التناج البشري الجديد لم يكن بفضل تأثري بك ولا تأثيرك علي، بل بفضل نقصي أنا واكتمالك أنت.

أعلم حبيتي، بل أوقن أنني ولدت دون اكتمال من رحم العجز كيما أظل قيدك.

يستحطني الشغف فأحتاج أكثر وأكثر ولكن لك وحدك، فيمضي بي الزمن وأبقى كما أنا قيد الفقد، قيد الدموع، قيد البحث عنك.

أما أنت فقد اكتملت عندك كل المشاعر والأحاسيس حتى بلغت أوجها، أملك، خذلانك، قهرك، أمومتك، حتى وهنك الذي يقتلني ألف مرة حين أتذكر أنني مسببه قد بلغ ذروته، حبك لي الذي لم يخطئ حدسي به يوماً، المتواري خلف خريف كلماتك تعصمني ذات المرارة وذات النقم، قد بلغ نصابه من قبل أن نبلغ يا ساكتتي دون سكون.

كان في مكتبه يدون في دفتره المعبق برجاءات ليله وأشواق قلبه إليها هاتيك السطور المحدودات، ووخز الضمير يؤنبه لعدم اعتذاره عما بدر منه تجاه إيمان، ونزغ القلب المشتاق يصم مسام المشاعر حتى لا تتأثر بأي شيء خارج محراب حبيبته فانتشله من بين دفتي الصراع اتصال هاتفي من رقم خاص:

- مساء الخير، أستاذ أدهم.

- نعم يا فندم، أنا هو.

- معك مكتب مروان بيك.

- أهلا وسهلا.

- سيحدثك الآن، فلتنتظر من فضلك.

- تمام، بانتظاره.

دقيقتان، وكان صوت مروان بيك مارا عبر الأثير إلى أدهم.

- أهلا أدهم.

- أهلا يا فندم.

- أود أن أخبرك بأنه لا بد من حضورها إلى مكنتي الخاص غدا وبمفردها

لأمر هام جاد وضروري يخدم القضية بشكل قوي.

لقد ظهر طرف ثالث تابع للبلد الشقيق وله علاقة وثيقة بالقضية وطرفيها

المتهمين "الأمير والسمسار"، وبه ستحل كل العقد وكأن شيئا لم يكن، فضلا

عن تعهده برده لهالة كرامتها وحقها وحق ابنتها.

- لم أتوقع هذه المفاجآت السارة التي سقطت علينا من السماء. ما هي كنه

هذه الشخصية وصفتها الاعتبارية؟

- غير مصرح لي بالتصريح عنه.

- ولكن...

- ليس في الأمر لكن، هذه فرصتكم فلا تضيعوها، وحفاظا عليها سأرسل إليها سائقي الخاص حيث بيتها ليقبلها إلي في أمان.

لا تقل شيئا، فقط أبلغها كيما تستعد للحضور في الصباح، إلى لقاء.
إلى لقاء.

لم يملك أدهم إلا أن يجيب بالموافقة والترحاب والامتنان لهذا المعروف، أغلق معه الهاتف مؤكدا على أنها ستكون بالانتظار في الموعد المتفق عليه.

لم يتوان، فبمجرد أن أنهى مكالمته معه إلا واتصل بهالة:
مساء الخير عزيزتي.

- مساء النور أدهم، كيف حالك؟

- أنا بخير إذا أنت بخير.

- الحمد لله نحن بخير.

- هالة، هاتفني منذ دقائق مروان بك يبغي مقابلتك في الغد على انفراد في مكتبه لأمر هام يخص القضية، لقد حدثت تطورات لم نكن نتوقعها.

- وما هي هذه التطورات؟

ظهور مسئول آخر رفيع المستوى من المملكة يبغي التواصل معك بشكل شخصي يمس القضية، ولا بد أن يظل اللقاء في طي الكتمان ولا يخرج عن حدود غرفة مكتبه.

قاطعته هالة في حدة غير معتادة:

- وأنت صدقت ما قاله لك؟ أفي يومين ظهر الطرف المسئول؟

ولم لا أصدق يا جميلتي؟ أرجوك انفضي هذا الخوف الجاثم على صدرك واطردي تلك الوسواس التي تجعلك تشكين في رجل ما عرف عنه سوى النزاهة والشرف، أرجوك هالة لا تجعلي ما مررت به من ماضٍ يؤثر عليك وعلىنا ويحجم خطواتنا الواثقة نحو حقيقة محققة.

- ربما يكون وسواسا وربما يكون غير ذلك.

- لا يوجد ربما، الأكيد أنه وسواس، وسواس فقط ولا بد من مقاومته.

- حاضر، سأقاوم.

- سلمك الله عزيزتي من كل الوسواس والشرور، ارتاحي الآن كيما تكوني جاهزة في الموعد المحدد باكرا، سيأتيك سائقه الخاص ليصطحبك إليه كيما تكوني في أمن وأمان.

- أدهم.

- نعم... هالة.

وددت أن أخبرك بشيء.

تفضلي، ماهو؟

- وددت إخبارك بأن في خزانة الكنبه القديمة في صالة بيتنا أمانة لك ولرهف، حينما تكبر عليك أن تعطيهما إياها.

- ولم تخبريني بأمر كهذا الآن عزيزتي؟

- الآجال بيد الله وأردت أن أخبرك بشأنها "فلا تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت".

- لا حرمناك يا هالة.

- كن بخير، مع السلامة.

- مع السلامة.

أغلقت الهاتف لدقائق يحاولان استدراك الحوار كيف بدأ وكيف انتهى؟
فوجد نفسه يضغط على زر الاتصال مجدداً، فتجيبه وكأنها كانت تنتظر اتصاله ثانية.

- هالة، ألم تجيبيني بأمر زواجنا؟

- قلت لك أقنع عن التفكير بهذا الأمر، التفت لزوجتك وابنتك فهما أولى الناس بك.

- ولكنني أحبك أنت، ولن أطمئن عليك إلا وأنت ورهف بجواري، أما عن زوجتي فدعي الأيام تداوي حزنها، صدقيني سأعدل بينكما فيما أملك، وليس من حق أحد أن يحاسبني فيما لا أملك.

- لم أعد هالة القديمة كي تحبها، صدقني هالة الآن، لا تملك شيئاً كيها تعطيه لأحد، أنا مهلهلة الداخل، مشوهة الخارج وإن لم تره.

- اربطي على قلبك.

- ما عاد بالجسد قلب.

- هالة، كفاك وجعا وأجييني: أتحبينني؟

- لا.

- أتكريهيني؟

- لا.

- ماذا إذن؟

- لا شيء.

وهل في قاموس الأحاسيس شعور يسمى اللاشيء؟

- نعم، إنه حالة الغرق في لجج القلب، والاختناق في سكرة الروح.

- هذا هو الحب يا هالة، لكنك تكابرين. ماعدت القلوب تحتمل مراوغات عزيزتي، فأجيبني ماسألتك إياه.

- أجبتك هناك حيث اللاحزن واللافراق، إلى لقاء حيث اللقاء.

- هالة، انتظري لم أنه كلامي معك بعد.

- صدقني، ما عاد في منبع الفكر فكر، ولا على مجرى الكلام كلام.

ودعته وأغلقت الهاتف تماما؛ قطعاً لأي محاولات اتصال جديدة بينها،
ألقت بالهاتف أمامها على طرف السرير، وظلت تتأمل وجه الصغيرة النائمة؛
تريد أن تشبع من ملامحها، تمرر أصابعها بين خصلات شعرها فتتشي مسامها
وتتفتح من عقب هذا الشعر المتفحم في التماع مُضَوٍّ، تمسك بكفها الصغير بين
يديها وتنهال عليه تقبيلًا.

استيقظت رهف فزعة لترى دمعات أمها منسالة على كفها الصغير، سألتها:

- أعدتي للبكاء مجددا يا أمي؟

أرجوك لا تبكي، نحن الآن نعيش مع جدتي وهي طيبة جدا وحنونة
معى، وكذلك خالتيّ مؤكدة أنها ستعودان لزيارتنا، وعمي أدهم طيب جدا،
ليته كان أبي!

- لن أبكي مجددا يارهف، فقط تذكرت شيئا مؤلما استدر دمعي رغما
عني، نعم، نحن الآن بأمان ومعنا أهلنا جميعا. عمك أدهم يستحق بنوة طفلة
جميلة وذكية مثلك، وأنت تستحقين أبا طيبا حنونا مثله، من الآن اعتبريه
أباك وناده "أبي" سيسعده جدا مناداتك له بهذا اللقب.

- حاضر سأفعل، ولكن عديني ألا تبكي مجددا.

- أعدك ألا بكاء بعد اليوم، وأنت الأخرى عديني ألا تبكي على أي شيء
يحاول أن يحزنك، كوني قوية ولا تبكيه.

- سأحاول أمي أن ألبي طلبك ولا أبكي على أي شيء.

- أكمل نومك، وسأقوم أنا بصلاة ركعتين قبل أن يؤذن الفجر، ففيهما الراحة والسكينة.

توضأت سريعا وعادت إلى غرفتها، فرشت إلى جوار السرير سجادة الصلاة وكأنها ترغب في ألا تبرح جوار ابنتها حتى وهي تصلي. انتصبت واقفة تنظر إلى القبلة وكأنها لم تُصل من قبل، استشعرت معية الله لها وقربها منه قربا لا يدينه قرب بعد ذلك، كبرت تكبير الشاهد بحق على وحدانية الله وإعلاء اسمه فوق الوجود بأسره، فهو أكبر من أي شيء وكل شيء، استعازت ثم بسملت... شرعت بالتلاوة وكأنها المرة الأولى التي تتلو فيها من كتاب الله رغم حفظها له منذ سنوات، وحرصها على تذوق قلبها لحلاوة الترتيل.

تلت بآناة وتؤدة تلاوة الخاشع الذليل في محرابه منفصل عن الدنيا بأسرها، استشعرت الآيات استشعار المحب المقبل على ربه ولسان حالها ألا لبيك يا رباه! لبيك حبا لا خوفا وجزعا من ردك لأمة طرقت بابك!

ركعت ركوع المعظم لله والمنزه له عن كل نقص، تمجيد الخالق الأعظم الذي لا يقدر سواه كائنا من كان على خلق روح وإن كان جناح بعوضة، ثم استقامت استقامة العائد من بعد سخط ونقمة على صراط الحمد والشكر لا يبغي في غيرهما ذكرا ولا ترجمانا، حتى سجدت فهوت بكل جوارحها وحواسها سجود الراجي الذي ضاقت به كل السبل وأغلقت في وجهه كل الأبواب ولم يتبق سوى باب ربه يطرقة، فوقف ولم يمل الطرق حتى فتح، ولما فتح استقبل استقبال الصابرين، فجزاه ربه بما صبر جنة وحريرا.

في الصباح الباكر فتحت هاتفها المغلق من ليلة أمس، فإذا بأدهم يتصل بها ليطمئن عليها مؤكداً عليها الموعد مع المسئول، لم يكن الوقت يسمح له بعبائها على إغلاقها الهاتف في وجهه رغم ما كان به من غصص تموج بروحه فتغرقه في غيابة الاختناق الذي حجب عنه ذر الهواء رغم نسيمه الساري ليلاً يهدئ من روع الخائفين ويهدد خواطر المكلمين.

لم تعتذر هي الأخرى ولم تتطرق لشيء مما جرى البارحة، فقط أخبرته أنها بالفعل جاهزة في الموعد المحدد، وبانتظار السائق يمر بها، ظل يحادثها إلى أن وصلت السيارة وسائقها فاستقلتها بصحبته، حاولت أن تطمئن نفسها تارةً بالاستعاذة من وساوسها وبالدعاء تارةً وكذا بمطالعة بعض الكتابات التي تنشرها "راوية" على متصفحها ريثما ينقضي الوقت سريعاً دون أن تترك الظنون تعبت بها وهي في طريقها حيث المقابلة المرتقبة، وكالعادة غرقت في ما تكتبه راوية ولم تستفق إلا والسائق يفتح لها باب السيارة قائلاً:

- حمداً لله على سلامتك، مروان بيك بانتظارك.

ارتجفت يداها وانتفض داخلها إذ وجدت نفسها فجأة أمام فيلا ضخمة البناية فخمة الطراز وليست هيئة دبلوماسية أو بناية حكومية كما كانت تظن، وقفت أمامها مشدوهة خائفة تترقب، فإذا بالمكان وما يحمله من زخارف يبعث بذاكرتها الروح من جديد لتستذكر ما عاشته من حياة الأموات بين أروقة القصور الشوهاء بأنفس قاطنيها، ويتأوه بداخلها القهر الذي سكنها وسكنته بين جدران شيدت من طوب ملكي التكوين في ظاهره، خسيس الطباع في حقيقته فيما مضى سنوات.

وبالجوار كان يقف شخص آخر، أخذ منها الهاتف بعدما فتش حقيبتها مخبراً إياها بأن هذا إجراء روتيني لابد من القيام به مع كل الزائرين، أنهى مهمته واصطحبها إلى الداخل، لم يترك لها فسحة من التخيل ولا التفكير وفي غضون دقيقتين أو ثلاث على الأكثر كان باب مكتب المسئول مفتوحاً على جانبه وهو يرحب بها واقفاً إلى جوار كرسي مكتبه مصوباً ناحها عينيه المخترقتين جسدها، تقدم إليها بتؤدة مآداً يده ليسلم عليها مرحباً، ضاغطاً بقوة تعكس شعوراً ما يدور بداخله على يدها، أذن لها بالجلوس فجلست وجلس قبالتها، استشعر خوفها من برودة يدها التي اعتصرها بين كفيه أثناء المصافحة، وسرعان ما أفلتتها منه بعد رجفة سرت في جميع أوصالها.

حاول نفس سور الخوف الذي ضربته الذكريات الحاضرة المشهد بقوة بينها وبينه، امتنعت عن الحديث واتخذت من الصمت الفائز بالغليان الداخلي ملاذاً، وكأن على رأسها الطير ولا تدري أمن ضعف سكتت أم من تريث لاستيعاب مجريات الأمور من حولها؟

دنا منها يقدم إليها كوباً من العصير وهو يتحدث عن القضية وعن وساطته التي مكنته من الوصول إلى سلطات ذي أيادٍ طويلةٍ ستمكنه من مقابلة الأمير وبشكل شخصي، استطرد ممثلاً دور حامي الحمى ببراعة فائقة، وهو يحتسي كأساً من الخمر، التناقض الفج الذي جعلها تنتفض من مكانها مصدقة حدسها فيه وهي تسأله مستنكرة متهمكة:

- أما يكفيك أن تشربها؟ أشر بها هكذا جهاراً أمام ضيوفك يا صاحب

اليد البيضاء؟

- ومن قال لك أنها خمر؟ هذه مشروبات روحية، أما رأيَها من قبل في المملكة يا ملكة؟

- مملكة وملكة؟

- نعم، أما تناولَها مع أميرك المولع بالنساء الجميلات وسمساره المخلص من قبل يا جميلة؟ قالها ويده تمتد إلى كتفها تتحسسها منزقة على صدرها، فأمسكت بها تطوحها بعيدا عنها وقد بلغ الحنق منها مبلغه قائلة:
وقح أنت!

- لكنكِ مغرية!

لم يُنهِ كلمته الأخيرة حتى هم بها يحجم حركتها في المكان، يحاول الإيقاع بها بين ذراعيه يسرق ما سُرق من قبل مرتين، فهَمَّت به تبعده عنها، ولا تدري من أي مصدر قد أُنْتُها كل هذه القوة التي استأسدت بها عليه ودفعته بعزم ما فيها وهي تستذكر كل ألم سقاه لها سمسار الأعراض وأميره المغفل الغارق في لجج النساء؟

بدفعة واحدة وهبتها قوتها السماء استطاعت أن تسقطه أرضا، اصطدمت رأسه بالأرجل الحديدية للكرسي المجاور له وإذ بالدماغ تفور من رأسه.

تبارزت نظرات الذعر والخوف والاحتقار والدناءة، فكانت الغلبة لنظرات الاحتقار التي رمتها بها باصقة على وجهه تلعنه وتلعن الشرف المسوخ على هيئة علوج تسري في عروقهم دماء الرذيلة، وتشكل عظامهم من الزيف والخداع، ونسيج لحمهم الذي يكسوها مفتول من الخديعة والضلال.

كان الصمت المطبق يخيم على المكان، لا صوت لأحد، لا أنفاس، لا وجود لأي مخلوق، وكأنه قد أمر الجميع بالانصراف كيما يخلو له البيت بصحبتها هي وحسب، عبث بكل مكان وقعت عليه عيناها، على الهاتف الذي سحب منها حال دخولها؛ عساها تجده لتهااتف أدهم فور خروجها من المكان، فلم تجد له أثرا، عبرت البوابات في خفة لم تعدها من قبل على نفسها، قفزت قفزات متتالية وكأنها تخشى أن تמיד بها الأرض فلا تصل وجهتها المكتوب عليها أن تضلها كلما التقيا.

في الطريق السريع حيث اللامارة إلا من راكبي السيارات والشاحنات الثقيلة، لم تعد تثق بأي أحد ولا بأي شيء، شل عقلها وافتقدت قدرتها على التفكير، ظلت تجري وتجري هائمة على وجهها بطول الطريق، وعند أول كشك قابلها على الرصيف وقفت تستند إليه وقد أدميت عيناها، فإذا بعجوز طاعنة السن تجلس بداخله ومعها صبي صغير يقف أمام شباك صغير محفور في جانب الكشك المطل على الطريق على أمل أن يبيعا شيئا من بضاعتها لأصحاب السيارات المسافرة بطول الطريق وعرضه.

ما إن لاحظا وجودها على رصيف طريقيهما، وقفت عنده تلهث وراء أنفاسها المتقطعة، تربت بيدها على صدرها المشتعل ذبحا من طول الجري وقسوة الألم الجالد روحها، انتبهت لها العجوز بعدما سمعت الصبي يحدثها متسائلا عما بها وماذا تريد؟

فإذ بها بصوت ملؤه الحشجة تخبره بأنها تريد أن تجري اتصالا هاتفيا،
فنادتها لتقترب من موضع جلوسها، إذ إنها لا تستطيع القيام من مكانها.

جلست هالة إلى جوارها في استسلام واهن، وبكاؤها قد بلغ مبلغا قد
فارقه منذ فترة ليست بالقصيرة حتى غدا أزيز الصدر وكأنه طبولا تفرع،
وضعت العجوز يدها على كتفها بتلقائية وراحت ترقبها سائلة الله لها
العون.

في هذه اللحظة قفز إلى مسامعها صدى صوت جدتها وهي تقرأ عليها
المعوذتين كلما جلست إلى جوارها مسندة رأسها على صدرها، انتحبت أكثر
وأكثر مع تتابع صوت العجوز في القراءة، لا تعلم هل هذه يد السماء التي
مدت إليها في هذه الساعة المميتة كيما تنحي عن ذهنها فكرة التخلص من
حياتها التي لامست بطرف حلولها ساحة ذهنها وهي على الطريق تجري
غائمة من كل شيء وأي شيء؟

استفاقت من غمرة الشرود على سؤال العجوز لها:

- ما بك يا ابنتي؟

- لا شيء، أرجوك أريد هاتفا وفقط، لا تسألاني عن شيء.

- اهدئي يا ابنتي، اهدئي.

وأشارت إلى الصبي كيما يعطيها الهاتف.



الفصل السابع عشر

ومنك وجعبي وإليك شكواي

في ثوان تغتم السماء فتخر على الأرض بكيا، ويجذب الأخضر كأن لم يغن من قبل صباحا وعشيا، تتبدل المشاعر وتنقلب حبا على كره جاثيا آذيا مؤذيا.

نتأفف من قربهم ولا نبغي لهم وصلا، نصرخ في خيالاتهم أن ابتعدوا واطركونا غرقى فيما اقترفته أياديكم بحقنا، تميد بنا الوقائع ومن تحت أرجلنا يتصدع الأديم، فتتهتز دواخلنا ونسخط على من كانوا لنا حياة.

وفي ثوان أخرى كتلك المنصرمة تعتدل بنا الروح تثبت أقدامنا في اتجاه قبلتهم، فنناشدهم بعدا، نستجديهم قربا أن تعالوا، ونرتمي تواقين بين أحضان أصدائهم أن أسكنونا وأغلقوا علينا ولا تخرجونا؛ فما لنا ملجأ سواكم، وعراؤنا وعري جراحنا في غير حماكم، أنتم أول النبض وآخره، وطفولة العمر وهرمه، وليل الروح ونهارها، اغمرونا بمكنوناتكم فيما بين

هذا وذاك ولا تركنوا إلى نزق يعترينا في لحظات الهوان فتفلتوا أياديكم من أيادينا إلى غير رجعة.

هكذا كانت تتحدث نفسها خفية منها ومن حولها، وهي تمسك الهاتف بأناملها المرتعشة لتكتب أرقام هاتفه رقما رقما وتنطقهم شهقة شهقة، حتى سمعت صوته يجيب على اتصالها.

صمتت للحظات ولم تبدأ الحوار، فابتدأ هو:

- ألو، من معي؟

بصوت منقطع وأنفاس مختنقة بغلالات من القهر واللوم أجابته:

- أأن أنا هالة، هالة يا أدهم.

- لم تبكين، ما بك؟ ورقم من هذا؟

هاتفك مغلق، حاولت مرارا الاتصال بك لكن دون جدوى، ماذا حدث؟ أخبريني.

هالة...هالة... هالة

عادت إلى الصمت ثانية إلا من بكاء أئينه القاتل يخترق الأثير نافذا إلى عمق أذنيه مستقرا بهما في أسى منقطع النظير، التقط نفسا أو نفسين على عجلة ثم عاود حوارهما يسألها:

- أرجوك يا هالة، أخبريني أين أنت الآن وسأتيك؟ فقط أخبريني أين أنت الآن؟

- لا أعرف مكاني.

- اعمم، إذن من صاحب الهاتف الذي تتحدثين منه؟

- أخذته من صبي هنا في كشك وجدته على جانب الطريق السريع.

- طريق، أي طريق؟

اختنق صوتها وغمص الحلق ولم تستطع النطق، فقط البكاء هو سيد النتائج الشعوري لداخلها المتألم، أخذ يناديها:

- هالة، أرجوك تماسكي كي أفهم منك يا عزيزتي.

- نعم، أنا معك، لكن أنا لا أعرف أين أنا؟

- حسنا، أعطني صاحب الهاتف لأسأله.

أعطت الهاتف للصبي وأشارت إليه ليتحدث إلى أدهم، كان صوت الثاني جمهوريا يكاد يثقب سماعة الهاتف وهو ينادي على أحد كيما يرد لهفته الملتاعة ويحييه، وفي غضون لحظات كان قد عرف مكان تواجدها والعنوان.

طلب من الصبي مؤكدا عليه الحفاظ على بقائها معهم ريثما يأتي، فالمسافة طويلة إلى حد ما من مكان تواجده، وقد يستغرق الوصول إليهم ما يقارب الساعة، أجابه الصبي إجابة مرضية وأخبره بأنها في حفظهم وضمانهم، فلا يقلق عليها.

في تلك الأثناء كانت راوية بمساعدة حامد قد استطاعت أن تصل إلى الطبيب الذي أجرى هالة جراحة الترقيع في المملكة؛ إذ إنه ولحسن الحظ

لم يعمل في تلك الفترة طبيب حامل لنفس الجنسية غيره في قسم النساء والتوليد، وبالبحث عن اسمه على برنامج الفيس بوك استطاعت الوصول إلى متصفح الشخصي، جالت فيه عدة جولات منذ إنشائه له وحتى الوقت الراهن؛ فلربما تستطيع التنبؤ بشيء عن شخصه يكون مدخلا لها في تعاملها معه، كان الملاحظ هو منشوراته الكثيرة عن الندم والتوبة والموت وطلب الغفران والصفح من المولى عز وجل، وكذلك نعيه المتكرر لابنته المتوفاة منذ ثلاث سنوات تقريبا طالبا منها العفو والسماح.

فطنت راوية أنه إن كان بالفعل صادقا فيما ينشره فلن يتوانى لحظة عن مساعدة هالة، لكنها تضع أيضا في حسابها الاحتمال الآخر بأن يفرض حتى مجرد الحديث بالموضوع وإنكاره بالكلية.

بعد تفكير طويل قررت أن ترسل له طلب صداقة فلربما تكون مدخلا جيدا يجذب انتباهه شيء ما مما تكتبه عن القضية والتي قررت أن تعيد نشرها مرة ثانية.

بالفعل أرسلت له طلب الصداقة وانتظرت أن يوافق عليه، انتظرت يوما واثنين وثلاثة لكن دون جدوى، قررت اتخاذ طريق آخر للوصول إليه، ألا وهو الذهاب إليه كمريضة تبتغي عنده شفاءً.

ناقشت الفكرة الجديدة مع حامد الذي أبدى انزعاجه في بادئ الأمر غير عليها خاصة وأنه على علم بالتاريخ غير المشرف لهذا الطبيب الخائن لمهنته وقسمه الذي أقسم عليه قائلا:

- لن أقبل أن تتكشفي على هذا الرجل.

- إنه طبيب وليس أي رجل، وأنا بالفعل بحاجة إلى زيارة طبيب النساء والتوليد.

- ولو يا راوية، كيف آمن عليك من هذا الطبيب الذي دنس شرف المهنة؟

- يبدو أنه قد تاب، والتوبة تجب ما قبلها، أليس كذلك؟

- نعم وما أدراك بصدقه؟

- دعنا نحسن الظن به وحتى لو غير ذلك، ستكون معي ولن أذهب وحدي، فوجودك سيوفر علي الكثير من المشقة في إمكانية التعارف الشخصي به والذي معه نستطيع الوصول إلى مبتغانا، لا تقلق يد الله مع الجماعة.

- ولكن...

- ليس هناك لكن، فلتتخلّ عن مخاوفنا الشخصية بعض الشيء، ألم تقل لي ذلك من قبل، كوني قوية في نصرّة الحق؟

- نعم، قلت لك يا راوية.

- إذن دعنا نمضي في طريقنا الذي لم نرد في سيره إلا النصرّة لأيّ مظلوم.

- ولكن.

- ألم نقل ليس هناك لكن.

قطع أدهم المسافة في خلال ساعة أو أقل قليلا، كان يجري على الطريق بسرعة قلبه لا بسرعة محرك السيارة، تلاطمه الظنون والشكوك، يلعن نفسه

مرة تلو المرة؛ فهو من شجعها وقذف بها في هذا الطريق ثم تركها وحيدة، ظل يحدث نفسه زاجرا إياها:

- لم تركتها وحدها للمرة الثانية ولربما الثالثة ولربما لا أعلم كم مرة أوردتها بيدي موارد الخذلان، لم تخليت عنها؟ أظن أنك كنت تبغي مساعدتها؟ يا ترى ما الذي ألم بها؟ أيعقل أن يكون هذا المسئول قد أذاها؟ أيعقل ذلك؟

قفزت إلى ذهنه المشتت فكرة، وجد فيها سبيلا للحصول على بعض طمأنة هاربة، هاتف القاضي الذي أوصله بمروان بك ليسأله متحريرا عن مدى نزاهته، فكانت الإجابة أنه لا يعلم عنه إلا كل خير؛ فالرجل معروف بنزاهته وشرفه وحبه لمساعدة الغير.

تلمس شيئا من سكينة محاولا مؤازرة نفسه بهذه الكلمات التي لا تغني ولا تطيب من اطمئنان تام بزوجها ناصعة في سماء عينيه بعد هذا العثم الذي حل عليهما.

أنهى مكالمة القاضي، وهاتفها ثانية وثالثة حتى وصل إلى المكان الموصوف له وكأن براقا يحمله، لا سيارة يقودها، وقف أمام باب الكشك يطالعها كمن يقوم بمسح كلي لها متفحصا كل جزء فيها وهي جالسة إلى جوار العجوز، التقط أنفاسه الهاربة واستجمع شتات قوته، وهذب شعث ظنونه، ثم انحنى عليها يلتقطها بذراعيه كمن يمسك بصغيرته الهاربة يضمها إلى صدره لا

يبغي لها نزولا، قبل رأسها وأخذ يعتذر لها مرة واثنين وثلاث وإلى ما لا نهاية، وجلمود عينيه قد تشقق فانفجرت منه الدموع أنهارا، اختلطت دموعها معا، وهنّها ورحمته، فكان المولود شعورا سقط لها خاصة من جنان الحب، استدركا حالهما وصوت العجوز تسأله:

- ما صلتك بها يا بني؟

أحكم قبضة إحدى ذراعيه حول ظهرها وبالثانية مسح على رأسها يثبتها الأمان وهو يرد عليها:

- إنها زوجتي.

فغرت هالة فاها فهم بوضع يده عليه، باغته العجوز بتأنيب وتأفف:

- وكيف تتركها تسير في هذه المنطقة الخاوية وحدها؟ أما تخاف عليها يا ولدي من أن يؤذيها أحد؟

- العذر منها ومنك، فلقد كان عندي عمل هام شغلني عنها، وأرسلتها برفقة من ائتمنته عليها، لكن على ما يبدو أنني ما ائتمنت إلا خوانا وما وثقت إلا في غادر.

أسف يا خالة، أعدك لن أتركها ثانية، ولن أسمح بإيذائها مطلقا.

لم تُنسه لهفة اللقاء السؤال عما حدث لها وكيف وصلت إلى هنا خاصة في ظل بكائها الذي لم ينقطع لحظة؟ ولكن هندمة مظهرها إلى حد ما، واستكانتها بين ذراعيه سربت إليه شعورا بالطمأنينة.

شكر العجوز وصبيها وجاد عليهما بما حواه جيبه ردًا لطيب جميلهما
وصونهما لقلبه الضائع منه حتى أكرمه الله وردّه إليه على يديهما.

لم تكن مجرد كلمة عابرة قالها وقت فرحة لقاء واطمئنان عود، بل كانت
قرارا حاسما يقطع أواصر التذبذب والتردد التي توارىها هي خلف صمود
زائف وادعاء برفض قاطع.

ركبت إلى جواره وقد سكن خوفها إلى حد ما، لكن شعور النزق تجاهه
ذلك الأدهم الجالس إلى جوارها قد زارها من جديد، حاولت صد الباب في
وجهه ولكنه اقتحمها وبشدة وما إن سأها:

- أخبريني يا هالة، ما الذي حدث؟ احكي لي منذ أن أغلقت معك
الهاتف صباحا وحتى مجيئي إليك بأدق التفاصيل.

- ماذا تريد أن تعرف؟ أخبرك أنني أخبرتك من قبل أنني غير مطمئنة
لهذا الرجل، وأن حدسي فيه أنه يطن غير ما يظهر ولكنك قلت دعي عنك
وساوسك وادهبي؟ رجل في مكانة كمكانته ما الذي يجبره أن يساعدنا إلا
إذا كان رجلا من أهل الصلاح؟

- هذا ما علمته من صديق له وما أبداه لنا من طيب خلق وغيره على
حقوق المظلومين المنهوبة، ماذا فعل معك؟ فلتنطقي إذن ماذا فعل؟

- كان يريد أن أعطيه ثمن مساعدته لنا.

- أتقصدين أنه كان يريد مقابلتك لأجل...؟

وأمرت برأسها تثبت صحة ما فطن إليه مؤخرًا، أوقف السيارة فجأة وراح يسب ويلعن هذا الخسيس النذل، ثم أكمل حديثه الموجه إليها:

- قلت لك احكِ لي كل شيء ولا تخفي علي خافية.

- حاضر، لكن لا أعرف هل مات أو لا؟

- نعم؟ لم؟

قلت لك احكِ، لا تحيريني أكثر من ذلك، انطقي.

- حاضر.

قالتها بصوت مكلوم، ونظرات غائمة، وعادت الرعشات تعانق يديها من جديد، فلام نفسه على عصبية استبدت به فنهرها حتى أبكاها ثانية وهو من كان كل الرجاء في كفاف عينيها عن البكاء.

-أسف، أسف يا هالة، لم تعد تسري بعروقي نقطة دم واحدة بعد كل ما سمعت. كيف لهذا الوغد أن يخدعنا بهذه السهولة؟

أكملي ماذا حدث بعد ذلك لتشكين في موته؟ ما الذي أصابه؟ ألعنة السوء أم ماذا؟

لم يكن يتخيل أن بإمكان امرأة بتكوين هالة النفسي أن تصمد أمام موقف كهذا وتصده حتى عن نفسها لتبعده لا أن تطرحه أرضا. أتمت له الحكاية كاملة وأخبرته بما حدث بالضبط وأخذهم لها تفها منها قبل الدخول عليه في

غرفة المكتب، حاول ألا يظهر أي شيء من علامات القلق على وجهه حتى لا يفزعها للمرة التي لا يدري كم عددها، واكتفى بربته على يدها تطمئنهما وكلمة تبث فيها القوة "لا تقلقي، أنا معك".

نفذت راوية ما اتفقت عليه وحامد رغم اتصالاتها المتكررة بهالة في هذا اليوم المكتظ بالأوجاع والتي باءت جميعها بالفشل وعدم الرد، عدم الرد الذي بث فيها بعض القلق المشبوب بالخوف.

لقد قامت بحجز موعد لها في عيادة الدكتور محسن، ومع عدم رد هالة عليها فكرت في تغييره حتى تجربها بكل خطوة تخطوها لأجلها، ولكن كما يقولون سبق السيف العذل، فإن استبدال الموعد سيستغرق وقتا نظرا لعدم تواجده لمدة أسبوعين على الأكثر في عيادته بسبب انشغاله في إحدى المؤتمرات الطبية المدعو إليها، ومن ثم رضيت بترتيبات القدر موقنة أن فيها الخير وذهبت في الموعد المحدد مع حامد والتقيا بمحسن واتخذ اللقاء شكلا غير رسمي إلى حد كبير بعدما تعارفا هو وحامد على أنهما أصحاب مهنة واحدة، وخاصة أن الثاني طبيب نفسي مما دفع الأول إلى محاولة كسب وده؛ فلقد شعر أنه وجد ضالته بعدما تلمس شيئا من الألفة معه، وآتاه ما كان يخشى الذهاب إليه بقدميه إلى موضعه دون أن يُحرك قدما واحدة، انتهى اللقاء بشكل ودي مع كتابة ما يفيد بحالة "راوية" التي كانت عرضا هينا تعتاده جميع النساء.

ولاكتمال التعريف قدمت راوية نفسها بالكاتبة الصحفية والروائية، فازداد شغفه ليسألها عن كتاباتها وإصداراتها فقصت عليه عناوين بعض ما كتبت وأخبرته بمتصفحها الشخصي الذي أرسلت منه إليه طلب صداقة مبررة الإرسال بأن صديقة لها هي من أخبرتها به كطبيب نساء وتوليد ماهر، سره الأمر وووعدها أيضا بمتابعة القراءة فهو من عشاق القراءة والمطالعة، تنهدت راوية والتقطت أنفاسها ثم زفرتها ببطء بعدما مرّ اللقاء بصورة أفضل مما كانت تتوقعه.

كانت جبال الدنيا بثقلها قد جثمت على صدر أدهم؛ فماذا لو كان الرجل قد مات؟ أبلية جديدة تأتيمهم من حيث لا يدرون؟

ضاقَت عليه الدنيا بما رحبت واسود في عينيه كل شيء، لم يستطع أن يعود إلى بيته بعدما أوصلها إلى بيتها، كان بوده أن يبقى معها في بيتها، فهو يترقب حدوث أي شيء في أي لحظة، فلو مات الرجل ستبحث الشرطة عمن كان معه وهي آخر شخص كان معه وبسهولة سيستطيعون الوصول إليها، لكنه لم يكن يريد أن ينقل إليها مخاوفه خشية أن تنهار؛ فهي لم تعد قادرة على تحمل أي صدمات جديدة، لجأ إلى مكتبه ليرابط فيه ريثما يوافيهم القدر بما في صحائفه.

فكر مرّات ومرّات أن يعاود الاتصال بالقاضي، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة خشية إثبات التهمة عليها أمامه.

قام وتوضأ وصلى ركعتين قضاء حاجة وبكى كأن لم يبك من قبل سائلا
الله العون لقلبه وفكره ومصابه، ظل يدعو الله فرجا عاجلا ومخرجا قريبا.

جلس على كرسي مكتبه وأمامه عدد من ملفات القضايا التي تركها له
مساعدته كيما يراجعها قبل المرافعة فيها، حاول أن يتفحصها كيما يعطي إشارة
الموافقة أو يصوب ما يراه غير صحيح، ولكن دون جدوى، كل فكره مصوبا
في اتجاه قضية واحدة وحسب، قضية عمره التي أنهكت القلب والعقل
وشيبت الرأس قبل أوانه؛ إذ إنه لم يفلح ولو لمرة واحدة في مرافعة يؤديها
لأجلها فينتصر لها وينصرها، بيد أنه قرر في تلك اللحظة التي قال عنها إنها
زوجتي نزع رداء المحاماة إلى غير رجعة، والجلوس على منصة الحكم والبت
فيها باسم الحب لا العدل، باسم التوق لا الخوف، باسم الحياة لا الموت دون
حضور ولا شهود ولا مرافعات، فقط القاضي والمتهمة في ساحة المحكمة
دون قضبان حديدية لا حاجة للمحيين فيها، فقضبان القلوب أرفق بمن
فيها والتي أصدر بشأنها حكما باتا لا رجعة فيه، إذ حكم بحبس سرمدي لا
قيامة له.



الفصل الثامن عشر

اربطيء علمه قلبك

ورغم أن للفظه الهوان تعريفا لغويا واصطلاحيا محددًا في معاجم اللغة، إلا أنه لم يكن يوما ذا شعور واحد متفق عليه بين الخلائق، فالكل يقاسيه ويتحدث عنه وكأنه بلغ فيه ذروته على الرغم من تفاوته النسبي بين نفس وأخرى.

فماذا لو كشف ستر الآه المنطوقة حال حلوله وتربعه عرش الروح؟ تالله لا غتمت الأنفس ونَحَّتْ الأبصار وجهتها عن مطالعة قبح البروح المترتبة طيلة أعمار من النوازل التي توقع بنا في خضمه، لنجد كل الجراح قد تجمعت واتخذت من عمق النفس المكلومة مستقرا ودارًا، بيد أنه من لطف الله بعباده أن جعل درجات الشعور متابينة سواء في تعبير الإنسان عنها وقت انطلاق اللسان بالكلمات التي توصفها حالا وسببا وتخوفا من مآلها، أو في تناميها

إلى المستقبلات الحسية الكامنة في دواخلنا وقت استقبال الأذن لهاتيك الكلمات.

الوقت قد تجاوز الثانية عشر بساعتين وأدهم على حالته في مكتبه شارد الذهن، محاصر القلب، غير قادر على التفكير، زوجته تتصل به مرة تلو المرة ولا يجيب، يكتفي بإيقاف رنين الهاتف حتى ينتهي، نهش القلق قلبها عليه إذ ليست من عادته مهما كان لديه من ضغوط عمل أن يتأخر بعد الثانية عشر، ترسل إليه رسائل نصية يكتفي بقراءتها دون إجابة حتى أرسلت إليه مقطعا صوتيا تبكي فيه خوفا عليه، ترجوه أن يطمئنها عن نفسه وحاله، ويخبرها لم تأخر وقبل هذا وذاك فليخبرها أين هو؟ أجابها بألا تقلق عليه، هو بخير ولكنه ما زال في المكتب، بسبب ضغوط العمل، فبين يديه قضية هامة ولم ينتهِ من كتابة مرافعتها بعد، طالبا منها أن تنام ولا تقلق فلربما يقضي الليل كله في مكانه ولن يعود إلا بالغد، وحتى الغد لا يدري متى سيعود؟

اطمأنت عليه وأرغمت نفسها على تصديق كلماته المملوءة شجنا، وصوته المغتم داعية له بالتوفيق والسداد بنهاية الحوار.

وما إن أغلق مكالمة إيمان حتى أتاه اتصال من القاضي يصيح به في الهاتف قائلا:

وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

بالطبع جزاؤه إحسان وزيادة، لكن ماذا حدث سيادة القاضي كيما تحدثني هكذا؟

- ألا تعرف؟

- يبدو أن كلينا لا يعرف.

- أحاول تقديم العون لك ومساعدة قريبتك في حل مشكلتها التي أخبرني بها، فيتضح بعد ذلك أنها كاذبة وتنسج قصصا من وهم، ولم يحدث شيئا مما قالته لك على أرض الواقع؟

- لحظة من فضلك، من قال لك هذا الهراء؟

مروان بك الذي تطوع لمساعدتكم؛ فحينما واجهها بكذبها وادعائها، وبحقيقة عملها المشين في البلد الآخر، ثارت عليه وأصابتها نوبة جنون، حاول تهدئتها فضربته بفازة مجاورة ليدها على مكتبه، لم يستطع حماية نفسه منها إذ باغته بقوة لم يعهده أن يراها في امرأة، أصابته في رأسه فجرح جرحا عميقا، وللعلم فلقد حدثني لائما لي أن أوصلته بك، مقسما أنه لن يدعها حتى يقتص من فعلتها.

- وأنت صدقت كل هذا؟

- ولم لا أصدق؟

- ألم تسأله أين التقى بها؟

- لا لم أسأله ولم ولن أهتم بأن يفصح هو عن ذلك أو لا، المكان ليس بهذه الأهمية حتى يذكره.

- أأنت من تقول ذلك؟

- نعم، رجل في مثل منصبه، تطوع لمساعدتكم أتريده أن يلتقيكم في مقر عمله وتصوب إليه أسنة القال والقيل؟

من حقه أن يحتاط لنفسه ومنصبه ويتقي مكانا بعيدا عنه فلا تطاله يد متلصص حاقد.

- حسنا، أسأله ياسيادة القاضي أين كان المكان الآمن؟ ولكني أعلم يقينا أنه لن يجيبك بالحقيقة التي لا ترى لها أهمية، لقد اختلق لك هذا الأفاق قصة كيما يبرئ نفسه من جريمته الشنعاء وحاول إصااق العهر بها لا به.

- يبدو أنك لا تعرف عمن تتحدث؟

- بل أعرف من تفترون عليها بالبهتان يا سيادة القاضي، فحينما لجأت لك لجأت لعلمي بنزاهتك وعدلك، وظننتك ستدلني على من هم مثلك، لكن يبدو أنك لا تعرف حقيقة من تصادق وتتعامل معهم.

- يبدو أنك جنت، من هذا الذي ينظر لامرأة كهذه يا أدهم؟ اذهب وعالجها من جنونها، هذا إن ترككما مروان وشأنكما بعد ما حدث اليوم.

- حسبنا الله، والأيام بيننا ستثبت من الصادق ومن الخائن الداعر؟

- يبدو أن عدوى الجنون قد أصابتك منها "قالها منهيها بها المكاملة".

وضع أدهم الهاتف أمامه على سطح المكتب بعدما ضغط على زر الإغلاق وكل ما يدور بخلده هو التفكير في الطريقة التي سينتهجها مروان لإيذائها، لا يستطيع أن يوقف جماح الخوف والقلق المتزايدين بداخله، هو يعلم جيدا

أن هذا المسئول ومن على شاكلته طالما أفصحوا عن وجههم القذر لن يتوانوا عن فعل أي شيء حتى يتقموا ممن امتهنهم، فكيف بمن طرحته أرضا وكادت أن تقتله؟ هؤلاء لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة.

اختنقت خواجه وضاحت به نفسه، لم يتمالك مدامعه والتي انطرت دون إرادة منه وهو يرفع أكفه بالدعاء يستجدي معية ربه، وهو يسحب الهاتف من أمامه على المكتب ليستمد بعضا من طمأنة تهديها له بصوتها الشجي، اتصل بها على هاتف والدتها.

- السلام عليكم، كيفك خالتي؟

- وعليكم السلام، أنا هالة، خالتك نائمة.

- كيفك؟ الآن يا هالة؟

- أنا بخير.

وما لبثت أن نطقتها وأجهشت بالبكاء، لم يستطع أن يتمالك نفسه، وهو الذي أتاها ليستقوى بها؛ فهو الضعيف أمام كل هاتيك الصعاب التي تحط بها، أمام ضعفها يضاعف ألف مرة وأمام صوتها المبحوح ينفرط عقد الكلمات من بين شفتيه فبدلا من أن يتبعثر بكلام حتى غير مفهوم يتبخر ولا يبق منه أثر.

ظلا على الهاتف صامتين لا يسمع إلا شهقة منها بين حين وآخر، أطلق زفرة جاثية على صدره واستنشق أخرى ململما شتات كلماته ليهدهدها:

- اربطي على قلبك المكلم، أخشى عليه من التمزق، فمصائبك يصيبني

ضعفه عشرات المرات.

- عن أي قلب تتحدث؟ قلبي استوى على وجعه منذ زمن يا أدهم،
قطعة دامية علية النبض، خاوية الحس والشعور.

- كفالك وجعا ما عدت أحتمل كلماتك المرتوية من قلبك الدامي.

- بل كفاكم أنتم كل شيء، اتركوني وحدي حتى يقضي الله أمره في،
دعوني وشأني ولن أطالب أحدا منكم بشيء بعد الآن.

- ماهذا الذي تقولينه؟ أنت تستسلمين وتسلمين رقبتك لهم بهذا
الضعف الذي يعتريك؟

-أضحك على نفسي أم على نفسك؟ لست بساذجة يا حضرة المحامي،
أعلم جيدا أنه بفعلتي اليوم لن يتركوني وشأني، معهم هاتفي وسيحاولون
بشتى الطرق الوصول إلي.

- لا أضحك عليك ولا على نفسي، وأعلم خطورة الموقف الحالي، ولكن
عندي يقين بأن هناك مخرجا لما نحن فيه، تماسكي كيما يقوى كل منا الآخر،
موضوع راوية الذي ذكرته الآن ربما هو مفتاح النجاة الذي لا بد وأن نمسك
به ولا نضيعه.

- أقول لك سيؤذونها، وتقول لي مفتاح النجاة؟

- اهدئي، وأخبريني هل اتصلت براوية وقالت لك شيئا؟

لا، لم أتصل، لم أحتفظ برقمها من الأساس، وبعدها أخذوا الهاتف ليس
معي إنترنت، ولم أستطع الوصول إليها.

- أواه، لقد نسيت من الصدمة أمر حساب الفيس بوك الخاص بك على الإنترنت، فلم أتصفح اليوم شيئاً مطلقاً، سأفتح الآن لأرى ما ذا حدث وماذا فعلوا به؟

- لحسن الحظ أني قد عطلت الحساب قبل الذهاب إلى المقابلة، وحذفت البرنامج من على شاشة الهاتف نهائياً، وكأنه كان إلهاماً ربانياً.

- الحمد لله، صدقت إنه إلهام ربانيّ، لن أفتح الحساب خشية أن يفعلوا أي شيء به أو بأي طريقة يظهر لهم ثانية على الهاتف؛ فالحيل الإلكترونية لا حصر لها، أما عن راوية، فسأغلق معك الآن وأحاول الوصول إليها عن طريق حسابها الإلكتروني على الفيس بوك.

- حسناً، أخبرني بما ستصل إليه معها، أرجوك، إني قلقة عليها، فلم أر منها إلا الخير.

- لا تقلقي غاليتي، كوني بخير.

- أتألم حين أكون بخير.

- كوني أنا يا أنا.

- ألا تتألم لمصابي؟

- ألمي مضاعف لو تعلمين.

- إذن لم تقل كوني أنا؟

- لربما تشعرين، فتعلمين أن أشد آلامي كلها في بعدي عنك، وما دون ذلك هين بكثير وإن تعاظم خوفنا من هذا الدون. كما أنت لن تتغيري حتى ونحن في أحلك الظروف، لو تغيرت لتغيرت، لكن لا جديد.

- حسنا، دع الفلسفة الآن وتصرف بجدية فيما نحن فيه من ابتلاء.

- معك أنسى كل شيء مؤلم حتى وإن كان هذا الهوان الذي نقاسيه الآن.

- بدلا من أن تنسى، تفضل وفكر بحل لما نحن فيه وأنقذني من هذه الحياة الظالم أهلها.

- حاضر، سأفكر وسنجد حلا بإذن الله.

أغلقت الهاتف وهي تتعجب من هذا الجنون الذي يعتريه من حين لآخر، رغم كل هذه الصعوبات التي تحاوطهما، والمآسي التي تعصف بهما، بيد أنه جنون يعيد إليها شيئا من ذاتها القديمة التي تركتها له منذ الرحيل الأول مع السمسار.

افتترّ ثغرها عن بسمه مغلفة باليأس، وإذ بالهاتف يهتز في يديها معلنا عن وصول رسالة نصية جديدة، فإذا بها منه يقول فيها:

- اربطي على قلبك، ففيه أنا وإن ادعيت الخواء.

قرأتها وهي تردد:

- مجنون، ورب القلب مجنون!

شعر بعد المحادثة بدفقات الحنين إليها قد تزايدت إلى حد يعجزه عنه الصمت، فلجأ إلى مناجاتها ورقا وبثها حبه لها نظماً، أوى إلى دفتره يكتب:

أوتدرين يا منية الفؤاد أني قايضت الليل في غيابك، اتفقنا أن يهديني إياك حلماً، وأهديه طوعاً كل سهادي. أقف بشرفاته من بعد المغيب أنتظر، يسمع دقات قلبي النابضة باسمك، يتلذذ بمذاق خفقاتها وهي تناديك، تتمزق أضلعي وقد ضاقت بالعشق صبراً بينما هو يرسم ضحكاته الماكرة على وجه قمره الناظر خلصة من ترقيبي بزوغك على صفحة وجهه الأنور.

يطول الوقوف، ويتعاضم الحنين، وإذا ما اكتفى من رجاءات سهري حتى السحر، منّ عليّ بغفوة لا حسابان لها ولا عد، ولا رِيّ فيها ولا شع! ملحها زائد، وحلاها يفوق الحد.

فلا تظني أن الليل يعشق النّوام زاهدي الهوى، كاذبون يا جميلتي من قالوا ذلك! الليل يعشق من هم في مثل حالي وحالك، إن كنت بالشوق تكابدين وصلي كحالي، نحن من نهبه الحياة بأنات الشوق تشق ظلماته المترابك بعضها على بعض من أجل الوصال، الليل عاشق مثلنا! لكنه غيور، غيور جداً، يستمتع بعذابات قلوبنا حتى نهن عن آخرنا فنهوي، ثم يمنحنا غفوة، غفوة واحدة فيها كل الموت وكل الحياة.

شعر بعدها ببعض الراحة إثر إفراغه لمكنون روحه والتي بإمكانها أن تعينه على التفكير السليم فيما هو آت، فتح حسابه الشخصي على الفيس بوك وراح يرسل راوية، طالبا منها سرعة الرد بعدما عرفها بنفسه.

انتهت رواية بسرعة إلى رسائله، فهي كانت تترقب أي اتصال أو رسالة تأتيها فلربما تكون من هالة، قرأت كل ما أورده من أحداث مرت بها هالة في اليومين السابقين، كانت الصدمة ثقيلة عليها؛ فبينما كانت تظن أن الأمور ستتيسر؛ فإذ بها تتعقد، وكل عقدة تتشابك مع غيرها، شعر أدهم بالاضطراب الذي اعترى ردود رواية عليه في المحادثة، لكنه حاول أن يستقوى بها كرمز أدبي صحفي له ثقله المعرفي وجماهيريته في أوساط الأدب والصحافة، وبسلطان قلمها الذي اتخذ من الحق مدادا كيما يواصل طريق البحث عن الأب الحقيقي.

سألها إلى أي حد استطاعت أن تصل مع الطبيب الذي وفق تكهناتهم يملك سر القضية، فأخبرته بكل شيء وزيارتها له وزوجها في عيادته، وكيف كانت المقابلة مبشرة وأنه غدا صديقا عندها بالصفحة، يتابع ما تكتب بشغف خاصة ما تنشره عن القضية التي أحالتها إلى حكاية، ثمن من جهدهما وشكر لهما صنيعهما، ووضع أمامها كل هواجسه وتوقعاته بما في ذلك خوفه من التعرض لها بالإيذاء، هذا الهاجس الذي نقله إليها لم تجد له ردا سوى إن الله معنا، فلا تحزن.

فأجابها ونعم بالله، تاركا لها رقم هاتف أم هالة كيما يتوصلا من جديد، ويتموا الأمر بمساعدة كل ذي قدرة على المساعدة الجادة والحقيقية.

بينما هو يحادث رواية كانت هالة مع إحدى صفحات دفترها تهيوها للبحر والكتابة عنه، فما عاد القلم يكتب غيره، يكتبه دمعاً، يكتبه فرحاً،

يكتبه تعقلا، يكتبه طفلا، المهم أنه يكتبه هو لا غيره، أو يكتبها هي لا غيرها، فالواو والياء بضمير الغائب قد تناسا على بعضهما البعض وتماهى أحدهما بالآخر، سطرت في منتصف السطر بصدر الورقة: "اربطي على قلبك".

لو تعلم يا حلم الليل الحزين كم مرة قرأتها؟! رتلتها كقبس من نص مقدس تارة، وقطعتها كبيت قصيد أخرى وغنيتها على أنين ناي ثالثة، وصدقا على كل وجه كنت أتساءل هل عصاك حين ضربت بها على ظهر نفسي انفرجت الأوجاع عيوننا من باطنها تخبرك أن بالخطب ما هو أعظم؟

ليت الكلمات تشفي كل العلل وليت كل الأيادي تعلي الهمم، وليت الحلم كان ضربا من خيال ينقضي فور الإصباح ولا يبقى في خواجلي منه أثر، وياليت ليت ذاتها لم تولد من رحم العدم!

جميلتك لم تعد كما اعتدتها تنطق فيضحك الكون، ولا تصمت فيمر بها الطيف تلو الطيف فتستذكر عذب الذكرى دون مقت، ولا تبكي فيخضر جذب الروح من عذب الدمع، ولا تسترجع الآي مسحاً بالقلب والروح فيهدأ الأزيز وتسكن اللجلجات.

تتلو على قلبها ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

وكأنها والخواء سواء، لا شيء يتحرك ولا شيء يسكن، البينية الهائمة باتت الحاكم بأمر اللاشيء في محكمة اللاجدوى من كل شيء.

جميلتك باتت تلوك الألم مع كل استمطار لها باللوم والعتاب يبغي منها
الصلاح، الصلاح الذي لم تعد تملك منه نذر رحيق في ظل دنف الروح
والقلب والنفس.

(فاقد الشيء لا يعطيه) كنت أظنها ذات يوم مقولة خائبة، وأن فاقد
الشيء أكثر الناس قدرة على العطاء، العطاء الذي لا يحده حد أو مدى، الآن
أدركت أنها عين الصواب، إذ كيف أصلح كل الأشياء، وكل الآحاد، وأنا
التي لا تملك من أمرها قطميرا.

أما ناظرت صغيرتك وهي جاثية على شجيرات البوح حيث سماء القنوط
تهميها بلا هوادة، وهي تستقبل معطياتها بلا أدنى مجاهدة تذكر، تنتظر فقط
ريحا عاصفاً تذروها حيث اللاحياة، وأنى للرياح أن تلبّي قلبا لطالما نادى:
- اللهم وإياي.

حين يتلو قول من أنبضه بين الأضلع دما لا نبضا ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ
يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

لم أهاجر حتى من ضيق كدري إلى سعة رجائه رغم علمي بأن غفوه لا
ينضب ورحمته لا تنقطع، أعلم ولا أطلب، أعلم وأرتمي بين أحضان الوجع،
أستسلم وأخشي أن يأتيني ما أتوقه وأنا لم أخرج من بيت الذنب والتقصير
إلى فضاء التوبة والأوبة.

صدقني ليت العلم يجدي مع من أهلكتهم أنفسهم حيرة فهلکوا! لیتہ
مجدي مع من استوت أرواحهم على لبيب الضمير يوخزهم في كل صغيرة
وكبيرة حتى تطايرت في الهواء إثر احتراقهم أبخرة اللامبالاة!

ها هي جميلتك تقف عاجزة التلبية، مصمتة النبض لقلب استوى على
أوجاعه فما عاد يعجبني، فكيف به يعجبك، أترأه حقاً يروق لك؟ أترأه إن
رأيت بلوغ نبضه الحلقوم، وقد دنا منه الموت وتدلّى فكان قاب قوسين أو
أدنى؟

تنوء بحمل درّ حسك ولؤلؤات بوحك، وعظيم بيانك "كفاك وجعا"
لكنها لا تنوء بحمل ما اختلجها من بقايا أحرف ما زالت تهديها الروح لمن
أعزت وأدنت حتى بات حبّاً أو حداً وخلاً نبيلًا.

للمرة الأولى أقولها وأنا التي مهما مرّ بها المرّ ما نظقت استجداءً لقرب
أحد "اهدني القلب دعاء، واسقني الحب نداء للطائف السماء في كل حين".

عسى يذهب وهنّ روحي أريجٌ ودّك إذ تضرعني، ويحيي سقاؤك في قلبي
وريدا قد مات فيبعث من جديد لأجلك، ويستقيم ما اعوج في إثر نصحك
وربته يدك بكلمات اتخذت من الصدق مدادا، ومن الحب متكأ تجلس عليه
حين تخاطبني بها.

نعم، لقد نفيت في الختام ما أسلفت في بدء الكلام، لا تعجب؛ فليست
كل الأيادي حين تربت على أوجاعنا تطاق، وليست كل الكلمات تسري
بالروح مسرى الكرام؛ فمر بنا يا حلمنا السابل غمام الليل عزيزاً كريماً.

أنهت رسالتها مع حركة المارة في الشارع دون اعتياد منها على هذا الضجيج الصباحي الباكر جدا، وكأنهم قد أصابهم شيء من هوانها أضح مضاجعهم في البكور، فخرجوا إلى الشوارع نافرين من ضيق البيوت إلى رحابة الطرق.

بدون توقيع

فلست أملك لحالي فيك صفاء، ولا أدري لتوقيتات الكتابة إليك ترقيا. استسلمت للكرى الذي أخذ بناصية روحها المنهكة وأوقعها به دون إرادة منها، فلم تلتفت حتى إلى الدفتر الذي غفت عليه وهي ما تزال ممسكة به بين ذراعيها تضمه إلى صدرها تستمد منه الطمأنينة والأمان الذين عزّ على الدنيا منحها إياهما طيلة عمرها العسر.



الفصل التاسع عشر

والقلب قيد الحب لا مناص

حين يكون الحب أغنى من أي آصرة تربط بين الأنفس، وأقوى من أي دماء تناثرت وتفرقت في الأوعية رغم أن جميعها يعود إلى وعاء واحد ومنه تتدفق، هنا وحسب يكون ترجمانه الوحيد أن: نحن هنا في محراب الوصل قانتين رغم المسافات، رغم التخبط والعثرات، رغم التشتت العاصف بأذهاننا، نحن هنا قيد الحب للحب لا لفروض الأنساب ونتاجات الأرحام، وشكليات العلاقات.

هو حين يكون الحال غوث الملهوف الذي لم يجد مأوى للهفته يحتضنها ولو ظلا عابرا، ولم يجد لروحه الجائعة خبزا ولو كلمة "لا تخزن"، ولا حتى ريا لداخله الظامى ولو "سآتيك قريبا"، هو بكاء العليل رغم عدم نيلك من مصابه قيد جرح جسدي ظاهر، لكن الجراح الخفية تتعق في كل خالجة

تتفرض جزعا لعلتهم، فتحياها بألمها وتزيد عليها بأنك تمررها حتى على سنوات عمرك المتقضية.

هو حين يكون ضحكة لأجل ضحكة رغم عدم فهمك للثانية، لكنك تضحك كيما يستمروا بالضحك، وذيك النور المتألي فرحة بأعينهم يكون صراطك المهدى إليك ليهديك إلى النعيم، فتسير بين أروقه رافلا مبتهجا، ويعينك على استكمال عمرك الذي قد تضاعف أضعاف ما هو مقدر بالأرقام، لأنه قد ضوئ بهم وفيهم.

مع تياك الأفاعيل وحسب يكون الحب أئمن من المداد المسكوب على الأوراق ليخط حرفيه "الحاء والباء" مع إضافات الضمائر وفق مشهدياته، وأبلغ من تعبير بليغ قد استوفى شروط الإبداع الأدبي، أبقى من كل الكتب والمجلدات منذ اختراع الكتابة حتى تطايرها ثانية يوم الشور.

لم تنتظر راوية كثيرا بعد حديث أدهم، كان الخوف والحب يحملانها حملا على جناحيهما إلى هالة، اتصلت بها على هاتف أمها:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام، من معي؟

- أنا راوية الراوي صديقة هالة.

- أهلا أهلا يا ابنتي، بارك الله لك فيما تصنعين مع هالة.

- بارك الله فيك يا أمي، أنا لم أصنع شيئاً، دعواتك لنا بتيسير كل عسير وتذليل كل صعب.

- يسر لكم ربي كل عسير يا ابنتي وجبر خواطركم.

- هل بإمكانني الحديث إلى هالة؟

- سأوقظها حالا.

- لا لا تزعجها، سأصرف أنا، أتقبلون زيارتي؟

- أنت على العين والرأس، تنيرينا يا أستاذة.

- أنار الله قلبك بالإيمان يا أمي، إلى لقاء.

- مع السلامة.

- مع السلامة.

شعور خفي مفعم بالتوق، بالشغف، بالمسئولية يجذب راوية، ويجسها حسا للمضي قدما تجاه بيت هالة، رغبة ملحة تدفعها للقاء مؤجل حتى الاتفاق على احتمالية حدوثه بين أطرافه، مبهم في تحديد كيفية إدارته وعما سيدور، أهى القضية وحسب أم سيصبو إلى علاقات أمتن من ذلك وأقوى؟

قررت هي أن تمسك بزمام الأمور وأن تذهب إليها حتى وإن كانت لا تستطيع التكهّن برد فعل هالة التي باتت تهاب كل أحد وأي أحد، نعم لقاء

لا تعرف عواقبه، لكنها تعرف جيدا دوافعه التي سطرها القدر على صحائف الروح.

يوما ما كانت راوية في مهب ريح الخذلان كهالة، تقاسي الفقر أشكالا وألوانا، ضيق ذات اليد ورغبة أبيها في منعها من استكمال دراستها بغية توفير النفقات في ظل مرض أمها الخطير الذي استنفد كل ما يملكون، وكذا أخوها الذي كان يدرس الطب وبحاجة إلى مصاريف باهظة كيما يواصل دراسته، فهو الحلم الذي لا يستطيع الأب بعد كل هذا السير في سبيل أن يطاءً بقدميه أرض الواقع جذ عنقه وإيقافه عن الاكتمال، ابنه الطبيب المنتظر والرجل الذي يتباهى ببنوته أمام الخلائق.

لكن راوية بنت ومهما بلغت من التعليم فمآلها بيت الزوجية ولن تجني بعد كل ذلك سوى شهادة -ربما لا تملك حتى ثمن إطار توضع بداخلها كيما تعلقها على جدار ساكن يواسيها الصمت بالصمت- وكم لا بأس به من الأموال ينفقها أبوها بلا طائل.

لم يكن الفقر فقر المال وحسب، بل ماتت أمها بعد صراع طويل مع السرطان الذي أنهك جميعا وليست الأم فقط، لم يمض الشهران حتى لحق بأمها أبوها الذي لم يحتمل لزوجته الحبيبة فراقا، أما عن أخيها فلم يترك وظيفة إلا واشتغل بها إلى جانب دراسته كيما يتمكن من إتمامها.

لم يكن لها عون ساعذك إلا خالتها التي أصرت على ألا تتركها وحدها، وأن تستأنف دراستها وتحمل هي أي نفقات ولا تستسلم لأي عوائق،

فكانت لها عوضاً عن الأم التي حرمت حضنها، والأب الذي وقف يوماً والعجز ديدنه والقهر كلمه وهو يطلب منها ألا تذهب إلى المدرسة ثانية، وكذا ابن خالتها حامد الذي سخر قلبه لها وحدها كيما يحمل عنها عناء الفقد، فكان لها الحبيب والأب والأخ، وقف إلى جوارها يدعمها، يقويها، يكون عونها في خوانق الأيام، يمسح عن عينيها أشباح الذكرى مبدلاً إياها بأفراح الحاضر، وتأملات المستقبل مستبشرين، ومع آخر امتحان أدته في الفرقة الرابعة من كلية الآداب كانت في المساء تقام الأعراس وأمام المأذون تقول له: وأنا قبلت بك زوجاً.

هكذا رأت راوية صورتها الأخرى المحتملة - الضائعة التائهة - في حالة لولا عناية القدر بها، ويد الله التي لم تفارقها قط، فشعرت حيالها بالمسؤولية الأمومية والأخوية وكل ما يمكن أن تحمله كلمة مسئولية من شعور أو فعل.

أغلقت راوية المكالمة مع أم هالة وعلى الفور هاتفتم أدهم:

- السلام عليكم أستاذ أدهم.

- وعليكم السلام أستاذتنا، كيف حالك؟

بخير والحمد لله، أود لو تخبرني بعنوان هالة، أرغب بزيارتهم.

- حسناً، أنا في طريقي إليهم، لو يناسبك تخبريني أين أنت الآن وأنا أمر

عليك لاصطحابك؟

- العذر منك، أعطني العنوان وأنا سأصل بإذن الله، فضلا عن ذلك، والدتها أخبرتني أنها نائمة الآن والوقت لا يسمح بالزيارة.

- نعم تحدثت إلى خالتي وأخبرتني أنها نائمة، سأذهب وأنتظر معها أود محادثتها في موضوع هام بخصوص هالة ولكن بعيدا عن حضورها، فإني لا أريدها أن تسمعنا، ويسعدني جدا مشاركتك لنا الحوار أستاذة، فبعدها أثقلنا عليك بكل هذه الأعباء أصبحت الآن واحدة منا.

- يسعدني وجودي بينكم وآمل أن أساعد هالة فعلا.

هيا، أعطني العنوان وأنا سآتي.

- كما تحبين، ستجدينا بانتظارك فلقد قاربت على الوصول.

- جيد نلتقي هناك.

- بمشيئة الرحمن.

أخذت منه العنوان وانطلقت بسيارتها نحوه، حاولت تخمين ماهية الموضوع طوال طريقها الذي لم يكن طويلا أو لربما لأنه يومذاك كانت العطلة الأسبوعية؛ فلم تكن الشوارع مكتظة بالسيارات والسائلين، فاستشعرت نوعا من الراحة والاسترواح في ظل نسائم ربيعية باردة قد فرت من فصلها لتداعبها في هذا اليوم، قد ذهبته شمس الأصيل الخجل من السطوع المحتدم، تتسلل إليها عبر نوافذ السيارة التي فتحتها لتستمع باستنشاق هذه اللطائف السماوية التي تبعث الراحة بالنفوس الكدرة.

لم يسعفها تفكيرها في ذياك الأمر الأدهمي بشيء أبعد من حدود القضية، تركت حبال تفكيرها تنفلت من بين تلايف عقلها حين باغتها نظرات الدكتور محسن - المتورط في قضية هالة - المفعمة بالأسى رغم محاولاته رسم البسمات الممتنة على وجهه أثناء استقباله لمرضاه وترحيبه بهم.

كانت راوية تنفرس وجهه أكثر من استماعها لكلامه حول تشخيص حالتها أو حتى حديثه الذي دار مع حامد عن الطب النفسي وممتهنيه، كانت تبحث فيما وراء ظلال البشاشة المصطنعة عن الصورة الإنسانية المتألمة التي يمكن لها أن تخترقها كيما تستميله تجاه قضية هالة.

وصلت راوية دون أي عراقيل تواجهها، وبالفعل كان أدهم يحمل رهف يلاعبها وأم هالة بانتظارها، رحبا بها ترحيبا حارا وكذا هي، إضافة إلى ذلك عاطفتها التي ظهرت جليا على وجهها تجاه رهف وتقبلها واحتضانها لها وإبقاؤها إلى جوارها ممسكة بيدها الصغيرة في يدها.

لم يمض اللقاء هادئا دون صوت كما يرومون من أجل الحديث بعيدا عن هالة، فقد استيقظت إثر سماعها أصواتا بالخارج قد امتزج بعضها المألوف على أذنها بآخر تشككت في تحديد كنهه، ولم تصدق حتى شكها هذا إلا حينما تلاقتا وجها لوجه بالصالة.

مفاجأة لم تتوقعها هالة قط، أيعقل أن تزورهم راوية بالبيت؟ أي إنسانة هذه التي لا تبذل فقط من وقتها بل ومن جهدها ومشاعرها الفياضة هذه والتي أحستها هالة من احتضان راوية لها؟

شعور لم تعتده حتى مع أختيها اللتين من نفس اللحم والدم حين استقبلتاها بعد عودتها، احتضان يغمرها بالحنان الدافئ الذي ما إن ذاقته حتى تمت دوامه دون انقطاع.

رحبت أيضا بأدهم ولكنه ترحاب عابر جدا مما دفعه لأن يقول:

- صدق من قال من وجد أحبابه نسي أصحابه، فاللهم اجعلنا من أهل الأولى فنحظى بها حظوا، مشيرا إلى راوية.

ضحكوا جميعا من كلماته، واستأذنت الوالدة لتعد لهم مشروبا، فقاطعتها هالة لتؤدي هي هذه المهمة نيابة عنها، كانت فرصة طيبة بالنسبة لموضوع أدهم الذي يرغب بالحديث عنه دون أن تسمع، إذ دنا من خالته وجلس إلى جوارها طابعا على كتفها قبلة وكأنه يشتم منها عقب أمه الراحلة موجهها إليها الكلام مباشرة قائلا:

- خالة، أتيتك من قبل ورددت يدي، وها أنا آتيتك اليوم أمد يدي طالبا يد هالة، أريدها زوجة لي، أتردينها ثانية يا خالة؟

شدهت الأم من مقالته وتبعثرت الكلمات على لسانها لا تدري بما تنطق، تجول ببصرها فتنظر إليه تارة وإلى الواقفة بالمطبخ تارة وتتحول إلى راوية ثالثة.

لما لم يسمع جوابا منها عاودها ثانية مستفسرا:

- لم لا تحببي علي يا أمي؟ أتخذليني للمرة الثانية؟

- وبم أجيبك يا بني، لا تقلب علي مواجعي، اليوم ليس بيدي ولا بيدك، وزوجتك يا بني ما ذنبها؟

انتبهت راوية لكلمتها الأخيرة فحدجت به بنظرة عتاب، تملؤها تساؤلات كثيرة، فطن هو لذلك، ولكن هالة قد أنهت مهمتها وقدمت نحو نحوهم الصامت لدقائق متصلة تحمل إليهم المشروبات. طال السكون فأقلقها أكثر وأكثر نطقت مستفسرة:

- ما بكم يا جماعة الخير؟ لم صمتم جميعا بعدما عدت؟

- أدهم: لأنني أنتظر الرد من خالتي، فقط طلبت يدك منها الآن.

- هالة: ألم ننه هذا الموضوع من قبل؟

- راوية: أنا لا أفهم شيئا.

- الأم: يا بني، لا تخرب بيتك.

- أدهم: ومن قال أن بزواجي من هالة خراب بيت لا سمح الله؟

- راوية: أنا أحاول ربط الخيوط ببعضها، أنت متزوج يا أستاذ أدهم وتريد أن تتزوج من هالة، أليس كذلك؟

أدهم: نعم أستاذة، هو كذلك، وأنت تعرفين مدى خطورة القضية ولا بد من وجودي بالقرب منها ليس كمحام وحسب، فلا بد من وجودي الدائم برابط أوثق من كوني محاميها بكثير.

راوية: أتزوجها لأجل القضية ثم ...؟

أدهم: بالطبع لا، لكن القضية هي التي تجعلني ألح على إتمام الأمر على عجل.

هالة: تمزح، أليس كذلك؟

راوية: اصبري يا هالة، هل زوجتك تعلم بما طلبته الآن؟
أدهم: تعلم ولا تعلم.

هالة وراوية في نفس اللحظة: لغز هو؟

أدهم: لا ليس لغزا، هي تستشعر منذ اليوم الأول بل توقن أن قلبي ليس لها، وتعلم أنه لغيرها، ربما لفترة لم تكن تعلم من هذه التي تملك قلبي، لكنني أوقن أنها الآن تعلمها جيدا.

هالة: وماذا بعد؟ أظن ذلك خبرا مبهجا، ومن المفترض أن أقبل بطلبك فور سماعي له؟

راوية: اصبري يا هالة، دعينا نفهم، وماذا بعد الشعور والمعرفة، هل ستخبرها بأنك تريد الزواج من امرأة أخرى؟

أدهم: ليس الآن، أحتاج لوقت كاف كيما أبلغها، فضلا عن أني لم أطلب أن يتم الزواج بالصورة التي تفهمونها.

هالة: وهذا لغز آخر.

راوية: ماذا تقصد؟

أدهم: كل ما أريده الآن هو زواج على الورق، حتى تكون هالة في عصمتي، قادرا على حمايتها وصحبتها بأي وقت، وريثما تنتهي القضية نتمم الزواج وحينها أكون قادرا على إقناع إيمان بالأمر، فبالأساس أنا لم أر منها إلا كل خير، ولا أرض لها غبنا، لكن ...

راوية: لكن ماذا؟

هالة: زفرت تنهيدة محملة بألف آه مختنقة في صمت.

أدهم: لكن لم أستطع أن أحبها، أو تشغل مكان هالة بقلبي ولو قيد نبضة، هي زوجتي وأم ابنتي ولها وُد واحترام لا يوفيها قدرها، لكن القلب لم يكن لها لحظة واحدة، ومع عودتك يا هالة، استعصى علي بل أصبح محالا مواصلة الحياة معها بدونك، ظلمها أنا وأنت ظلمتي يا هالة.

هالة: لم أظلمك يوما، أنت من ...

أدهم: لا تكلميها، ما كتته لك يوما.

هالة: أنا كتته لك؟

أدهم: لو لم تكونيها، لم لا توافقين؟ يا هالة، زواجي منك حفاظا عليكما وعلى قلبي الذي لم يعد يحتمل وجعا لفراقك، ولا أذى في قربها.

راوية: كلامكما موجه، وأنت أستاذ أدهم صريح أكثر من اللازم، لا أدري.

صدقا أحبيك على صدق كلماتك أم أشفق عليك؟

أدهم: هذه هي الحقيقة ولا أستطيع نفيها.

هالة: طلبك مرفوض يا أدهم، وأمر القضية ها أنا ذا أحلك منه، وسأוכל محاميا آخر.

أدهم: أجنونة أنتِ؟

هالة: بل الجنون ما عرف إلا بك.

راوية: فضلا، اهدأوا جميعا.

أدهم: أستاذن الآن وأمل ألا تدفعيني يا هالة للجنون، فتري الجنون على وجهه الحق.

رمقته بنظرة من اللامبالاة، فاكفهر وجهه غضبا، فكان في لونه كلون النيل في فورة فيضانة.

انصرف تاركا خلفه خالته الغارقة في لجج الذكريات السوداء وقد داهمها النوم فاستسلمت له في خضم حالة الغرق التي تغشتها وهي جالسة إلى جوارهم، فلم تتابع بقية حوارهم، وهالة وراوية اللتان قد قامتتا من مجلسهما وصليا الظهر الذي قارب وقته أن ينفذ، ثم استكملتا الحوار في غرفة هالة بعيدا عن الأم، فبدأت راوية تستفهم منها:

- لم التعنت إذن؟ الرجل يرغبك ولا يريد ظلم زوجته، أتودين أن يطلقها؟

- هل أنا قلت ذلك؟ بالطبع لا أريده أن يطلقها هي، أنا لا أريده أن يتزوجني أنا.

- لكنه يجبك.

- أعلم ذلك، ومن قال أني لا أحبه؟

- ولم إذن ترفضين؟

- لأنني أحبه.

- لغز جديد أنت الأخرى؟

- لا، ليس لغزا، ما بيننا أوثق من أي وثيقة تحفظه.

- افهميني يا هالة، هل قصة الحب هذه منذ الصغر أم أنها جديدة بعد عودتك؟

- ياه يا أستاذة، يبدو أني لم أحك لك شيئا عني وعنه.

- لا لم تحدثنني عنه سوى أنه محاميك وابن خالتك؟ ثم ما محل أستاذة هذه من الإعراب يا أستاذة؟ أنا راوية فقط، ألا تقبلين بي أختا كبرى لك؟
- بل شرف لي لقبك ومكانتي عندك، وسعادتي كل السعادة وأنت معنا اليوم.

- بل سعادتي أنا لا يمكن وصفها، على كل حال دعك من سعادتنا واحك لي عن السيد روميو، أقصد السيد أدهم.

- أضحك الله سنك يا راوية.

- حسنا، لو أوجزت ما بيننا من شعور فسأخبرك بأن هذا هو حب العمر الذي لا يتكرر ولا يذاق ولا يستشعر إلا مرة واحدة، فلقد تعاهدنا على الحب منذ كنا في أرحام أمهاتنا، استقبلتنا الدنيا فاتحة لنا ذراعيها، فكبرنا ونحن نخطط ونحلم ثم ما لبثت أن حرمتنا وفرقتنا ثم جمعتنا وها هي الآن سنفرقنا من جديد.

- كيف تفرقكم؟ بل تبغي جمعكما للأبد.

- نعم ولكن على حساب قلوب أخرى لا ذنب لها، أبسط الأشياء ابنته، ما ظنها عني إن تزوجت بأبيها؟ وما شعور أمها المكلومة فيه منذ البدء؟ أتظنين أنهما ستراني القديسة الشريفة أم اللصة سارقة رجلهم وعماد بيتهم وفرحة عمرهم؟

- الأمر شاق جدا عليكم جميعا، ولا أدري ماذا أقول؟ كان الله في عونكم جميعا.

- أتعلمين يا هالة؟ أنت عملة نادرة في هذا الزمن، امرأة أخرى في مثل موقفك مع أدهم لربما هي من تفننت في جذبها لها ثانية وألحت عليه بالزواج.

- امرأة أخرى لم تتجرع الفقد والحرمان طيلة سنوات عمرها، امرأة أخرى لم تقاس غضبات الليالي على قلبها تذيبه قهرا، ثم تعيده إلى هيئته ثم

تمزقه عرقا عرقا وتعاود نسجها من جديد بداخله، امرأة أخرى لم تتبعثر روحها أمامها في كل لحظة ذل وانتهاك لحرمتها، ثم تستجمعها في وهن بينٍ وتنتظر لحظة جديدة قادمة بالطريق. أما أنا فذقت الكثير الكثير؛ فلن أذيق أحدا ولو شعورا واحدا من كل هذا الذي ذقته ما استطعت أن أعبر عنه وما لم تسعفني فيه الكلمات.

في تلك الأثناء رن هاتف راوية كما أنه رقم خاص لا تعرفه، فإذا به شخص يتحدث بلهجة شديدة معنفا إياها:

- هل أنت راوية الراوي؟

- نعم أنا هي، من معي؟

- ابتعدي عن هالة وقضيتها وإلا لن يطالك إلا كل شر؟



الفصل العشرون

العهر السياسي في مخدم الفضيلة يتبرك.

صاحب النقيصة يوقن في داخله أن كل الناس مثله أو أشد نقصًا، متخذًا من تيقنه هذا وقاء لوخز الضمير وتقلبات النفس إذا ما هاجت عليه وماجت ذات صحوة محتملة الإتيان، ومن ثم فالكل موصوم وملطخ بنتاج جريرته، الكل مثله، فقط بحاجة إلى أن يتعرى أحدهم فيتبعه الجميع دون معارضة، ومن ثم فما إن أزاح ستار الفضيلة التي يقف وراءه على مسرح الحقيقة يتجلى بوجهه الحق، حتى تسقط كل الأقنعة فلا اعتراض ولا صد ولا مقاومة، لكن المفاجأة حين يجد من يصده ويدفعه بعيدا، حتى لا يصبه من قدره شيء.

إن الشرف الذي يتناثر على جبين الكلمات الملحقة بأسماء كثير ممن يشار إليهم ببنان الساسة الأفاذا في بلادنا ما هو إلى مسحوق زينة ردئ الصنع يطلون به تأليل العهر إذ تقيحت بها جلودهم البراجماتية التي لا تقبل بغير منفعة الأنا بديلا وإن هلك ما دونهم، ظانين أن لن ينكشف لهم ستر ولا

تفتضح لهم عورة، وحتى إن كشفت فمن ذا الذي بمقدوره التفوه في حقهم وهم الذين اتخذوا من الأسوار الخلفية لكل سلطان بابا فولاذيا ذا حماية مطلقة؟

ولكن يأبى الله إلا أن يذلهم مهما ادعوا الغطرسة والقوة، حتى وإن كانت هذه الذلة بينهم وبين أنفسهم وهم يعضون على أناملهم من الغيظ حين يجابههم من دونهم جاها ومالا وقوة، بل ويسقطهم في عقر دارهم ما بين حياة وموت، تتعاضم ردات فعلهم الغوغائية تجاه من لفظوهم وناطحوهم متكئين على منسأة اللقب المبجل والسلطان المعظم، فيتشذر من فيهم الوعيد والويل لكل من عصى وخالف ولم يطع.

حاولت راوية ضبط انفعالاتها إثر المكاملة مجهولة المصدر حتى لا تلتفت هالة وتلحظ شيئا، فيكفيها ما تمر به من ضوائق تلك دواخلها شعورا على فكر، ويقينا على حدس.

استأذنت في المغادرة متعلقة بعدم التأخر على الأولاد وأبيهم، ترجتها هالة المكث وقتا أطول فلکم تود أن تزفر لها بكل ما اعتمل صدرها من حب عليل، لكنها وعدتها بتكرار اللقاء في أقرب فرصة وسيعاودا التواصل عبر الفيس بوك؛ فلقد أتاها أدهم بهاتف جديد مزود بالانترنت بدلا عن ذلك المأخوذ منها في مقابلتها المسئول النذل.

ذهبت راوية بعد عناق ووداع على أمل باللقاء، ثم وقفت هالة ترقب طيفها المنسدل وراءها حتى اختفى، وقد تسربت الشكوك إليها بأن في

الخطب أمر جلل وذلك من نبرة صوت راوية المضطربة وقطعها للحوار فجأة واستئذناها.

لم تستطع راوية أن تكمل سيرها دون فحص متصفحها، فأوقفت السيارة على أحد جانبي الطريق وفتحت هاتفها، فإذا بها تجد أنه تم اختراق حساب الفيس بوك الخاص بها، هاتفت أدهم على الفور:

- مرحبا أستاذ أدهم.

- يا هالا، كيف حالك أستاذة؟

- لقد اتصل بي أحدهم من رقم خاص وهددني إن لم أبتعد عن قضية هالة، بعدها حاولت الدخول إلي حسابي على الفيس بوك فإذا به قد تم اختراقه، أظن بل أكاد أجزم أن المسئول الغادر هذا هو الذي يهدد، ووصل إلي عن طريق حساب هالة الموجود على هاتفها الذي صادروه منها.

- هالة مسحت الحساب من على هاتفها نهائيا قبل الدخول، ومن ثم لن يستطيع أن يصل إليك من خلالها، لكن في لقائنا الأول معه ذكرنا له جهدك ككاتبة لها ثقل أدبي وتواجد إعلامي على الساحة وأنتك تساعدين في القضية بالتوثيق الأدبي لها وبطرحها كقضية نسوية حقوقية تشغل بال الرأي العام الداخلي والخارجي.

- نعم، فهمت، لكن ما الحل الآن وكيف سنتصرف؟

- سأحاول الوصول إليه وأرى ما يمكن فعله معه، فهذا الجبان خائف من أن نثير البلبلة حول اسمه، لما صدر منه مع هالة، كبرياؤه يوجعه بأن

واحدة كهالة التي يراها وفق جبروته نكرة لا تساوي شيئاً لا تصده وحسب، بل توقعه أرضاً سابحاً في دمه، أنا شخصياً ذهلت من الجرأة التي تملكته هالة فأعطتها هذه القوة التي كسرت أنف عظمته.

- لا تتعجب، إنها معية الله ومدده الذي لا يعدله مدد، رزقنا وإياكم إياها.

- صدقت أستاذة راوية ونعم بالله، اللهم عوناً.

- على أي حال باب الطبيب ما زال مفتوحاً أماناً، سنحاول استقطابه لمناصرتنا، سأفكر بطريقة يمكنها أن تكون مدخلاً للحديث معه، ولكن علي أولاً استعادة الحساب.

- حسناً، أي مساعدة؟

- سلمت، لا تقلق، معتادة أنا على محاولات الاختراق هذه من أصحاب النفوس الشوهاء.

- في رعاية الله.

- مع السلامة.

أعادت راوية تشغيل محرك السيارة وأكملت سيرها باتجاه بيتها وهي تفكر في هالة وما تمر به، وعجبها يتزايد كلما استرجعت الحوار الذي دار بينهما على انفراد، وحتى كلام أدهم الصادق ما زال يتردد صدها في أذنيها، سائلة نفسها أيعقل أن تكون مثل هاته القلوب حية في عالمنا الحالي؟

أيعقل أن يدافع الحب عن حقه في البقاء رغم الدمار الذي يحاوطه؟ رغم الجور الذي يقتله بنصل اللاءات في كل تصريح أو تلميح به؟

أيمكن أن ينجو الحب بنفسه والروح في الرmq الأخير من الصراع مع هذا الجور المغشّي كل شيء من حولهم؟

ظلت أطياف الأسئلة تغدو وتروح أمام مخيلتها، فانشغلت عن القيادة ومتابعة المرور ولم يفقها إلا صوت كلب سابل الطريق ينبح بشدة كادت أن تدهسه، فانتبهت وأوقفت السيارة فجأة كيما تفاديه واستكملت المسير.

في بيتها أتي المساء على غير عادته، فلم يكن للحوارات المعتادة بينها وبين حامد مكان في تلك الليلة الصماء، جلسا أمام شرفة غرفة النوم المطلّة على نهر النيل يحتمسان القهوة، ويراقبان أضواء المدينة تترقرق فوق سطح عبايه العذب، نسائم باردة تتخلل بخار القهوة المتصاعد فيعادل حرارتها على اللسان، بدأ هو حديثه بعد رشفتين محاولا استدرار الكلام من فيها، وتذويب السكون المتصلب على محياها قائلاً:

- قهوتك الليلة مختلفة.

- كيف هي مختلفة؟ لم أغير شيئاً في طريقة إعدادها.

- القهوة واجمة كذا الوجوم المفترس ثنايا وجهك حبيبي، أتعلمين؟ أشعر بطعم الحزن في فمي الآن.

- سلامتك من الحزن يا عزيزي.

- إذن ما الذي يحزنك إلى هذا الحد؟ حتى أنك لم تسأليني كعادتك عن يومي، كيف كان في المشفى ولا عن مرضاي، وتلك الحكم التي يدلون بها في كل جلسة علاجية تشعرنا بأنها رسائل ربانية تأتينا بالوقت المناسب، فلا نكاد نصدق أن هؤلاء هم المرضى ونحن الأصحاء؟

ابتلعت على مضض رشفة من فنجانها محاولة استساعة طعم المرارة الممزوجة بالحزن العصي على الاختفاء، ثم أكملت:

- وما أدراك أن حزن القهوة قد نهل من نبع حزني أنا؟ ألا ترى تلك الجموع الغفيرة الجالسة على الكورنيش من أمامك؟ ما يدريك؟ لربما اتفقوا جميعهم على بث شكواهم الليلة لهذا النيل الملقب بالسعيد، وهو في الحقيقة بينه وبين السعادة مسيرة أيام وليال يقطعها الراحلون في دروب الصحراء على ظهر الدواب، حتى لف المساء كله هذا الحزن الذي تشعر به الآن.

- حتى في نقاشاتنا تتأدبين؟

- أنت تعلم أن الأدب ما ولد عندي إلا من رحم الحزن.

- اقترب منها مادايده متحسسا الحزن الغازي ثنايا خدها الأورد، الساكن تعابير وجهها المقضب محاولا إزاحته عنها بمزحة خفيفة قائلا:

- أعلم يا أديبتي.. أعلم. ولكن ما ذنبنا نحن أن نراك واجهة دوما.

أما ترين أنك الآن أغرقتنا بالأدب حتى كدت تنسينا السبب؟!

حاولت إقناع شفيتها بالانفراجة شيئاً ما مبدية ابتسامة حتى ولو خاوية
الحس قائمة:

- الحزن هو هالة وقصيتها وقصة حبها وأدهم ابن خالتها.

- ابن خالتها؟

- هه، نعم، ابن خالتها.

إذن ما أعظمها من قصة! ما دام ابن الخالة.

كانت جملته كفيلة باستدعاء طيف ذكرى بهية المحيا من ماضٍ مصون في
قطيفته المخملية على رفوف الذاكرة الروحية والقلبية والعقلية، فردت على
جملته بعين محبة قبل لسانها:

- طبعاً، لا بد وأن تراها عظمة كقصة حبك يا ابن الخالة.

وهكذا أثار التشابه ضحكهما معاً، فانفجرا مسترسلين بتذكير أحدهما
للآخر بالذكريات؛ فأمست تتراقص على ذر النسام طرباً وكأنها استعارت
الفرح من الدنيا كلها كيما تلقيه عليهما في تياك اللحظة المفعمة بالنشوة، لتبرق
من أعينهما كل سنون الحب والود والرحمة.

تبادلا النكات عليها ونسيا الحزن الذي انتابها، ما أخرجهما من وصلة
الضحك إلا هاتفه يرن باسم الدكتور محسن، فصمتت كيما يحبيه، فإذا بالأول
يسأله عن مواعيد تواجده في عيادته الخاصة من أجل زيارته، فأخبره بأنه
سيكون متواجداً هناك خلال ساعة من حينه وسيكون بانتظاره.

وبمجرد انتهاء المكالمة، عادت راوية إلى الجدية وأخبرته بما كانت تخشى أن تخبره به حتى لا يتمكن منه خوفه عليها ثانية فيطالبها هذه المرة بالابتعاد التام خشية أي ضرر قد يلحق بها، فالأمور أصبحت أكثر تعقيدا، وهو لن يطبق مجرد تخيل بأنه قد يمسه أذى، فكيف إذا وقع وكان حقيقة، أمسك يدها بين يديه وراح يتأمل خرائطها، متحسسا كل خط فيها كمن يطمئن على سلامة وطنه، راجيا إياه أن يكون بخير فلا موطن له غيره ولا راحة في غير حماه، رفعت يدها على كتفه تربت عليه تبادله الاطمئنان قائلة:

- أعلم وربي كل ما في خلدك، ولا أخفيك خوفا، لو رأيت يا حامد ما رأيته أنا اليوم من انكسار ووهن وتمزق في عيون تلك المسكينة، لالتمست لي من الأعداء ما يجاوز الحد بكثير.

- حسنا يا حبيبي، لن أتكلم ولكن لا تمنعيني من خوفا.

- خوفك يخيفني، أريد تشجيعك الذي اعتدته.

- حاضر لك ذلك، ولكن سأذهب الآن حتى لا أتأخر؛ فلقد قاربت الساعة على الانتهاء وما زلت هنا.

- وفقك الله، لعل زيارة محسن لك اليوم يكون فيها خيرا كثيرا، كنت أفكر في كيفية توطيد العلاقة معه، فساقيه الله إلينا دون عناء منا.

- حسنا، لنرى.

أتم هندامه متطلعا إلى نفسه في المرأة يسائلها عن مدى أناقته، فأخبرته صاحكة أنه تزوج وانقضى الأمر فلا حاجة للتدقيق في مثل هاته الأمور، ضحك إثر ضحكها قائلاً:

- ولكن لازال وفق الشرع بقية ومن حقهن أن أتهدمن لأجلهن.

- إذن أنت بحاجة إلى أن تهدم كل ما فعلت وتعيده من جديد، فالألوان غير متناسقة، أنت بحاجة إلى ارتداء شيئا آخر كبيجاما كاستور مخطط مثلاً كيما تكون أكثر أناقة.

- هه، امرأتي الأولى مستفزة.

- مثلك بالضبط حبيبي، جيناتي ورثتها منك.

التقط مفاتيحه من فوق "الكومود" المجاور للسريـر، وودعها تاركا قبلة لها يحملها نسيم الغرفة المعبق برائحة عطره، فالتقطتها مستنشقة إياها في حبور.

في المملكة بربوعها رياضها وحتى قواحلها كان العهر قد أخذ غفوته بين سحر ونحر الفضيلة المطأطأة الرأس في خضوع زائف تسبح بحمد الأول من الصالحين الزاهدين، ثم.. ثم استيقظ جائعا بعد حزمة الإرضاءات التي تكرم بها ليس فقط على رعيته المؤمنة به وحسب؛ بل طال سخاء يده الطولى إلى من دونهم، ظنا منه أن الأمن قد استتب من جديد متغلغلا الأنفس الخفية للناس قبل أزقة سُكنَاهم، وأن الكروش قد امتلأت وشبعت، والعقول

أثقلت وخملت ومن ثم فلا أصوات تنادي بمزيد من الزاد، ليتفرغ هو بكامل قواه وجوانحه لنفسه المضحية الموثرة للمصلحة العليا على مصالح شخصه الكريم، فهذا هو الآن ينتصب واقفا وقد استعاد لياقته الشهوانية، باحثا عن زاده النسوي الذي نصب جدا في هذه الفترة التي فتح فيها المنبر العالمي للإعلام كله عينيه عليه؛ يترقبه راصدا له زلاته وعثراته الأخلاقية والقيمية، ينتظر سنوح الفرصة أو على الأغلب أوامر السيادة العليا بالنشر.

أعطى الأمر إلى سماسرته بمواصلة العمل من جديد؛ فقد اشتاق إلى معاودة الأيام والليالي السالفة، فهبوا جميعا ملين أوامر ولي نعمتهم، فجابوا بلاد المسلمين وغيرها، ولربما تأتيهم البلدان حتى أقدامهم طوعا وكرها، فتارة يتعاون الأعراض بأبخس الأثمان وتارات يهدون بها، وأخرى يكبشونها من دون ملام؛ كيما يريقونها في قصور السيادة، وزادوا على ذلك مستغلين الفقر المدقع الذي غرقت به الشعوب المنهوبة، إذ دخل الغلمان قائمة المشتروات والمنهوبات لتضاف إلى سجلات العهر التي طفحت بها أكيال الستر خلف أعلام حرمت على أقمشتها أن تنطق ولو سهوا ببهتان.

لم يغفل أدهم فكرة محاولة إقناع المسئول بترك هالة وشأنها، وألا يعترض طريقها ولا قضيتها في مقابل ألا تنفوه بشيء عنه، نعم هو يداري في قرارة نفسه أن هذا تنازل وضعف، لكن لا شيء اسمه ماء الجبين في حال استشعار ضياع المحبوب، لا شيء يساوي لحظة خوف من فقدته أو حتى احتمالية مسه بسوء. الخيط الوحيد الذي يمكنه من الوصول إليه هو القاضي، إذ ارتأى فيها

محاولة لعلها تصيب، إما بصحو ضمير هؤلاء المستشرفين خلسة من طبعهم الدوني أو حتى تغاضيتهم لانشغالهم بفريسة أغنى وأسمى، فلا يدري.

هاتفه مرات ومرات وهو لا يجيب، ضاق صدره بعدم رد الثاني عليه ولكن لم تضق به رغبته في الحفاظ على هالة بأي سبيل ممكن، فقرر الذهاب إليه في مكتبه بالمحكمة بعد الانتهاء من جلسات الغد.

لم تستطع راوية استعادة حسابها على الفيس بوك هذه المرة، فأنشأت آخر بديلاً ريثما تسترد الأول، تواصلت منه مع هالة لتطمئن عليها خاصة بعد حالة الحزن التي استبدت بها الصباح:

- مساء الخير أو صباح الخير. لا أدري أيهما يصلح يا عزيزتي؟

- من أنت؟

- أنا راوية؛ هذا حساب جديد أود أن أحادثك منه بعيداً عن الإزعاج والرسائل المتوافدة، ولا أملك كيما أرد على جميعها، فمن كثرتها هذه الأيام أغلقتها اليوم كيما أهرب ببعض الوقت من مسئوليات هذا الأزرق.

- جميل جداً، أعانك الله، أما عن الصباح والمساء فكما تريدين يا كل الخير الصباح أو المساء أو كليهما.

- يا سلام، يبدو أن مزاج هالتنا رائق الآن.

- هه، رائق جداً، يكفيني زيارتك واهتمامك.

- ماذا قررت في طلب أدهم؟

- قرارى هو القرار لم يتغير.
- وما هو القرار؟
- تعلمينه جيدا.
- ما أعلمه أنك لا تطيقين له بعدا.
- نعم، ولكن لا أطيق له ولمن يحبه أذى.
- حسنا يا هالة، الأمر لك.
- أشكرك يا غالية، أخبريني، هل وصلت لجديد مع دكتور محسن أم أن أمره انقضى وليس منه فائدة؟
- لا، لم ينقض، لقد ذهبت إليه كمريضة، وحين علم أن حامد زوجي طبيب نفسي هو من تودد إلينا فلعلها رحمة القدر بنا يا هالة، واليوم فقط كان عند زوجي عيادته الخاصة، لكن لا أعلم ماذا دار بينهما إلى الآن؟
- يارب خيرا.
- يارب.
- سمعت صوت حامد قادما من الخارج، فأسرعت تنهي محادثة هالة واعدة إياها بإخبارها بكل جديد.



الفصل الحادي والعشرين

ومن نفس الكأس يجرعنا القدر

هل ترتدع النفس بعد انتقام القدر منها فتستفيق وتواصل السير بطريق الحق دون عناء؟ أم تبدأ في مرحلة جديدة من جلد الذات حتى تلقي بصاحبها جثة هامدة؟ أو تظل توسوس له حتى تورده موارد الشتات؟

الأنفس حين تكون غارقة في بحر الشهوة المحرمة لا يستيقظ لها حس، ولا يشب لها ضمير إلا إذا عوقبت بمثل فعلها في أقرب نفس إلى نفسها، هنا وحسب تعمل مراكز الانتباه والإحساس والضمير والفكر ولكن...

لا شيء بعد لكن سوى العلقم الذي نتجرع كؤوسه المترعة بالندم غير المجزي، وغير المغير للحال، والمعيد لما زال ليل نهار.

استقبلت راوية حامد بلهفة ليست كتلك التي تستقبله بها كل يوم، إذ كانت لهفة الليلة لتعجلها معرفة تفاصيل اللقاء الذي دار بينه وبين الطبيب

المتورط في قضية هالة، ظلت تسأله عما حدث ومتى جاء إليه؟ وكم استغرق الوقت؟ فعاجلها بالرد:

- مهلا يا راوية، أستبدل ملابسي -على الأقل- وأحكي لك كل شيء.

- آسفة، لكنك تعلم مدى أهمية ذلك اللقاء بالنسبة للقضية.

- نعم، أعلم، يبدو أننا سنكرث كل حياتنا للقضية وصاحبها.

- لم تقول ذلك؟

- لا تشعرين بأن مدار حياتنا كلها أصبح حول هالة وقضيتها؟

- لا تدري لعل الله يفرج عنا بها كربة من كرب يوم القيامة.

- تلجميني بحجتك.

- احكِ لي ما حدث إذن.

- اسمعي إذن، كما حكى لي فقد قال:

مهنتي طبيب نساء وتوليد، بعد تخرجي عملت بأحد المستشفيات الحكومية، وقضيت جل حياتي المهنية بها، لم تساعدني أحوالي المادية من فتح عيادتي الخاصة، ومن باب الصدق كنت قد استسلمت لوضعي ورضيت بما أتقاضاه من عملي الحكومي وانتهى الأمر، مرت الأيام والسنون وزادت الأعباء المادية للأسرة، حاولت البحث عن عقد عمل في أي دولة أخرى، ونظرا لطول مدة الخبرة، ومن قبلها إرادة الله جاءني ما أتمنى، سافرت إلى

المملكة للعمل بإحدى المستشفيات الكبرى، اتفقت وزوجتي على أن أسافر بمفردي وأتركها وأبنائي في بلدنا لاستكمال دراستهم وحياتهم كما هي؛ إذ أن ابنتي الكبرى قد قاربت على الالتحاق بالجامعة على أن آتيهم كل إجازة سنوية كما هو المعتاد أن يفعله العاملون بالخارج.

بعد فترة ليست بالطويلة طُلب مني إجراء عمليات ترقيع لبعض النساء المتزوجات وذلك وفق رغبة أزواجهن، كان الأمر في بدايته غريبا علي، لكنها بعد فترة من العيش هناك وبعد تقصي من زملاء المحيطين، أخبروني أنها ثقافة لدى بعض الطبقات ولا ضير في إجراءاتها، ثم تطور الأمر بعد ذلك إلى إجراء ذات الجراحات لفتيات صغار فقدان عذريتهن دون الزواج، تسربت إلي المخاوف ورفضت رفضا شديدا في بادئ الأمر؛ إذ إن الفتيات من جنسيات مختلفة، ولا أهل لهن، جميعهن يأتين برفقة رجل أو اثنتين، هما من تعاملت دوما معهما، المهم في البداية توجهت لإدارة المستشفى بعد تفكير كثير فكانت المفاجأة أنهم على علم بذلك، بل واستغربوا رفضي لإجراء الجراحات للفتيات، متعللين بألا شأن لي إلا بعمل الموكل به فقط.

قاطعت راوية حامد متسائلة:

- كيف ذلك؟ هل يمكن لإدارة مستشفى كبير كهذا أن توافق على مثل هذه الأعمال المنافية لمواثيق المهنة؟

- الأمر يا راوية ليس له علاقة بمستشفى كبير أو صغير، الأمر متعلق بالنفوس التي تدير ومدى إنسانيتها، وما تؤمن به من قيم سامية.

- وما الذي أجبره محسن أن يكمل؟ لم لم يستقيل وينتصر لضميره وشرف مهنته؟

- سأكمل لك كما قال، اصبري ... فلقد سألته نفس سؤالك وهكذا أجاب:

الإغراءات المادية كانت قد وصلت أوجها وفي ظل احتياج الأسرة إلى المزيد الدائم من المال، وافقت على إجراء مثل هاته الجراحات، وكذلك رفقتي من الأطباء الآخرين الذين لم يمانعوا ولم يعارضوا من الأساس كانت تدحض كل وخز يشيكني ما إن تراجع، وإن كنت الآن لا ألقى بخطئي على شماعتهم؛ فلا دينهم ولا مبادئهم تمنعهم مما يمنعي منه ديني وقيمي.

قاطعته راوية للمرة الثانية معقبة:

- أعمته النقود واستسلم للاستسلام.

- فعلا لم يجد مَنْ يُعلي من صوت الضمير عنده وقتذاك، كل ما حوله كان يُخرس أي تفكر يعترض على ما يطلب منه، دعيني أكمل ولا تقاطعيني، أريد أن أنام، نفدت كل طاقتي معه اليوم.

- إذن نم الآن ونكمل غدا.

- أخبرك جيدا، ستظلين مستيقظة حتى الصباح تضربين أخماسا في أسداس وتقلبين جوارى في الفراش، وكأنك على جمر ترقدين.

- هه، أكمل إذن.

تابع حامد ما جاء على لسان محسن:

ومن هنا بدأت معرفتي برجل ثري كان يستجلب العديد من الفتيات متعدّدات الجنسيات، لكن الملفت فيهن جميعا الجمال الأخاذ، والأنوثة الساحرة عنوانهن جميعا، الأمر كان عجيبا وغريبا علي، ولكن سأعود وأقول: إن الرضا التام من قبل الإدارة والمكافآت المتزايدة مع كثرة الحالات، وهذايا الثري هذا - والذي علمت فيما بعد بأنه سمسار - لا طاقة لي برفضها أو حتى عدّها؛ إذ كانت دافعا قويا لي في إخماد فورة العقل؛ فالجميع راضون مرضيون، لا عواقب تخشى ولا مساءلات تطرح من الأساس.

الطرف الوحيد الذي لم يبد شيئا من اعتراض، ولم تتلفظ شفاههن بكلمة غير الآه بعد الإفاقة من التخدير، هن الفتيات حيث الرهبة التي كانت تعتلي وجوههن ونظرات الرجاء اللاتي كن يرسلنها بين حين وآخر كانت هي الشهب التي أقذف بها في أحلام الليل وغفوات النهار.

لا أخفيك سرا، للأسف تولد عندي شعور بالآف الشيء مع مرور الوقت، ومع تكرار مثل هاته الجراحات وزيادة عددها اعتدت على الوضع حتى أصبح اسمي ومكتبي مخصصا لها وفقط، لا أقوم بأي عمليات أخرى تُمت للقسم بصلة، وهكذا استمر الحال لسنوات حتى جاء القدر بسكينه المسنون، وفي قلبي غرزه دون إنذار، فكانت الضحية ابنتي الكبرى.

اعتدلت راوية في جلستها فور سماعها الكلمة الأخيرة وأحدث في حامد بناظرها، وتنهد كأنها يعطي لنفسه فرصة للاستعداد لما هو آت من وجع مترامية آلامه في كل تفصيلة من تفاصيله، ثم أكمل كما قال محسن:

ماتت ابنتي وهي تجري نفس الجراحة التي قضيت شطرا من عمري في إجرائها دون أي شعور بالجرم، إذ نشأت بينها وبين زميل لها علاقة حب ووعود بزواج مستقبلي، تأججت نيران العلاقة ولم تمض في طريقها المرسوم بفرشاة الحب العفيف، وغلبتها رغبة الجسد، وحادت إلى الزلل والرذيلة، لتستفيق زوجتي على دمار خلفه إهمالها للأولاد وانشغالها بشراء هذا العقار وتلك الفيلا وهذا الساليه، وهي في ظننها أنها تؤمن مستقبلنا وتعينني على تدبير شؤوننا المالية.

لم تصمد البنت طويلا بعد أول لقاء لها مع ذاك الشاب الذي سلبها روحها قبل جسدها، ورمى بسهامه الملعونة في موضع عفتها فأراق دمها، لم تجد البنت بدا من العودة إلى أحضان أمها مذنبه تبكي ندمًا، وتتفرض دواخلها حسرة على ما اقترفته بحق نفسها بعدما تخلى عنها الوغد الذي سلمت له نفسها بكل سذاجة، وعادت إلى أمها فلم تجد سوى خيالاتها ولم تجن من أضلعتها سوى السراب، فهي لا تملك وقتا في ظل انشغالاتها لتستمع إلى ابنتها الموجهة حد الانهيار، لجأت إلى إحدى زميلاتهما التي حاولت مساعدتها بطريقتها، فكان الموت النهاية الحتمية لها، صحيح أنها لم تمت جراء الجراحة ذاتها، ولكنها ماتت خوفا وكمدا على نفسها؛ إذ لم تحتمل المشهد آن العملية.

رهابها أو هنها حتى توقف القلب عن النبض، وتعطل الدماغ، وصعدت الروح إلى خالقها، تاركة إياي أجر أذيال خيالي ومن قبلها ذنوبي المقترفة بحق كل فتاة مثلها، فلقد آتاني ما لم أكن أتوقعه، ولم أحتمل وقوعه ولم أقدر على التصدي له بشيء من قوة، فمن منا يقوى على انتقام القدر منه؟

فمن من أثار لفلذة كبدي؟ من أمها أم مني؟

حين قرأت رسالة ابنتي المخبأة في درج مكتبها التي تقول فيها:

(أبي الغالي، وإن كنت على يقين بأنك ستبترأ مني، ما كتبت إلا لأطلب منك السماح، لكن أعلم أن مثلي لا يستحقه من أب مثلك، كنت نعم الأب وكنت بسّ الابنة، إن لم تطاوعك أبوتك على غفران ما اقترفت، فادعُ الله لي، فربما يغفر لي إنه على كل شيء قدير).

هنا سمع حامد نشيج راوية، واحتدام الآهات في صدرها، حتى كادت أنفاسها من شدة حرارتها تحرق ذر الهواء عند ملاقاته، فعاجلها قائلاً:

- لا بلينا في فلذاتنا ولا ذواتنا يا عزيزتي.

- آمين يا رب العالمين، ما هذا الوجدع الهادر؟ كيف لبشر أن يتحملة؟

- إنه الجزاء الذي تعتدل به كفة الميزان، أجرم وتمادى فكان جزاؤه من جنس عمله.

- شاق جداً على النفس أن تحتمله، فماذا فعل بعد ذلك؟

- سألته ما سألتني، فأكمل والدموع من عينيه قد ذرفت، والتي لو اجتمع عليها كل أسباب المواساة كي يوقفوها ما وقفت، بكاء يا راوية لم أشهده على رجل قبل، فكما قال:

لم أحتمل رسالة ابنتي التي مزقتني تمزيقا، انتزعت أضلعي من حشاي وفرقتهم ضلعا ضلعا، وتركت غرايب الانتقام الجوعى تقف على جسدي المفتوح لتأكل من لحمه المتجيف رغم وجود الروح عالقة على أطرافه بين الموت والحياة، فتمنيت الموت حقا، تمنيته في كل نفس يخرج مني، فأتمنى عليه أن يكون الأخير وألا يدخل غيره، ومع كل نفس يدخل إلي أتمنى انحباسه فلا يخرج، ولا أخفيك سرا: لقد أقدمت عليه أكثر من مرة، لكن وجه صغيرتي يتبدى لي عابسا، تبعدي بيديها وتقول:

(لا، ليس فيه الخلاص، ليس فيه الخلاص، فحتى الموت كان يركن لها ويتعد عني ولا يسعفني، وها أنا ذا تُركت حيا لأعذب بجريمتي طيلة العمر).

رأيتُ بأَمِ عيني زوجتي التي تمكن منها جشع الثروة والمال، استشعرت أن حسرتها على التخلص من كل شيء فاقت حسرتها على فقدان ابنتها، الشعور الذي قتلني من هذه المرأة التي ضيعت ما كان بإمكانها المحافظة عليه وإن كنت عاصيا مذنبا، لكن ما فائدة الندب على ما مضى؟

للعلم يا حامد كل شيء في الحياة كان يدفعني إلى التخلص من حياتي، لكن القدر دائما ما يكتب لها الامتداد، كنت أراني بعد كل محاولة انتحار

تفشلها الصغيرة وأعود لذاتي وأستفيق لأيام ثم تتلبسني حالة الاكتئاب من جديد، كنت أحاول التقرب إلى الله في أوقات الإفاقة، أحاول التثبت بها بقدر المستطاع، ومع المهدئات التي كانت حالة الاختناق تفقد حداثتها تدريجياً ولكن لا شيء يستمر على وتيرة واحدة، حتى كدت أن أجن .

نظر حامد إلى راوية ليخبرها بردة فعله معه إذ كانت:

- استرخ وخذ نفساً عميقاً وأغمض عينيك ولا ترهق ذهنك، فكل شيء سيسير طبيعياً مع العلاج، كل ما تعانیه هو جراء الشعور بالذنب الملاحق لك والذي يحاول أن يفترسك بهجومه عليك بين فترة ضعف وأخرى، أما حاولت أنت أن تصارعه وتكفر عنه بطريقة ما من قبل؟

- حاولت وكانت أول وآخر خطوة فعلتها بعدما تركت المملكة بمن فيها وبما فيها وعدت لملاقاة الفجيعة في أرض الوطن، استبرأت من كل أموالى التي جمعتها، وتنازلت عن كل العقارات التي اشتريتها زوجتي لدور خيرية، ولم أحصل منها إلا على ثمن تكاليف أجهزتها والتي قررت أن أجعلها وقفا لخدمة الناس دون أجر، وحتى عمليات الولادة وأي جراحات تكون بمبالغ زهيدة فقط لتغطية النفقات، واكتفيت براتبى الحكومى لطعامى وشرابى وأهل بيتى.

- جميل جداً، خطواتك فعلاً تستحق أن نقدرها.

- أتقدر ابنتى المفقودة بهال الدنيا؟ أتساوى حسرتها وهوانها على نفسها؟

- لا، لن تقدرها كنوز الدنيا، لكنه القدر وأنت لا تدري لعل الله أراد بك خيراً، وعفر لك ولها.

- ولكن...

- لا ترهق نفسك ولكن، دعنا نكتفي بالحديث إلى هذا الحد اليوم وسأكتب لك بعض الأقراص، ستساعدك على تنظيم نومك كثيراً وتهدئة انفعالاتك.

توقفَ عن الحكي وهو يقوم من كرسيه المقابل لها متوجهاً إلى سريره، فلحقت به تسأله:

- وما الحل؟ كيف نطلب منه مساعدتنا؟

- الصبر يا راوية، كل شيء في وقته، لا تتعجلي الأمور، سأخبره حين أجد الوقت مناسباً ونرى رد فعله، فأنا على يقين بأنه سيساعد ولن يرفض، ففي مساعدته لهالة علاج فعال لحالته.

- أتقصد فيه تكفير لذنبه الملاحق له؟

- نعم، هو كذلك، سيشعر بأنه أصلح ولو جزءاً مما أفسده، وحينها سيهدأ وخز ضميره له وسيشعر بالرضا عن نفسه التي تفتك به لوماً.

- حسناً، أمل ذلك.

- بإذن الله، تصبحين على خير عزيزتي.

راوية، لم يتبق كثيرا على الفجر، لا تنس إيقاظي للصلاة إن مكثت حتى موعد الأذان.

- حاضر، بإذن الله أوقظك.

لا أحد يعلم ما تحبّوه الأقدار من بعد اليأس والقنوط، ها هي الانفراجات -أو كما يخيل إلينا- تساق تباعا، هل بإمكان الشعوب الثورة على الملكية المستأسدة بخارج يدعمها بنفوذ سياسي من أجل الإنفاق عليه وهزيمتها في عقر دارها؟

هل بإمكاننا كشف النقاب عن الوجه المتحرر المنحل الذي تمكن منا؟ وعن رجالات اتخذوا من الدين غطاءً ظاهريا، بينما هم في حقيقتهم يعملون على توطيد أواصر التحررية وترسيخ المبادئ العارية لهوية مستوردة؟ من يقود؟

أين ذاك الصوت الماكر المحرك للركب الثائر، أين ذاك المتخفي الذي يثبت وينفي ويؤرشف وفق هواه؟

هل بالفعل يستطيع نسج كامل خيوطه بحرفية دون انفلات أو تفلت لطرق من هنا أو من هناك، أم أن صنائع البشر دائما يلازمها النقصان؟

تقارير الفساد والزندقة والعريضة تتطاير صباحا مساء على شاشات المحطات الإخبارية، التي وكأنها تقول للثائرين العائدين مجددا من القمع الأول، يسيحون ضجيجا وصراخا في كل ما يمكن لأرجلهم وأياديهم وعقولهم وألسنتهم أن تصل إليه:

- نحن معكم ومن خلفكم نسجل لمن بعدكم لحظات شجاعتكم، فكونوا قدر الصورة المرتجاة، وأكملوا ولا تتراجعوا حتى تتموا دون خوف.

في خضم التقارير المتناثرة على شاشات المحطات كانت المفاجأة غير المتوقعة وأدهم يشاهد إحداها؛ ليرى على الشاشة صورة يعرف ملامحها جيداً حتى وإن أحدث فيها الزمن شيئاً من أفاعيله، إنه السمسار، نعم يحفظ ملامحه عن ظهر قلب، وكيف لا وهو الذي سرق منه محبوبته؟

يتذكره جيداً، يوم رآه بيت خالته وقد أتى ليدفع ويشتري، أمعن النظر في الشاشة وهو يصيح:

- ألا تبا وتبا وتبا!

لعنة الله عليك أيها العليج، لقد حان وقت ذبحك، لقد حان.

وهنا تذكر رهف فتمتم:

- قدرك يا ابنتي، بل قدرنا أن نبثلى بكون أبويك أحد الاثنين إما السمسار أو ولي نعمته، وكلاهما أسوأ من الآخر، فلتسامحينا.

التقط هاتفه من فوق منضدة أمامه واتصل بهالة طالبا منها تشغيل التلفاز على محطة الأخبار التي يشاهدها وهو يصيح بها: مفاجأة لم نخطر لنا على بال، افتحي وشاهدي التقرير:

جلس كل منهما قبالة التلفاز وقد أحدا بصريهما منتصتين لكل كلمة حيث تتبع المذيعة تساؤلاتها العامة بتقريراً إخبارياً خاصاً جاء فيه ما يلي:

(في حادثة مدوية تقض مضاجع الكثير من العروش العربية، تم إلقاء القبض على رجل تبرأ منه العروبة وتحتقره الإنسانية، قضى حياته في السمسرة غير المشروعة، والتربح من وراء بيع الأرواح البشرية لذوي السلطان والنفوذ، تخصص في شراء الإناث الحسنات تحت مسمى الزواج من ثري خليجي، يتجول بكل بلد عربي مستغلا فقر الكثيرين من العائلات خاصة تلك التي رزقت بالجمال، أو تجسد الجمال في بناتهن اللواتي يسكنن الحضيض وينمن على الحصر، بيد أنها ستظل طيلة عمرها في سكنها النافق إن لم تمتد إليها يد تستغل عوزها وحاجتها للمال، وبعقد عرقي ودراهم معدودة تمتلكها، ومن ثم تتصرف بها كيفما تشاء، المملكة ورياضها كانت حاضنته وأويته، ولكن بعد معاودة أطياف ممن مَنَّ عليهم بلقب الرعية بعصيانه وتمرده للمرة الثانية -التي تفاقمت حدتها- بحيث لا يمكن التكهن باحتمالية إخمادها ثانية.

منذ الاحتجاجات الأولى وجد السمسار نفسه بلا سند ولا ظهر؛ إذ إنه وقت الأزمات لا مكان للصعاليك في حسابان الملوك، ففر هاربا هو الآخر إلى مملكة غيرها حيث الأوضاع الأمنية والسياسية مستقرة إلى حد كبير، مارس تجارته الداعرة وتوسع في نشاطاته لينتقل من بلد إلى آخر، وبعدها هدأت الأوضاع السياسية في المرة الأولى عاد وفق طلب الأمير، لكنه عاد بصبيانه الذين أعدهم على نفس نهجه، ففاقوه براعة ونجاحا؛ إذ إن المرض قد داهمه وبدأ يأكل من جسمه كل شحوم الزمن، وترهلات الثراء، غير أنه لم يُثْنِه عن طريقه الأشوه.

توسع صبيته في نشاطاتهم وازدادت صفقاتهم، فحتى نوع البضاعة محل السمسة قد أحدثوا فيه تغيراً، فلم يعودوا يكتفون بالإناث وحسب، بل أضافوا إلى قائمة الإناث قوائم من الغلمان مستغلين فقرهم المدقع وحاجاتهم إلى أي عمل يقتاتون وذويهم منه، ولكن شتان بين عمل نظيف إليه خرجوا من ديارهم طامحين، وعمل وجدوا فيه ذكورتهم مغتصبة في فرش الملكية الشاذة.

تم تعقب السمسار وتحركاته هو وصبيته حتى تم القبض عليه متلبساً في إحدى البنايات التي جمع فيها عدداً لا بأس به من الفتيات والغلمان قبل توزيعهم على الزبائن الكبار، وبالإستجواب تم التعرف على الأمراء المتورطين وأماكن احتجازهم " لجواريمهم أو ملك اليمين " كما يسمونهن؛ احتيالا على الدين الذي يتخفون وراءه، لكن أيناهم الأمراء في قصورهم الخاوية على عروشها بعدما فتحت لهم شواطئ الغرب وحنانها كيما يستريحوا من عناء الحكم واحتجاجات الرعاع وينفقوا بعضاً مما ناءت به خزائنتهم؟

انتهيا من سماع النشرة الإخبارية وهو يحادثها على الهاتف:

- الحمد لله، قد حدثت المعجزة، وها قد آن الوقت يا هالة، قد آن.

- لا أصدق نفسي يا أدهم، أيعقل ما رأيناه؟

- ألم تشاهدي وجهه العكر بأم عينيك؟

- شاهدت وتفحصت، وكدت أن أتقيأ من فرط القرف.

- هانت يا هالة، إن شاء الله تستريحين من هذا الهم نهائيا.

- ماذا سنفعل؟

- سنفعل الكثير، الآن المحطة الإخبارية هذه تعتبر المعلومة كنزا ثميناً ونحن لا نمتلك المعلومة وحسب، بل الضحية وأحد المتورطين.

- أنا الضحية، هذا مفهوم، أما المتورط، أتقصد الدكتور محسن؟

- نعم هو، سأكلم راوية لأعلم إلى أي مدى وصلوا معه؟

- حسناً، وأنا معك وعلى أتم استعداد للمواجهة وأقوى من أي وقت مضى.

- وهو المطلوب حبيبتي:

تجاهلت نعتة لها بحبيبتها، رغم زلزلة الكلمة لكامل كيائها، فكانت هزات خلجاتها تنطق تيمناً دون نطق، ثم تماكنت نفسها مواصلة الحوار:

- بانتظار الجديد.

- سأوافيك به إن شاء الله.



الفصل الثاني والعشرين

انتقام القدر

مَنْ يَقْصُرُ دور الإعلام على أنه وسيلة ترويجية وترفيهية أو كونها مجرد أداة تعكس الحقيقة والواقع الفعلي وفقط؛ فهو إما جاهل وإما متجاهل، إذ أن الإعلام في حقيقته - وخاصة مع تنامي صراعات المصالح السياسية والاقتصادية والتقاتل من أجل البقاء في ظل عالم تسوده الهمجية وإن تجملت برداء الحداثة، الحداثة التي تجعل القوة هي الحاكم الأول والمتحكم في كل شيء - قد تعدى دوره الدعائي إلى التوجيه والتأثير في العقل الجمعي بصورة أو بأخرى لتشكيل رأي عام يتوافق والمصالح العليا للإدارات المهيمنة على الصناعة الإعلامية، فيأخذ طرفا من حقيقة أو ربما حقيقة كاملة ولكن يعيدها عليك وفق ما يراه مناسبا وقتا وصياغة وتكرارا.

كانت الأخبار قد ملأت ربوع الفضاء والكل يترقب ويتابع لمن ستكون الغلبة في النهاية؟ السلطة أم الفرد؟

كفة الفرد باتت هاته المرة ثقيلة راسخة على ميزان القوى، ولم يعد قسطها بالحركة الفاعلة، وكفة السلطة تعقد الموازانات الخفية مقابل أن تزيد من ثقلها ليفوق الأخرى، لتبقى الكفف في تأرجح دون فصل.

وفي الموعد التالي لحامد ومحسن، تطرق الثاني إلى ما يحدث في المملكة محل الحديث الإعلامي الدائر في الوقت الراهن قائلا:

- هذا هو الانتقام العادل، نراهم الآن صغارا أذلاء أمام غيرهم من أولياء نعمائهم يستجدون تدخلهم لتثقل كفتهم كيما يطب الميزان حاسما النهاية، لكن مهما فعلوا فلا بد للحق أن يسود، فلا أقام الله لهم قائمة .

- آمين، فهؤلاء عاثوا في الأرض فسادا وإفسادا.

- أتعلم؟ شعرت جدا بالارتياح لما نشر عنهم من فضائح، حتى ولو كنت ذات يوم شريكا في جزء منها.

أفصح عن شعوره دون أن يذكر أنه تعرف على وجه السمسار وتأكد من كونه هو من كان يأتي إليه بالفتيات.

- لكن أكاد أجزم بأن هذه الفضائح ومحاوله استخدامها لنصرة الثورة المتأججة على الأرض ليست خالصة لوجه الله ولا لسواد عيون الثوار، ربما اليد العليا قد ضاقت ذرعا بحماقاتهم وأرادت تجديد الدماء في ربوع الممالك وجعلت من المملكة المذكورة البداية لتغير الخريطة بأكملها مستغلة رائحة الرذائل التي فاحت هنا وهناك.

- صدقت، أتفق معك جدا.

- الحمد لله، هذا الحادث سيساعد هالة كثيرا في استرداد كرامتها ومعرفة نسب ابنتها.

قالها حامد كمن يرمي الطعم وينتظر أن تبتلعه السمكة مترقبا متأهبا.

- من هالة التي ذكرتها الآن؟

- هذه فتاة حكايتها كحكايات الغرائب والعجائب، إحدى ضحايا هذا السمسار.

- هالة، ماذا حدث لها؟ احكي لي لربما...

ثم قطع سيل الكلمات الوارد توارده بعد ربا

- ربا ماذا؟ أتعرفها؟

تصنع حامد الدهول كيما يفضي محسن بما في جعبته دون ضغط أو حتى تحريف أو إنكار، إذ تركه إلى ضميره يسوسه كيف شاء.

- ربا أعرفها، احكِ لي أنت عن حكايتها وسأخبرك إن كانت هي التي أعرفها أم لا؟

- حسنا.

وراح يقص عليه القصة كاملة بتفاصيلها ومعاناتها وعثراتها والبغي الذي طالها من كل الأطراف.

استمع إليه والبصر شاخص حيث مسرح الأحداث كأنها يطابق الأقوال على الأفعال، أو بالأحرى على الجرائم التي ارتكبت، لا ينطق ولا يهتز إلا حين تتملك أوصاله رجفة بين حين وآخر فيتفرض لها ثم يعاوده الهدوء تدريجيا، فينصت صامتا، وما إن انتهى حامد من الحكى حتى أخذت محسن نوبة من الضحك المستيري وهو يستذكرها، يخالطها دموع يصعب تحديد كنهها في ظل حالته الغريبة هذه وراح يضرب كفا بكف ويقول:

- سبحان الله! سبحانك يا ربي! ما أعدلك! ما أقصر هذه الحياة! وما أضيق الدنيا رغم اتساعها! وما أعجل الانتقام!

نعم تذكرت، تذكرت هذه الفتاة، كانت إحدى ضحاياي وضحاياهم، كانت أعينها ترميني بنظرات التحقير والخسة، كنت أفهقه وقتها مع السمسار دون مبالاة لكرامتها المهذرة وهي من دمي ومن طيني، صدقني، أتذكر الآن تفاصيل اللقاء بحذافيره، يا لحقارتي!

- تفكر قليلا، وانظر إلى حكمة القدر الذي جمعكما من جديد، بإمكانك الآن أن تصوب ما اقترفته بحقها.

- يا ليت ذلك! ولكن كيف؟

- ستتواصل معها ومع محاميها ونرى ما الخطوات التي سيقدمان عليها في ظل الأحداث الجارية؟

- حسنا حسنا، أنا معك يا حامد، أريد أن أرتاح مما أنا فيه، ووالله حتى لو انتهى بسجني أو موتي، فهذا أرحم من عذابات الكوابيس التي باتت تلاحقني بيقظتي.

- إن شاء الله خير، التزم بها وصفته لك من أدوية ولا تهمل، وسيكون كل شيء على ما يرام.

دقت ساعات البحث عن الأب الحقيقي، ولا بد من تلبية النداء، التخاذل والتراخي لا محل لهما من الإعراب في ظل واقع جديد تهباً بكل ما فيه لأجل ما كانوا يسعون إليه وكان الجواب بالألا جديد، فما هو الجديد قد أتى، وأتى حاملاً محملاً بالأدلة كلها.

تواصل أدهم ثانية ولربما ثالثة أو عشرة مع إحدى المنظمات الحقوقية العالمية والتي رحبت جداً، وأقدمت على التعاون معهم هاته المرة؛ فالقضية لم تعد قضية شخصية لفرد مجهول الهوية لا يدري أحد عنه شيئاً، معدوم القيمة هو وقضيته في نظر الكبار، إنما الآن وفي ظل الفضائح الإعلامية التي أعقبت الثورة الناشبة في المملكة أصبحت قضية رأي عام يشغل العالم أجمع، وظهور حالة الآن هو دعم وتوثيق حي لما يتم تداوله إعلامياً، وها هي بعدما تم القبض على السمسار أدرجت قضيتها وابنتها إلى بقية جرائم السمسار وولي نعمته الهارب التي يستحق أن تعاقبهما عليها الإنسانية بأسرها، لا الجهات الموكلة بتحقيق العدالة وحسب.

تواصل كذلك مع كالة الأنباء صاحبة السبق الإخباري التي ما إن شرح لهم القضية وأدهم ببعض تفاصيل تخص هالة حتى تلقفوه، فتم التواصل معها هي شخصيا وإجراء حوارات صحفية عبر الهاتف معها مرة تلو الأخرى لتحكي تفاصيل ما حدث معها من قبل السمسار والفترة التي قضتها في منفى الأمير.

الآن الكل يسابق من أجل استقطاب هالة له، القناة الإخبارية تعرض عليها وأدهم السفر إليهم حيث كيانها، وكذا المنظمة الحقوقية التي تواصلت بكل جدية مع سفارة المملكة التي سجن فيها السمسار للحصول على تأشيري سفر تمكنهما من دخولها بحيث يكونان في موقع الحدث، مطلعين على كل تفاصيل القضية.

تقرر السفر لهما وتم تحديد الموعد والحصول على كافة التصاريح، الأمر الذي كان باعثا على الغرابة والتشكك والقلق في نفس هالة، وبعد تفكير مضن دفعتها الحيرة إلى التنفيس عن هذا القلق في إحدى حواراتها الهاتفية مع أدهم قبل السفر:

-أدهم، هل كل هذه التسهيلات التي قدمت لنا طبيعية؟

- على ما ترمين يا بنت الخالة؟

-لم يعترضنا أحد ويتصدى لنا كما فعل من قبل، ألم تلاحظ أن مروان هذا مثلا اختفى واختفت تهديداته حتى مع راوية، ترك لها المجال تتحدث عن القضية كيف شاءت دون أي عراقيل.

- فعلا، أتفق معك، لكن لا تنسي أن القضية الآن ليست هالة فقط، الأمر أكبر وأعمق بكثير، الأمر شأن دولي يا هالة وليس شخصا، وربما هنا في الداخل خافوا ما إن اعترضوا طريقنا قامت عليهم الدنيا بالخارج ولم تقعد، ولعلمك هذه الضجة التي خلفتها الثورة وتقارير الفساد التي ملأت الشاشات هي ما جعلت قضيتنا محل اهتمام وتقدير.

-أمل ذلك يا أدهم، وألا يبيتوا لنا شيئا.

لم يكن أدهم أقل خوفا منها وتشككا، بيد أنه أراد أن تنفذ هذه المخاوف فلا تثبط عزائمهم، ولا تشيهم عن طريقهم الذي بدأوه جميعا بمساعدة راوية وزوجها الدكتور حامد.

نفذ عن ذهنه هو الآخر الشكوك وأعاد عليها طلبه المعتاد:

- هالة، أظن أنه الآن توجب عقد قراننا وإتمام الزواج قبل السفر.

-أدهم، لن أقول لك هذه المرة انتهى أمر هذا الموضوع ولن أقبل فيه حديثا، ولا أي شيء من هذا القبيل، ولكن سأقول لك بعد العودة من السفر وانتهاء القضية ومعرفة نسب البنت، سنتمم كل شيء -بإذن الله- ولكن بعدما أقبل إيمان وأتحدث إليها.

- أمجنونة أنت؟ تقابلين من؟

ينقصك أن تطلين موافقتها؟

- بل عاقلة وعاقلة جدا، وبالفعل أنتوي مقابلتها وطلب موافقتها، وإن رضيت هي فراضية أنا، وقبلت بك وغيري تناصفني فيك وإلا فهي الأحق بك.

- هالة، أفهمين ما تقولين؟

- أفهمه جدا، وأرجوك هذا آخر ما عندي، وما يفعله الله هو الخير لنا جميعا.

- مجنونة أنت والله!

- صحيح، هل أخبرتك راوية بجديد ما وصل إليه زوجها مع محسن؟

- نعم، أخبرتني وأوصلتني بزوجها لترتيب كيفية المساعدة، فهو على أتم استعداد ليدلو بشهادته في حال الحاجة إليها، والأكثر من ذلك رغبته في التواصل الإعلامي مع المحطة الإخبارية والاعتراف بجريمته على الملأ؛ انتقاما لابنته التي لم يستطع حمايتها من نفسه، وإبراءً لذمته، وإراحة لنفسه التي لا تصمت قط عن إلقاء اللوم الذي بات ينهكه.

- سبحان الله، يبدل الناس من حال إلى حال.

أخيرا وبعد عذابات ثماني سنوات وزيادة عليهن العام الذي أوشك أن يكتمل من صيف العودة إلى أرض الوطن، وها هي مشارف صيف جديد لعله يكون نقيض السالف البائس ويحدث فيه ما طال انتظاره من فرح وراحة.

هالة وأدهم يطان بأقدامهما أرض المملكة محل احتجاز السمسار، ليلة
كثيبة خانقة للأرواح حيث درجات الحرارة باهته فالمملكة ليست كموطنهما،
فمع غروب الشمس يبدأ النسيم يداعب الأنفس المرهقة من قيظ الحرارة
طوال النهار فتنتعش وتزيل آثار التعب، بل على العكس تماما، سخونة الجو
وارتفاع درجات الحرارة لا يميز بين الليل والنهار، كلاهما في عينيها واحد،
هذا الجو يعيد هالة إلى أجواء ما كانت عليه في حضرة مملكة الذل، إذ إنها
لم تكن نفس أجواء الطقس وحسب بل حتى البنايات والشوارع وكل ما
فيها من معمار، أما أدهم فقد أصابه الاختناق من هذا الجو غير المعتاد عليه،
فضلا عن مداهمة خوالة نوع من الاضطراب الشعوري الناتج عن الغضب
والحنق من الشخص الذي حرمه من حبيبته طوال العمر، فلولا له لما ذاق كل
ويلات الحرمان ولا مرت هي بكل هذه المحن، لكم يود أن يجhez عليه ويتنقم
منه بنفسه.

وصلا إلى الفندق الذي حجزت لهما فيه المنظمة الحقوقية المضييفة لهما،
قضيا ليلتهما كل في غرفته يفكر، هي تفكر في صغيرتها التي فارقتها اليوم
لأول مرة في حياتها، أما هو فقد قضى ليلته يرتب للقاء الغد كيا يكون خادما
لمصلحتهما، ومجديا للقضية بشكل قوي، ومحققا لأهدافهم.

وفي الصباح الباكر كانا في طريقهما إلى اللقاء المنتظر برفقة أحد مسؤولي
المنظمة الحقوقية، مضيا في طريقهما دون أن يعيا ما يجري على جانبي الطريق؛
كل تركيزهما فيما هو آت، فأدهم لم يلفت انتباهه رغم كونه بلد جديد، المعمار

فيه قد بلغ أوج فخامته؛ فناطحات السحاب ترفع شعار التمدن كعلامة مسجلة باسم هذه المملكة، حتى ذلك التعدد الجنسي الواضح للسابدين في الطرقات، فهذا أوروبي وذاك هندي، وثالث مصري، وخامس شرق آسيوي، وسادس وسابع، لم يلتفت إلى كل هؤلاء، عيناه شاخصتان ناحية هالة فقط.

هل حقا سيوفي بعهدة لها؟ هل سيقترض لها؟ هل سيأتيها بجواب شافٍ لخيرتها أم سيعود معها بخفي حنين؟

ها هما أمام مبنى الاحتجاز، لولا اللافتة المعلقة عليه والتي كتب عليها "منطقة سجون" لظنته فندقا بني على أحدث طراز، لم يعد يفصلهما عن اللقاء سوى بضع دقائق.

بدأت هالة ترتجف والعرق يتصبب من جبينها، غير قادرة على التحكم في رعشتها، الأمر الذي دفعه للإصرار على عدم حضورها اللقاء مع السمسار، والانتظار ريثما ينتهي معه؛ ففي ذلك المصلحة العليا للقضية.

أيد قرار أدهم لها الضابط الذي استقبلها فور دخولها المبنى والذي أخبرها حين اعترضت بأن ذلك هو عين الصواب.

أدهم يستعد للمواجهة التي تعد الأولى بالنسبة للسمسار، والثانية بالنسبة لأدهم حيث رآه خلسة يوم أتى حاملا العطايا للظفر بهالة.

وفي غرفة أنيقة الأثاث، رسمية الفرش، ذات هيبة للمطالع لها لأول لحظة، يجلس أحد المحققين مشرب العنق، يأمر أحد العساكر بالإتيان به من

غرفة الاحتجاز، تم اقتياده مقيدا، قد هزل جسده وذاب شحمه، وانحنى ظهره، لم يعد منتفخا منتشيا كما رآه أول مرة وقد أخذته العزة بالكبر. تأمله أدهم متعجبا ولسان حاله:

- يا أيها الزمان شكرا، يا أيها القدر ألا عدلا! تكفي ذلته وصغاره أمام الأعين الآن.

قدم الضباط أدهم له قائلا في تهكم

- وها هي قضية أخرى تضاف إلى قوائم جرائمك المخلة، لقد أثقلت علينا يا رجل، لم تدع بلدا إلا ولك في عرضه جريمة .

سحقا!

لم يجب بكلمة واحدة، فقط نظر إلى أدهم يستبين ملامحه لعله يعرفه؛ فوفق كلام المحقق لابد وأنها التقيا من قبل، قطع عليه أدهم محاولات تذكره قائلا:

- لا تجهد ذاكرتك في محاولة تذكري، نحن التقينا دون التقاء .

- أتقول ألغازا يا سيد؟

- لا، ليست ألغازا، رأيتك ولكنك لم ترني.

أتذكر هالة محسن.... " ذكر الاسم رباعيا "

أتذكر نواف... " ذكر له اسمه المدون في العقد العرفي "

انتبه الرجل وكأنها استفاق من غيبوبة معقبا:

-أُتَذَكَّرُ أَتَذَكَّرُ أَتَذَكَّرُ، كيف لي أن أنساها؟

- ولم لا تناسها؟ من غررت بهن وسطوت على عرضهن، واستنزفت كرامتهن مستغلا فقر أهاليهن وحاجاتهم للمال كثيرات جدا، فلم هي بالذات التي تقول كيف أنساها؟

- أتذكرها لأنها اللعنة التي أصابتنني، لا زلت أذكر الخوف القافر من عينها، وارتجافات أطرافها واصطكاك أسنانها، ورجاءها بأن أبتعد عنها وأخلي بيني وبينها، لا زال صوت ندائها وهي تتوسل:

- أرجوك اتركني، أرجوك أرجعني لأهلي.

لم أبال وقتها بكل ما انتابها وانقضضت عليها كذئب جاع دهرا، وفجأة تجلت له فريسة تشتهيها النفس التائقة فأتى عليها حتى العظم، هكذا كنت معها فلم أتركها إلا وقد استنزفتها حتى آخر رmq مشبعا رغبتني فيها غير مبالٍ بصرخاتها واستغاثاتها، وكانت هذه هي آخر مرة أقرب فيها امرأة، وظلت لعنتها تطاردني حتى اليوم، فكلما هممت بإحداهن ارتددت عنها مصروعا، لا أطيق أن يجمعني بها فراش واحد، وبعدها عدلت إلى الطريق الآخر، وبدأت في مرحلة استقطاب الغلمان وشرائهم من أهاليهم مقابل حفنة من المال، والوعود الكاذبة لآخرين بالعمل وتوفير وظائف مناسبة لهم.

- لكم أنت وضع يا رجل.

- لم أكن مرمغا في وحل الوضاعة وحدي، ولا تمثل دور الشرف، انظر إلى أسيادك من علية القوم الرافعين شعارات النزاهة والفضيلة لكم صباح مساء وهم أصحاب الأوحال ذاتها، يملؤونها رجسا وخسة، وينفقون عليها من جيوب رعاياهم إشباعا لنزواتهم، ثم يخرجون عليكم مرتدين عباءات الشرف على أثواب الخيانة، الخيانة لله، والوطن، والأمة الضائعة في غيابات القمع والقهر دون حتى رغيف خبز يسد رمق البطون الجائعة.

- أتبرر ذنبك بذنوب غيرك؟ قاتلك الله.

-حقا قاتلني الله، فها أنا بين أياديكم، نهشتني الأمراض حتى ما أبقت في باقية، واستوليتم أنتم على أموالي، وما لي والد ولا ولد، فافعلوا بي ما تشاءون.

- قبل أن تفعل بك العدالة ما تستحق، فعليك أن تعلم.

ثم صمت لبضع هنيهات وكأنه يستجدي كلمات النبوة أن تنطق نسبا لهذا العرييد، بيد أنه النزف الذي لا بد من سد جرحه أملا في البرء ثم تابع قائلا: -ربما يكون لك ابنة من صلبك.

-أنا؟ كيف؟ من أي أنثى سلبتها نفسها ليكون لي منها ابنة؟

- هالة، ولدت بنتا بعد تسعة أشهر من زواجك العرفي بها، ولكنك فعلت فعلتك التي فعلت، ثم اقتدتها إلى العرييد الأكبر ولي نعمتك بعدها بوقت قصير جدا، خلال أيام؛ فلا ندري لمن نسب البنت؟ لك أم له؟

- أيعقل هذا؟ أمن الممكن أن يكون لي ابنة؟

كيف نتأكد؟

- لهذا جئت أحداثك، سنقوم بعمل تحليل الحامض النووي لمعرفة حقيقة النسب.

- ياليت حتى نتبين.

- مالي أراك مسرورا بالخبر؟ توقعت تزمرك ورفضك.

- يا سيدي، ما عاد بالعمر بقية، ولربما قضى علي الموت قبل حكمكم أنتم به، وما عاد عندي شيء أبكيه ولا أتمسك به، فأنا معترف بكل ما ارتكبت من جرائم، وربما لو حاولت إصلاح جزء واحد من جريمة قبل موتي يكون شافعا لي!

- نعم، لا بد من تصحيح ولو لبعض جرائمك، فاسمك في الوثيقة العرفية غير اسمك الحقيقي الذي علمناه فقط من التلفزيون بعد القبض عليك، ولا بد من توثيق شرعي لنسب البنت كي تستطيع ممارسة حياتها بصورة طبيعية إن كنت أنت أباه.

- أنا مستعد لعمل أي شيء في صالح البنت، لعل الله يقبل توبتي على كل ما اقترفته من جرائم.

هنا تدخل المحقق لإتمام التدابير اللازمة لعمل الفحوصات الطبية تحت إشراف إدارة السجن.

الفصل الثالث والعشرين

لقاء مسبوب

الزمان يدور دورته وتلتقي الأرواح من جديد على موعد بلقاء مسبوب، يعاد فيه تمثيل المشهد القديم، بيد أنه تمثيلا ارتجاليا تلقائيا يعتمد على المخزون التعليمي القابع في أروقة الذاكرة البعيدة دون وجود لأي مكتسبات مهارية جديدة تطور من الأداء.

تم اقتياد السمسار بعدما انتهى اللقاء إلى زنزانته الخاصة، وفي الردهة المؤدية إليها والتي تضاهي ما مرت بها منذ سنين في طريقها إلى غرفة إعدامها وقعت عيناها عليه وهو يمشي مصفودا بالأغلال، منكس الرأس، هزيلا، لم تحف، ولم ترتجف، بل شعور بالزهو قد خالجه حين نادى عليه قائلة:

- ماذا جنيت من وراء الواعظة يا قواد؟

صبا إليه سؤالها، فالتفت إليها على مهل يتناسب مع خواره ووهن جسده
محدًا النظر بها يتفحصها قائلاً:

- بنتا واحدة.

- اخرس ولا تنطقها، فما زالنا لا ندري الحقيقة.

- وهل ستفرق معك إن كنت أنا أباهما أم القواد الأكبر؟ كلانا قد حظي
بنفس اللقب مع اختلاف المقام الذي حظيه كل منا بالوراثة، فالأول ولد
أميرا وأنا ولدت خادمه، ولكننا تربينا على الرذيلة.

- صدقت وأنت كذوب، كما وعظت سالفا وأنت شيطان.

- وأنت أصبحت غير ما كنت ضعيفة منكسرة.

- الفضل لك.

- الحمد لله أنا لنا أفضال عليك.

- تحمده وأنت أبعد البعيدين عنه؟

- أحمده الآن وأرجو عفوّه.

- لعلها إن صدقت تكون الحسنة الوحيدة التي تفعلها في حق طفلة
عساها تكون ابنتك.

لم يجب عليها ومضى به العسكري حتى غاب عن ناظرها.

اقترب منها أدهم يربت على كتفها، يقص عليها ما دار بالداخل بعيدا عن عينيها ويطمئننها بأنه سيتم عمل تحاليل إثبات النسب ولن يغادرا البلد إلا بعد معرفة الحقيقة.

كان هاتف هالة يرن باسم راوية للمرة الثالثة ولربما الرابعة، التقطته من أحد جوانب حقيبتها وقد أطلقت في الهواء زفرة اعتملت في صدرها:

- أهلا راوية، آسفة انشغلت قليلا.

- لا عليك، طمأنيني عنك.

- طمأنيني أنت عن رهف.

- رهف بخير والحمد لله، ها هي إلى جوارى نائمة .

- الحمد لله، شكرا لك على كل ما تفعلينه معي يا راوية، لا أجد كلاما يوفيكِ حقك.

- الشكر للغرباء ولست منهم، دعك من هذا، ماذا حدث في مقابلة اليوم؟

- كل خير.

أخذت هالة تقص عليها الواقعة بأكملها، وأضافت على ذلك خبر اللقاء التلفزيوني الذي تم الترتيب له من قبل مكتب الوكالة الإخبارية - صاحبة

السبق الصحفي - معها هي وأدهم والذي سيكون الليلة في تمام الساعة التاسعة بتوقيت الوطن.

- حسنا، علمت ذلك في الصباح من الدعاية الذي تقوم بها المحطة بين حين وآخر على مدار اليوم حلقة البرنامج.

- لم أعلم أنهم أعلنوا عنه، نحن بالخارج الآن، على كل قبلي لي رهنف، وانتظري اللقاء، وسلي الله لي التوفيق.

- موفقة بإذن الله.

في المساء كان الظهور الأول لهالة الحقيقية وليست تلك المزيفة التي ادعوا أنها هي زيفا وزورا على شاشات التلفاز، كان اللقاء مع مذيع له ثقله الإعلامي وفي محطة إخبارية يهاهما حتى ذوو السلطان وذلك من باب (إن لم تصبك النار بالحرق فلتخف مما قد يصيبك من دخانها).

وهكذا هي مادتهم الإخبارية التي تكشف ما قبع مهموزا، ملموزا، أزمانا وأزمانا تحت أقبية الخوف من الغطرسة المؤكدة حال التصريح.

كان ظهور هالة ظهورا يوثق الحدث توثيقا حيا بذكرها لتفاصيل التفاصيل التي عايشتها في المملكة سواء مع السمسار أو في منفى الأمير، ثم حدث ما أضاف إلى توثيق الأحداث شهادات جديدة، وتراءت في الأفق أنفُس متورطة لكنها كانت بالأمس القريب مختفية خلف الضجة الإعلامية

الكبرى حول العروش الداعرة، لكن أقدار السماء أرادت أن ينكشف ستر كل شيء وتخرج إلى العلن كل رقطاع مخبئة؛ لتستبين السموم، ويعلم أقواها من أضعفها، ومقدار تأثير كل نوع منها في الجريمة.

ذهل الجميع باتصال هاتفي أتاها أثناء اللقاء من شخص يدعى دكتور محسن طالبا إجراء مداخلة يعرض فيها ليس فقط شهادته في قضية هالة، بل ويفصح عن مشاركته الآثمة فيها بذكره ما اقترفته يده من جرائم باسم مهنة الطب تحت سمع وبصر إدارة المستشفى الكبير الذي كان يعمل به، والمداخلة التي أثارت بلبلة جديدة وفتحت الأبواب المؤصدة تسترا على مصراعيها أمام مستشفى كبير من المفترض أنه مشهود له بالنزاهة والجودة.

أفسح المحاور وضيغفه له الوقت والمجال كيما يفضي بكامل ما عنده دون أي مقاطعة، لكن على ما يبدو أن جهة ما قد وصلها نبأ المداخلة التي ذكرت كل جرم ونسبته إلى مرتكبه، فأزعجت المداخلة وقررت الانتقام الآني، فكانت محاولات التشويش المتعمد على البث الحي للبرنامج قد تزايدت حدتها خلال دقائق، في ظل محاولات كثيرة كرد فعل قامت بها المحطة للتصدي له ولكن وللأسف جميعها باء بالفشل أمام الإصرار على إيقاف البث.

الخوف الذي كان يتسلل إلى هالة على استحياء، أصبح ضيفا ثقيلا قابعا بدواخلها، ليحدثه أدهم بين حين وآخر بضرورة المغادرة منها إلى غير

رجعة، فلقد ضاقت عليها نفسها بما رحبت، بيد أنه يصبرها متحججا بأن الإجراءات تجري على قدم وساق، وتحليل إثبات النسب ستم في غضون أيام معدودات، ويتبين الأب الوقح من الأب الأوقح منهما.

وفي بيت محسن حيث أصبحت المشاعر الزوجية متجمدة كثلج لا تطلع عليه شمس التقارب، والأبوة دفنت في رفات البنت الكبرى وأصبحت لأخواتها من بعدها مجرد اسم في سجلات المصالح الحكومية، قامت الدنيا ولم تقعد إثر مداخلته التي اعترف فيها بجرائمه، المكاملة التي أفشت حتى سر ابنته حيث نوّه إلى حقيقة موتها كتعقيب منه على انتقام القدر لما ارتكبه في بنات الناس.

جن جنون زوجته التي اهتمته بالجنون والخلل، ووصمته بعدم المسؤولية الأبوية تجاه بقية أبنائه، وصل الشجار إلى ذروته حتى فقد القدرة على التحكم بأعصابه وانفعالاته من كلامها اللاذع، فانهاه عليها دون وعي ضربا حتى تورم جسدها، وصاح كل موضع ألم فيه يوصمه بالحيوانية.

خرج من البيت وقد عاودته الرغبة في الانتقام وبقوة أكثر من ذي قبل، وأول من يريد الانتقام منه هي نفسه التي بين جنبيه.

بدأت التهديدات تتوالى وكأنها كانت تنتظر إطلاق صفير البدء من أحدهم، فها هو حامد يفاجأ باتصال هاتفه مجهول المصدر يقول:

- حامد.

- نعم، أنا هو.

- اسمع جيداً، نحن على علم بجميع تحركاتك وعلاقتك بمحسن، وعلى اطلاع بكل تصرفات حضرة الكاتبة الثائرة، حرمك المصون.

حاول حامد أن يتكلم، فأتاه الصوت زاجراً يطالبه بالإنصات وحسب، ثم تابع:

- نعلم أنها المدبر الأول الذي لولاه لما ذاع صيت قضية هالة، وهي المشجع الأول والأخير لما آلت إليه الأحداث، رسخت كل كتاباتها لخدمة قضية هالة، وها هي الجرأة تقذف بها إلى حيث الأبواب المغلقة وهي تصر على الدخول، فلئن فتح لها الباب، فاقرأ على روحها الفاتحة، القرار قرارك، أنفتح لها الباب أم نتركه مغلقاً؟

- ما الذي تريدون مني فعلة؟

- محسن.

- ما به؟

- رجل مجنون، فاقد الأهلية يا دكتور.

أفهمت؟

أتموا المكالمة معه، بينما كان محسن في طريقه إليه، إذ إنه خرج من بيته هائماً على وجهه، فلقد كان منهكاً بدرجة مميتة شلته عن التفكير بأي شخص أو

مكان، ما حملته هي قدماء إلى حيث عيادة حامد؛ لعله يجد عنده دواءً لحالته، أو مساندةً في محتته.

مر يوم واثنان وثلاث منذ مغادرته ولا توجد عنه أي أخبار، ولم يصلهم منه أي اتصال، لكن اتصالاً وحيداً يحمل من التهديد والوعيد الكثير والكثير له ولأسرته إن لم ينزوا بعيداً ويغلق فمه دون كلام عن المستشفى، لم تعد زوجته قادرة على تحمل نتائج ما يفعله، كما أنها لا تعرف عنه أي أخبار تستطيع أن تستدل بها على مكانه وتحدث إليه، قلبت مكتبه رأساً على عقب، فتشت في كل أوراقه المتناثرة على مكتبه حتى عثرت على روشيتة مكتوب عليها اسم د/ حامد أحمد، طبيب صحة نفسية، وكان التاريخ المدون في خانة الزيارة قريباً جداً.

اتصلت بالهاتف المدون عليها لكن دون جدوى من الرد؛ إذ كان الخط مشغولاً دائماً.

توجهت زوجة محسن حيث عنوان العيادة المدون في الروشيتة وهناك استطاعت مقابلة حامد، أذن لها بالاستراحة على كرسي المكتب المقابل له سائلاً:

-تفضلي، ما هي شكاواك؟

-ليست لدي شكاوى، جئت أسألك عن زوجي.

قطب ما بين حاجبيه، إذ يبدو أن الحالة يبدو أنها تعاني فصاما شديدا،
وأكمل:

-وما علاقتي بزواجك؟

-زوجي دكتور محسن وأنت تشرف على علاجه النفسي، وفق ما توصلت
إليه من الوصفات الطبية الموجودة في مكتبه.

أغمض عينيه وفتحهما، مع استنشاق دفعة من الهواء ولفظها ثانية في
هدوء تام، قد تصنعه اضطرابا مجيئا:

-حسنا حسنا، دكتور محسن طبعاً أعرفه وأشرف على علاجه كما قلت،
ولقد تدهورت حالته مؤخراً بشكل كبير، يبدو أنه تعرض لصدمة مجدداً،
دعمت من دوافعه الحثيثة نحو الانتحار.

- نعم، بالفعل حدث ذلك، ولكن أين هو الآن؟ لقد خرج من البيت
منذ ثلاثة أيام ولا نعلم عنه شيئاً مطلقاً.

-لا تقلقي هو في أمان، أودعته في المصحة النفسية حفاظاً عليه وليظل
تحت المراقبة طوال الوقت.

-ولمَ لمَ نخبرنا أحد بالأمر؟

-حين أتاني العيادة كان بائساً، حانقاً على كل شيء، حتى إنه تخلص من
كل ما يمكن أن يحويه جيبه، هاتفه، نقوده، حتى العناوين أو الأرقام التي
بإمكاننا الاستدلال منها على ذويه.

- حسنا، هل بإمكاننا زيارته؟

- لا، حاليا الأمر صعب جدا، هذا رقم المصححة بإمكانك التواصل معهم؛ فلربما أسافر خارج البلاد في الأيام المقبلة.

مرت الأيام تجر ذيل بعضها وكأنها في الانتظار لا تمر، هالة وأدهم لا زالا بالقرب من مسرح الأحداث حيث السمسار، ومحاولات لا حصر لها من قبل الوكالات الإخبارية والصحفية تبغي لقاء تليفزيونيا أو حتى صحفيا، أنهكتها المقابلات وأنهكها تكرار الحكاية، وأدهم إلى جانبها يقويها ويهون عليها، حتى جاء اليوم المنتظر الذي ستظهر فيه نتائج التحاليل.

وفي الموعد المحدد كانا أمام السجن، دخلا إلى المحقق الذي قد تسلم مطروفا بالنتيجة قبيل دخولهما بلحظات، بعد الاستقبال والترحيب، جلسا أمامه، هالة تصطك أسنانها رغم حرارة الجو، وترتعش يداها من فرط الترقب، بينما أدهم يحذ بنظره في وجه المحقق يتفرسه قبل النطق، حتى رفع المحقق رأسه إليهما قائلا:

- النتيجة تؤكد أن الطفلة تنسب إلى السمسار المحتجز بالداخل.

تهللت أسارير هالة، وتضاءل النزق شيئا ما، تنفست الصعداء رغم مرارة النتيجة لخيارين أحلاهما مر، وارتضت بها رغم وضاعة النسب ووقاحتها، بيد أن لسان حالها:

- يكفيني أنها أنت من رجل تزوجته حتى ولو بعقد عرفي.

فذلك أفضل لها بكثير من أن تلاحقها لعنة ابنة الزنا أو تنسب رجل لم
أكن له سوى أخيدة - لا حق لها ولا متاع ولا شرع يصحح مسماها - سبها
في حرب ضروس مع شهوته، بينما الصمت يلف المكتب بغلالاته، إذا بهرج
ومرج في الممر بالخارج وطرق قوي يدفع الباب دون انتظار لإذن يقال،
وصوت أحد الضباط الجمهوري يعلم الجميع بالخبر:

- لقد وجدنا السمسار ملقى على الأرض دون حراك ولا نبض.

- متى كان آخر تفقد له؟

- منذ ساعة أو أقل قليلا، حيث دورية توزيع وجبات الفطور على
السجناء يا فندم.

- هيا بسرعة.

انتفض المحقق من مقعده، وكذا أدهم، أما هي فكأنما التصقت بكرسيها
لا تقوى على النهوض منه ولا هو يدفعها بعيدا عنه، فقط مشاعر متضاربة
بداخلها، ودوامات من الذكريات تلف رأسها.

توجه العسكر إلى زنزانة السمسار وبرفتهم طبيب السجن الذي أخبرهم
بأنه قد فارق الحياة إثر جرعات كبيرة من السم.

العودة إلى الوطن هاته المرة عودة مغايرة، أراد لها القدر أن تقطع شطر
صفحة من صفحاتها دون شطرها الثاني الذي لا يقدر على نزعها إلا القدير،

ارتضت بذلك وسلمت أمرها إلى ربها يقتص من لا قصاص يجدي معهم إلا قصاصه.

فور وصولهما، وفي طريقهما إلى البيت طلبت من أدهم أن يغير مسار الطريق:

- أدهم، أريد الذهاب إلى بيتك.

- الآن؟

- نعم، الآن.

- ألا ترين أن الوقت ليس مناسباً، وأنت مرهقة وفي أمس الحاجة إلى الراحة؟

- يبدو أنك عدلت عن طلبك.

- طبعاً لا، ولكن التوقيت عجيب.

- خير البر عاجله.

- وهو كذلك.

في بيت أدهم، كانت المفاجأة التي استعصى على إيمان إدراكها؛ إذ وجدت هالة برفقة أدهم أمام باب الشقة، لوهلة ظنت أنه تزوجها وأتى بها ليضعها أمام الأمر الواقع، بيد أنه تدارك التخمين مسرعاً بتقديم هالة لها قائلًا:

- هالة، ابنة خالتي، أتت لزيارتك أنت وحياء.

إيمان دون أن تفسح لهما مجالا للدخول:

- ابنة خالتك؟

هالة وهي تمد يدها للسلام: نعم ابنة خالته فقط.

أدهم: إيمان سنقف كثيرا أمام الباب؟

إيمان دون أن تتخذ ردة فعل توجب بها يد هالة؛ غمزها أدهم بطرف عينه، فمدت يدها على استحياء: معذرة، لم أنتبه، تفضلا، تفضلي هالة، أنرتينا.

هالة: النور نوركم يا إيمان.

استأذن أدهم منهما متحججا بمشاغل في أمس الحاجة إليه؛ ومكالمات معطلة لكثير من القضايا؛ ولابد من متابعتها مع مدير مكتبه الآن، لذلك سينفرد بنفسه في مكتبه؛ تاركا لهما اللقاء تديرانه كيفما تشاءان.

بعدها قدمت إيمان واجب الضيافة؛ ولم يعد في الصالون سواهما، وبعده أتت حياة وسلمت على أبيها مقبلة إياه تحضنه، وسلمت على هالة التي أخبرتها بأن لديها ابنة جميلة مثلها، ثم غادرت إلى غرفتها للعب، ابتدأت هالة الحوار:

- إيمان، أظن أنك تعلمين ما كان بيني وبين أدهم من قبل ما حدث لي في السنوات الماضية.

- نعم؛ أعلم، وحتى ما بينكما الآن أعلمه.

- للعلم ليس بيننا أي شيء سوى القراة والقضية، والثالثة المحتملة أتيت أستاذك فيها.

- وماهي الثالثة هذه؟

ابتلعت هالة ريقها كمن يبتلع غصصا عصية الذوبان في الحلق، تحاول الإمساك بتلابيب الكلمات حتى لا تفر هاربة من بين شفتيها، تستند إلى شعور عميق يخالجه بأنه لا بأس!

لا بأس أن تبذلي شيئا من ماء قلبك حتى لا تندمين بعد ذلك وتبحثين عن "يا ليت" فلا تجدي سوى الصمت.

قالتها في عجلة لا تُقدّر سرعتها:

- أترضين أن أناصفك أدهم؟

انفعلت إيمان واكفهر وجهها؛ فالجرح العتيق يفتح أمام عينيها، والمطلوب منها أن تشارك فيه مشاركة لن تورث سوى الألم، تركت نفسها المقهورة لنفسها الأنفة؛ مبدية العجب من جُرأة هالة، لترد عليها السؤال سؤالا.

- لو كنت مكاني أترضين أنت؟

- لو أحبه وفعلت كل ما بوسعي لأكون من يحب، وفشلت في ذلك، سأرضى!

- لكن لا توجد نفس تقبل أن تكون استنساخا لنفس أخرى حتى تُرضي محبوبها.

- وهل أنا قلت لك أني سأكون نسخة من أخرى؟

إيمان؛ قلت لك " أكون من يحب " النفس يا عزيزتي تأنس من يستميلها حبا، ويقربها رغبة، ويجاورها ألفة، ويشاركها رضا حتى يبلغ منها ما لم تبلغه هي من نفسها.

- لم أكن أعلم أنه قادر على وصفكِ في مذكراته بهذه الدقة، العجيب أنه قال عنكِ أديبة فصيحة اللسان، وأنى لمثلي مجارة كلامكِ المنظوم.

- لست بأديبة ولا فصيحة، لكنني عاشقة سجرتها بحور الظلم دون وعد بالانطفاء، ولما وصلت إلى شط أقل اشتعالا؛ تمتت العود حتى لا تؤذيكِ بالقرب.

- أتحببينه؟

- إلى الحد الذي لا أرضى لأي نفس أحبته أن يمس طرفها أذى؛ ولو أوديتُ أنا فيه ما تبقى من العمر.

- لكن إن وافقتُ، أوقن أنه لن يكون لي فيه النصف، ولا حتى شطر النصف؛ ولا أقل من ذلك.

- لم تقولين ذلك؟ ومن أين اليقين؟

- لأنه يعشّقك، لا يحبكِ فقط.

- فكري في كل كلمة يا إيمان، واعلمي أني والله ما كنت آخذة حقي إلا برضا معطيه، فكيف آخذ ما يزيد عنه من مستحقه؟

لم تنتظر أي إجابة؛ وانتصبت واقفة تستأذن للمغادرة، فإذا به يخرج من مكتبه متعجبا متسائلا:

- لم الاستئذان سريعا؟

- راوية ستحضر رهف بال مساء، ولا أريد أن أتأخر عليها.

- سأوصلك.

- لا داعي، لا ترهق نفسك.

- ليس في الأمر إرهاب، كنت سأذهب الآن إلى المكتب، قضية ثار عاجلة؛ وصاحبها يثير شغبا هناك ويستدعونني للتدخل، فلا أحد من المحامين هناك قادر على التعامل معه.

لم تكن إيمان حاضرة معهم في هذا الحوار، إذ أنها كانت سارحة في ثنايا الحديث السابق عليه؛ تتفحصه وتتفهم كل جملة فيه.



الفصل الرابع والعشرين

وفيه الموت حياة هيه كل الحياة

نحفظ عن ظهر قلب تفاصيل الخفقة الأولى، متى وأين وكيف، حتى آثارها التي بدت جلية على بحات أصواتنا، ولمعات أعيننا، بيد أننا نفقد الذاكرة؛ ومعرفتنا بالتواريخ والأرقام ما إن كفر الفراق بأنعم الوصل، ووقف مجاهرًا بـ "الآن حصحص الهجر" لذلك كنا نرفق بأرواحنا منذ يقيننا بصدق هذه الخفقة، ونمنّيها ببقاء لا يمكن أن يُشَبَّه فيه الوداع لهيبه، ولا يتنزّه على نحره الوجع برماحه، ولا تذوي حممته من بعد صهيله، فنسبل العمر حالمين بها، ومذاق الجوار في حنايا القلب نبضًا لا يزول. وإن اتخذت الأقدار قرارها ساعة قضاء بغير ما غرسناه في أرض المنى، فلا ضير!

إذ يتسبد الحنين ممالك الحس، ويبقى على عهده وفياً مخلصاً، لا ينقص من كُتِّه دفقة، ولا يخبو من وهجه سنا، ولا يفتر عن توارده على جوانح الأرواح

هنيهة؛ وكيف لا! وهو حنين الجزء إلى كله، حنين الفرع إلى أصله، حنين الضلع إلى صدره، حنين الموت إلى الحياة.

لم ينتظر أدهم إجابة منها، على الفور توجه نحو باب الشقة استعداداً للنزول قائلاً:

- بانتظارك ريثما أشغل محرك السيارة.

ودّعت إيمان التي ما زالت ساهمة واحتضنتها بشدة، وكأنها تقدم إليها ضمانات شعورية بالعدالة؛ وعدم التعدي على حقوقها.

يقود سيارته، ينظر إليها في المقعد المجاور له الذي لم يحتفّ بجلوسها عليه سوى مرات معدودة؛ لكنها كانت بعمر كامل، ودّ لو يسألها عما وصلت إليه في مقابلة إيمان، لكن شعورا ما يجذبه إلى الاستمتاع بما يجود به عليه الخيال الذي أخذ بناصية ذهنه، إذ يخالها امرأة قد تمرست كل أدوار النساء؛ وإن تصور كل النساء ثلاث، ثم ما لبث أن اختزلهن في واحدة.

حبيبة وادعة، لم تعرف البراءة نفسا تسكن فيه غير نفسها، والحب الطفولي قد تخلّق منذ اللا زمن في رحم روحها، ولما وُلد كان نسبه ابن قلبها، لا تبك عاشقاً غادراً، وهي التي يهابها الغدر، ويفر الحزن من بسمة لم تولد إلا على ثغرها، تغدقه من الكلمات حبا؛ لا لوما ولا عتابا، يمسك بيدها فيقبلها شوقا، لا يربت عليها مواساة، تختلط دموع اللقاء فرحة لا دموع الخذلان والبين.

يخالها عجربة ترتدي من الأحمر الكياد فستانا ممزق الأذيال، عارِ الأكتاف
يلقي بظلال حمرة على جسدها الأبيض، فيضويه بلون المشمش المغناج،
إذ حمرة شمس الصباح؛ فتاقت إليه النفوس تذوقا، تتراقص، تجذبه إليها
فيدنو؛ وما إن يهم بقطف كرزات ثغرها، تفر هاربة ليتعاطم الشوق من عينيه
نارا؛ تطفئها عودتها إليه وبين ذراعيه؛ تنهي رقصتها التي ينتهي معها كل
شيء.

يخالها قديسة ينسدل عليها البياض سابغا؛ فيُعكس نوره على روحها
النيرة، فيضيء وجهها نورا يغشاه نور، ليجد نفسه واقفا أمام قبس إلهي - من
كوة المحراب - قد نفذ إليه؛ ينير جنباته من في السماء، يراودها عن نفسها
فتأبى وتستعصم؛ سائلة إياه الكف عن إجابة نداءات الجسد، وفي محراب
روحها العاشقة يبقى عمره ظنينا عابدا ناسكا يكفيه صلاة القلب وحسب.

أخرجته هي من خيالاته بتكرار النداء:

- أدهم، أدهم...

- نعم يا هالة، يبدو أنني سرحت.

- سرحت حتى وصلت إلى الصين؟

- هه... صحيح؛ بل وصلت إلى بلاد الجمال والسحر، لا الصين.

- واضح، أوقف السيارة هنا وأنزلني.

- لم نصل البيت بعد.

- أعلم ذلك، أريد أن أسير ما تبقى على قدمي، أريد أن أملاً كامل جسدي بهواء جديد نقي لا يشوبه أي غبار، وها هو الهواء اليوم كأنه ريح هبت علينا من جنان العلياء، أرجوك، قف هنا .

- حسنا، سأظل أراقبك من زجاج السيارة ولن أغادر، سأنتظر حتى تصلي إلى البيت.

- ستتأخر على إيمان وحياة.

- لن أتأخر، ولن أغادر قبل أن اطمئن عليك.

وها هو البيت ليس ببعيد؛ فأنا أراه من مكاني.

- حسنا، لك ذلك.

نزلت من السيارة وتوجهت ناحية البيت؛ ولا زالت صورها تتوالى عليه وتتراكب في مخيلته حتى ارتجج جسده كاملاً، بل انتفضت السيارة من مكانها ذعراً، غُيِبَ للحظة عن الحياة ثم أُعيد إليها؛ وقد فزعت كامل خواجه إثر رؤيته اصطدام سيارة ملاكي بها فجأة، لا يعرف من أين أتت هذه السيارة ولا متى؟ كل الأحلام تلطخت بدماء الغدر في أقل من دقيقة، هالة طريحة الأرض غارقة في دمائها؛ والقاتل لا وجود له ولا أثر، السيارة فرت بسرعة بجنون يسابق جنون عقله في هذه اللحظة دون حسم للسباق.

نزل من سيارته يطوي العمر من خلفه؛ والثرى من تحت قدميه، فإذا بها تتحدث إليه بآخر ما تملك من أنفاس:

- قلت لك لقاءنا ليس هنا، لكنك لم تصدقني، أتصدقني الآن؟

- لا ترهقي نفسك، أرجوك، للمرة التي لا أدري كم أضيعك من بين يدي!

- لا تقل ذلك، بل أراد الله لنا الأجل والأكرم لقلبي.

أدهم، إيمان تحبك، حياة حياتك، رهف ابتك.

- لا تشغلي نفسك بأحد، ستكونين بخير، سأنتقم لك، أعدك هذه المرة سأنتقم وسريعا جدا.

- صدقني، لا فائدة، لا تضيع نفسك، فأنا سأرحل، وكلهم ينتظرونك فكن معهم.

- ستكونين معنا، اصمدي لأجلي!

- لكنني أريدك لي وحدي، كذبت حين قلت: أرضى بنصفك.

- سأكون لك وحدك.

- ليس هنا.

- بل هنا.

- إلى لقاء هناك حيث لا محال ولا فراق ولا ملامة، لا تبتأس بقضاء ولا
تعتب على قدر؛ فحتى وإن رفعت الأرواح، لن يسكن النبض.

فاضت روحها؛ وهو غير مصدق لتلك النهاية، أيعقل أن تأتي عليه
اللحظة التي يخالها فيها ميتة؟

يفرك عينيه بيديه، يفتحهما ويغلقهما، الصورة ليس بخيال؛ إنها الحقيقة.
شق دياجير هذا المشهد البكائي المخيم على الفضاء الواسع صوت لا
يمكن إدراجه في علم الأصوات تحت تصنيف معين، مجازاً بإمكاننا أن نسميه
صوت احتراق الروح بألم الندم.

صوت لا تدركه أذهان الشخوص الذين اعتادوا على إجادة التعامل
المادي مع الأشياء، ولا تترصد لإدراك ماهيته الحواس التي اعتادت على
الاكتفاء بالنظرة الأولى؛ واللمسة الأولى؛ والعبق الأول؛ والمذاق الأول؛
والطرب الأول؛ و فقط.

هذا الصوت لا يفهمه إلا أولئك الذين جُبلوا على تكرارية أعمال
حواسهم لإدراك العمق الداخلي للأشياء؛ ففي كل مرة يفهمون بشكل
أقدر، فيحصلون على متعة أشد، وكلما كرروا العود لإصابة قلب الشيء؛
بلغوا نشوة الاحتفاء به حد الذروة، مهما كانت صبغة الترجمان الشعوري -
حزن، فرح، ضيق، اشمئزاز - تكون النتيجة أضعاف أضعاف سابقتها.

ماتت هالة حبا وقهرا، وأماتت معها كل معنى راقٍ للجمال الإنساني
المستقى من نبع الجمال الرباني، احترق النهار، وتوهج المغيب راحلا، وما
لبث أن كحل الليل بسواده كل الحياة، حتى بنفسيح الفجر لبس تاج القتامة؛
وسنا البكور يشقه على استحياء، وتلك الذهبية المتوهجة غابت خلف
الحجب، اغتمت السحب الحليية لفراقها؛ وراحت تراثها حزنًا، بكت
وبكت وبكت؛ رغم حرارة الجو في عز الصيف، سكبت الديمات ما حوته
على الأرض؛ تطهرها من كل دنس قد علق بها؛ استعدادا لأن يطوي الطهر
بداخله طهرا.

ماتت هالة، فتهدلت أكتاف الحياة، وتساقطت قشور الدهانات العتيقة
من على حوائط الدنيا أرضا؛ تصرخ بأول سقوط؛ وما تلبث أن تتن بعد
بصوت خفيض لا يُسمع أي آدمي، حزنت قناديل الأمل الموصول بالغد؛
فانطفأت هي الأخرى، حتى الكنبه القديمة استشعرت بمجرد وفاتها ثقل
الأمانة التي تحويها فانخلعت منها إحدى أرجلها، وباتت واقفة على ثلاث؛
لا يشغلها ألم الوقوف بقدر ما يشغلها ألم الفقد.

وقع خبر وفاة هالة على راوية كالصاعقة، كادت أن تسقط أرضا لولا
محاولاتها التماسك من أجل رهنف؛ حتى لا تشعرها بشيء مما حدث لأمرها؛
في حين أن البكاء نفسه كان يبكي بداخلها، تمت بصوت خفيض، كأنها
تتحدث إلى نفسها قائلة:

- السمسار ومن بعده هالة؟

ماذا يريدون؟ والدور على من؟

طلب حامد من أحد أبنائه اصطحاب رهف للعب معه بعيدا عنهما، ثم أجاب عليها بصوت خفيض:

- الأمر لم يكن هينا؛ ولن يكون، وإن سكت طرف فلن يسكت الآخر؛
وها هم قضا على اثنين؟

- ماذا تقصد؟

- يكفي إلى هذا الحد.

- بمعنى؟

- أرسلي البنت إلى جدتها؛ واقطعي العلاقات معهم، وأغلقي كافة حساباتك ومدونات الكتابة؛ ولا نزول لجريدة من الآن فصاعدا، ورجاء لا تتحدثي في هذا الأمر مطلقا.

- أنت من تقول ذلك؟

أين المبادئ والقيم؟ وأين لن يُقصف قلم استعصم صاحبه بالحق؟ وأين لا تتهاوني؟ واستخدمي منبر الكتابة للدفاع عمن لا يمتلك القدرة على الدفاع؟

- لا وقت لها ولا مجال، هناك من هم أقوى منها وأقدر على نفسنا من على وجه الأرض في لحظات.

- لن يصيينا إلا ما كتب الله لنا.

- ولستِ المفوضة باسم مظلومي الأرض للدفاع عنهم.

- صدقا!

لا أعلم بم أردُّ عليك الآن؟ فالصدمات تتوالى على رأسي بلا هوادة، أنا ذاهبة الآن إلى بيت هالة؛ لا بد أن أكون إلى جوارهم.

- خذي رهف معكِ؛ ولا ترجعيها.

- الآن؟

- نعم؛ الآن.

استبدت بها الحيرة؛ فلا تدري ماذا تفعل؟ كيف تُعرض طفلة صغيرة في مثل عمرها إلى رؤية مشهد الجنازة والموت والحزن المخيم بلا شك على بيت جدتها؟

اصطحبت البنت وخرجت متوجهة إلى بيت هالة، لم تجد بُداً من الاتصال بأدهم لتخبره بإصحابها لرهف معها، وضَّحت له السبب، فتفهم الأمر وأعطاه عنوان شقته؛ وأعلمها بأن زوجته ستكون باستقبالها.

وعلى الفور اتصل بإيمان يطلب منها رعاية رهف ابنة هالة ريثما يعود ويفهمها كل شيء.

مع إلحاحها وإصرارها معرفة السبب أخبرها بحادث هالة وموتها وصعوبة بقاء البنت في هذا الجو المحتدم بكاء، حتى خالته خارت قواها وفقدت الوعي منذ معرفتها الخبر.

لم تكن الصدمة عليها أقل وطأة من غيرها، فهي التي لم تقابلها قط من قبل ويشاء القدر أن تموت بعد اللقاء الأول والأخير الذي دار بينهما قبل قليل.

أدّيت صلاة الجنائز على هالة عقب صلاة العشاء بالمسجد القريب الذي لطالما حفظت فيه القرآن الكريم، وعلى ذراعها كانت تتوكأ جدتها المسنة للذهاب إليه، دفنها أدهم وأهال على جسدها التراب، ومع كل حفنة كان يبيلها عليها كان يبيل مثلها على روحه المؤودة داخله منذ أن أغمضت عينيها للأبد.

دفنها والقلب عليها يقطر من النبض لوعة، ودعها وداعه الأخير وعلى قبرها وضع ورود اللوعة التي اقتطفها لها خصيصة من بستان قلبه الدنف، مضى عنها اضطراراً، وبيديه عالقة آثار الثرى الذي واراها فيه، فأبى أن يصب عليه الماء غسلًا؛ إذ هو آخر شيء يلامسها معاً، تلك البقايا الرمادية التي علقت بمسامات جلده؛ وتعفرت بها ثيابه لم تكن سوى بقايا روحها، تهديها إليه حين فراق أبدي لا رجعة فيه، لتقول له:

- أنا معك.

أنا الساكنة ها هنا؛ في الروح والقلب وتحت الجلد.

في بيت أدهم، كانت إيمان تصارع طوفان بُغْضٍ وكرِهٍ - عمره أربعة أعوام هي حصيلة سنوات زواجها منه - لتلك المرأة التي تملك من قلب زوجها تمكن الشجرة العتيقة من الأرض الطيبة؛ فلا يمكن اجتثاثها، استطاعت رغم بعدها حجب رؤيته لها؛ مهما تفننت في طرق جذبه إليها.

هي بالفعل لم تكن تملك شيئاً مادياً يدينه، لكنها كانت تمتلك إحساساً بالحرسة أنها تعيش مع رجل ما هو إلا طلل مهدم البنيان، منسوف الروح، وقلبه خاو على عرشه من كل نبض، حتى نبع كلامه نَضِب من كل ما يمس كلمة حبٍ بَصْلَة، تستجدي منه الكلمات استجداءً، فيلقِيها إليها فتاتا بلا طعم، بلا لون، بلا رائحة.

ترتد عنه خاوية الوفاض؛ مغبونة أضعاف أضعاف ما جاءته، والحجة المعلنَة:

(هذه طبيعتي، هذه شخصيتي، وهذا أسلوبِي)

وكان الحب كُفْر؛ إذا ما اعتنق ديانتَه فسدت دنياءه؛ وبطل معتقده؛ وعلى إثره سيكون مثواه جهنم وبئس المصير.

على النقيض يكون في دفتره رجلاً آخر؛ قدم من عالم مغاير لعالمه الذي اصطنعه وأجبر نفسه على العيش فيه، عالم ملائكي الحب، مفعم المشاعر، فياض الإحساس، ينظم القصائد التي تذيب قلبها المشتاق لكلمة واحدة منه

فلا تجدها، تتلصص كتاباته فتقرأ وتقرأ في غيابه، ترثو حالها تارة خفية، وتارة أمامه فلا يُبدي ردًّا وكأن على قلبه كناناً، وفي أذنيه وقرا.

تحاول أن تلبس نفسها ثوب الخداع المزركش بالرضا الوهمي، بأن تسقط الكلمات عليها، حتى تمضي بهم الحياة في سلام وطمأنينة؛ رغم معرفتها بأنها الخادع والمخدوع، ولكن في عرفها هذا هو الحل المبعوض.

تنظر إلى وجه رهف المنطفئ نوره، الذابلة عينيه، واليتم يقف على رأسها يقول: ها أنا ذا قد استوطنتُ هذي الصغيرة؛ ولا بغية لي في غيرها.

لوهلة تحال ابتتها مكانها؛ فتنتفض ذعرا؛ رافضة الهاجس الذي انتابها، فتصارع فورة غيرتها المتأججة، وتمد ذراعيها لتلقفها بينهما؛ تحتضنها محدثة داخلها في حوار صامت البوح، محتدم الصراع :

-لقد ماتت يا إيمان، لا داعي لتذكر هذه الأشياء.

-كيف لا أتذكرها وهي محتلة ساحة قلبه بالكلية في غيابها الأول، فكيف سيكون في غيابها الثاني؟

- سينساها، فلا أمل في عودتها، هناك فرق بين الغايين.

- كيف ينساها وابتتها في بيتي؟

- وما ذنب ابتتها؟ هي طفلة لا حول لها ولا قوة.

- مسكينة فعلا، لا حول لها ولا قوة.

- إذن ادع الله أن يهيئ لك من أمركِ رشداً، وأن يثبت قلبه على قلبك.

- يا رب؛ رده إليّ؛ وبصر عين قلبه بي، فإنني أحبه ولا أبغي منه فراقاً.

يا رب؛ رده إلي يا رب.

انتهت مراسم العزاء البسيط في تنظيم سرادقه الغني؛ في رحمت محزونيه
يكونها حتى وإن لم يعرفوها تمام المعرفة؛ فلقد كفتهم فاجعة أم في فقد ابنتها
الشابة والتي على إثرها سقطت هي الأخرى سقطة ربما لم تقم لها منها قائمة
ثانية.

دخل أدهم على خالته ليطمئن عليها، فإذا بها على حالتها؛ غائبة عن الدنيا
ومن فيها " فلا تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم ركزا".

بنتها إلى جوارها يبتهلان بالدعاء وحسب؛ فهذا هو كل ما تملكان.

كان الليل سارياً في عمر الزمن منكس الرأس محزوناً، تاركا القمر يبكي
وينوح بمفرده؛ مرسلأ أسأله السوداء على القلوب المكلومة، ليكون المشهد
التعبيري للنفس كظلمات في بحر لجي يغشاها حزن من فوقه قتامة من تحتها
حزن لا تكاد ترى فيه بصيص سعادة.

استقل سيارته متوجهاً إلى بيته ليلحق برهف قبل أن تنام كما وعدھا،
بيد أنه لم يدرِ إلا بنفسه وهو واقف على كورنيش النيل يتأمل صفحة الزرقاء
التي استتقت من سواد العالية فوقها الخالية الضوء إلا سواداً، فأمسى الجو
أقتماً، وقف وقتاً طويلاً شاخص الروح، ناح اللاشيء، ساكب الدمع على

كل الأشياء دون أن يدري بلهيب هذا المتساقط على وجنتيه، اقترب منه أحد الأطفال من الباعة الجوالين سائلا:

- مناديل يا أستاذ؟

لم ينطق بكلمة، مديده وأخذ علبة المناديل، ونقده مبلغا لا يعرف كم قيمته! فشكره الطفل وظل يدعو له كثيرا كثيرا، دقائق يسيرة حتى عاد الطفل ومعه عقدا من الفل قائلا:

- هذا لك يا أستاذ، أراح الله قلبك.

نظر إليه أدهم وابتسم بسمة عرجاء؛ لا تقوى على القفز من داخل القلب إلى خارج الشفاة مباشرة؛ وهو يتنهد قائلا:

- وأين القلب الذي تدعو له بالراحة؟ لقد رحل يا بني، رحل إلى غير رجعة.

- عوضك الله عنه، ربنا رحيم بنا جدا يا أستاذ.

- ونعم بالله يا بني.

سمعت إيمان صوت المفتاح يُعمل في الباب، فإذ به هو زوجها منها متعبا واجم الهيئة، شاحب الوجه، استقبلته بتحنان الأم وهدوئها، سائلة إياه:

- كيف حال خالتك الآن بعد هذه الفجيعة التي حلت بها؟ هل من تحسن؟

- لا، كما هي، الصدمة لم تكن بالهينة عليها لتستوعبها.

- أين رهِف وحياءِ إذن؟

- نامتا، بكت رهِف كثيرا تريد أمها، حاولت احتواءها وظللت أحكي
لها قصصا حتى غفتا بين ذراعي، ثم نقلتهما إلى غرفتهما.

نظر إليها بحبور ورضا، فلقد سَهَّلَ عليه بطريقة معاملتها الحانية لرهِف
الكثير من التبريرات التي كان سيجتهد في أن يقدمها حتى تقتنع بإبقائها
معهم دائما، فقال ممتنا:

- هكذا عهدت طيبتكِ وقلبكِ النقي يا إيمان، فعلا البنت متعلقة بأمها
جدا، نظرا لما مرَّابه من ظروف قاسية.

إيمان؛ أود أن نُبقي رهِف لتعيش معنا مدى الحياة.

ازدردت ريقها، وشخصت ناحية مكتبه تتذكر دفتر مدوناتهِ وقسوة ما
فيه عليها، ثم نظرت إلى رجاءات عينيه، وأجابته بالموافقة.

قام إليها شاكرا ممتنا مقبلا رأسها قائلا:

- جُزيت خيرا يا أم حياة، لا حُرمناك أبدا.

- ولا حُرمناك بيننا.

دقائق وسيكون العشاء جاهزا، ريثما تغتسل من عناء اليوم وتراب المقابر
الذي تَغشى ثيابك هكذا.

- لا، لا أريد عشاءً، ولا اغتسالا الآن؛ بإمكانكِ أن تستريحِي، مؤكد أن
البنتين أَرهقاكِ جدا اليوم.

- لا أرغب في النوم، بإمكانني البقاء إلى جوارك، ربما تحتاج إلى شيء .

- معذرة إيمان، أريد أن أختلي بنفسى.

- كما ترى.

قامت عنه وقلبها يعتصر ألماً، فهي تعلم أنه يريد أن يختلي بها في دفتره دون شريك يجالسهما، التفتت وهي تهم بالدخول إلى غرفتها فلمحته يفتح باب مكتبه، كما أخبرها حدسها فيه، ارتمت بجسدها المثخن بجراح البعد، وعقلها المشوش ببعثرات الاحتمال، أينسى هالة أم لا؟

غفت على حين غفلة من أجاج العين المنحدر يشق وجنتيها في صمت.

كان هو على وريقات مفكرته يبت هالة لوعته وأشواقه:

- آه لو تعلمين، لو تشعرين، لو إليّ الآن تنظرين...

فوالله لو أن لتوق الأرواح وصبوة القلوب رائحة، لتطّيب ذر الهواء المهاجر إليك غداة وأوبة بين السماء والأرض بعطر الياسمين.

ولو أن لهما هزيزاً؛ لكان شدو البلابل، وزقزقة العصافير تصدح بأعالي الأغصان تطرب السابليين.

ولو أن لهما مذاقاً؛ لامتألت بطون النحل شهداً بحلو الاشتياق والحنين.

ولو أن بالإمكان الإمساك بالفرشاة والألوان لرسمهما، لانزوت الألوان وعجزت الفرشاة عن خط طيف من تعاريج الانتظار برحم اليقين.

ولو أن بالإمكان احتضانها لهوت الروح على جناحيها ترفع راية
الاستسلام في حضرة الهوان الناهر عباب القلب العليل.

بيد أن من حسن شيمتهما أنهما من الروحانيات الملائكية

معدومة الرائحة والصوت والطعم والرؤية والتجسيد.

هما فقط أحاسيس ذات ندبات خفية لا تُرى؛ وبهجات جليلة

يُستعصى على الروح إجلاءها - حين تزهو - إلى حيث اللارؤية.

أي روح هاجرت إلى حيث اللاعودة.

ودعت راوية هالة وداع الصامتين؛ حيث اكتفت بقبلة على جبين كفنها

الأبيض مواسية أختيها الجالستين إلى جوار أمهما الغائبة عن الحياة، مقدمة

العزاء لأدهم بكلمتين دون زيادة "البقاء لله" حتى أنها لم تنتظر لتستبين أزداد

عن "الدوام لله" أم لا؟

لتعود إلى بيتها واهية قد خارت كل قواها، مخزولة من كل أحد وأي أحد،

لتجد صفعة جديدة بانتظارها كيما تكون القشة التي قسمت ظهرها، حامد

يرد على هاتفه منفعلا:

- لقد فعلت كل شيء، محسن بالمصححة مجنون بشهادة رسمية؛ ولا يؤخذ

على كلام المختلين عقليا، هالة وقد أخبرتكم موعد عودتها من المملكة، ماذا

تريدون مني بعد ذلك؟ كفاكم، كفاكم.

كان الطرف الآخر يحدثه عن أحد فإذا به يجيب:

- وماذا بها زوجتي؟ أأقتلها أم ماذا أفعل؟ ارحموني، اقتلوني أنا وأريحوني.

لحظة أخرى يستمع إليهم ثم يجيب:

- انتهى الأمر عندها؛ وتوقفت عن الكتابة عن القضية؛ وأغلقت جميع حساباتها؛ وبإمكانكم التأكد من ذلك.

صمت مرة أخرى؛ يسمع ما يُقال، ثم أجاب:

- حاضر، ستختفي نهائيا، لا تقلقوا، ستختفي.

أغلق الهاتف واستدار بوجهه بعدما وضعه على سطح مكتبه، فإذا بها تقف قبالة، تلثم وتخبط الحروف بجوار بعضها على شفثيه، وأخيرا نطق:

- منذ متى وأنت هنا؟

الصمت جوابها، والجمود ملاحظها.

- قلت لك منذ متى وأنت هنا؟

لا جديد مطلقا؛ حتى عضلات وجهها كأنها شلت؛ فلا عرق ينبض؛ ولا رمش يرف؛ ولا عضلة تتحرك.

أخذ يريجها رجا عنيفا، فلا جدوى من فعله وبدأ يفسر لها ما سمعته:

- أنا لم أفعل شيئاً، كنت أحاول انتشالكِ من النار التي أَلقيتِ نفسكِ فيها
قبل أن تأكلِكِ بأكملكِ.

أنا أحبكِ، أخاف عليكِ، أخشى ضياعكِ، لا تقفي مثل الصنم، أجيبي
بأي شيء .

لا شيء يجيبه سوى الصمت، الصمت الذي عمَّ كل شيء، ولا أحد يقوى
على كسر حاجزه، والنفاذ إلى صخب الحق وضجيج الحقيقة، مقتل السمسار
بداخل السجن كان قضاءً وقدرًا، مقتل هالة القاتل مجهول والعثور عليه
محال، حتى راوية العثور عليها محال.

كل محاولات أدهم في الوصول إليها تبوء بالفشل؛ فلا العنوان هو
العنوان ولا الهواتف هي الهواتف ولا أي شيء يمكن أن يوصله بها كما كان
يوصله من قبل، وكأنها راوية أضحت كهالة لا وجود لهما سوى الذكرى.



الفصل الخامس والعشرين

ففيه الاشياء تجد كل شيء

من قال إن الأطفال لا يدركون كل ما يدور في فلكهم من أحداث ووقائع؟

هم يدركون ويتأثرون جدا، بيد أن منهم من يحفظها في داخله النفسي؛ وينقش تفاصيلها في الذاكرة دون أن يرددها أو حتى يذكرها ملمحا بها أو مصرحا، وفي وقت لاحق يستدعيها صورة حية قد دبّت فيها الروح من جديد؛ يطالعها ثانية، ويبنى ردة فعله إزاءها حينما تكون قدراته السلوكية قد نضجت بما يكفي.

ومنهم من يتخذ أسلوب الاستفهام كوسيلة يعبر بها إما عن عجزه لفهمها فيستنطق التوضيح ممن يكبره، أو يكون عبقريا فتأتي أدوات استفهامه في مقدمة أسئلة أغلبها استنكارية لشعرك بضالة حجمك أمامه،

فلا الحرف يسعفك؛ ولا التمويه يلهمك، فقط تقول الحقيقة وإن كانت في أبشع صورها.

مرت الأيام تجر ذيل بعضها البعض دون جديد، سوى حزن يتعاضم في قلبه، وشيب قد جاور ذاك البعيد الذي مسح سواده حزنا عند رحيلها الأول، وها هو أثر الرحيل الثاني يترك بصمته؛ يراها جلية كلما طالع نفسه بالمرآة، ويراه القاصي والداني سائلا عن شيب في عز الشباب، فيجيب:

- إنه أثر الرحيل الذي يأبى إلا حضورا وقت الغياب.

أم هالة على حالتها؛ غائبة عن الدنيا كلها دون إدراك لأي شيء فيه؛ حتى ذاك المساء الذي بدأت تحرك فيه شفيتها وتفتح عينيها، تغمغم باسم رهف، تنادي وتنادي عليها:

- رهف هنا عند الباب افتحوا لها، لا تتركوها تنتظر.

اشتقت حضنك الدافئ يا صغيرة، تعالي إلي.

كانت الكلمات تخرج واهنة متقطعة مشتاقة؛ وأيضا وجلة من عظم ما اقترفته في حق ابنتها الراحلة وبنتها.

اتصلت إحدى ابنتيها بأدهم تبلغه بما حدث، سريعا كان أدهم ورهف بجوارها عند سريرها، ثم دنت منها تقبلها وعلى صدرها ترتمي في انتحاب، تسألها:

- جدتي، أين أمي؟

أريد الذهاب إليها، هيا انهضي لنذهب إليها.

لم تختمل أم هالة هذه المرة وجيف القلب، ونصل الكلم المغروس في الروح، سكون عم الغرفة تهبيا لخروج الروح التي فاضت بهدوء وسكينة.

خرجت رهف من بيت جدتها واجمة الملامح، شاردة الذهن، كأنها تحيا في عالم يخصها وحدها، البخار يتكاثف على مرايا عينيها؛ وما يلبث أن يجتمع قطره على حافتي الهدب، فتلتقطه يدها الصغيرة حتى لا يسقط على خدها، تنفيذا لوصية أمها بألا تبكي.

ينظر أدهم إلى فعلتها؛ فيتذكر هالة ومعافرتها الدائمة من أجل أن تبقى شاخة قوية، حتى اكتشفت الحقيقة المريرة؛ إذ كانت تُوهم نفسها بالقوة وهي أوهن من يكون.

حاول مداعبتها ليخرجها من حالتها هذه سائلا:

- ماذا تحبين أن أبتاع لك ولحياة من حلوى؟

- لا أريد شيئا، أريد أُمي.

- يوما ما سنذهب إليها.

- ولم لم تأخذني جدي معها لها؟

وقعت الكلمة عليه كالصاعقة، لا يعرف كيف فطنت إلى موت جدتها، وهو الذي حاول إبعادها بسرعة قبل أن تتبته.

- جدتك نائمة، لم تذهب بعد.

- لا، جدتي ذهبت الآن عند أُمِّي، لا تحاول خداعي، لم أنا التي يموت كل أحبابها؟

حتى أبي الذي لم أراه أحبه، لربما مات هو الآخر؛ ولم ترغب أُمِّي أن تخبرني فلا أحزن، كما تفعل أنت معي الآن؛ وتقول جدتي نائمة ولم تمت بعد.

- إنها سنة الله يا صغيرة، نولد لنموت ونموت لنبعث من جديد مع من نحب ولا نفترق أبدا.

- أنا لا أفهم كلامك.

- حسنا، كأَمَك أنت يا صغيرة، لا تتركين شيئا من دون فهم، حينما تكبرين ستعلمين كل شيء.

- وأنا أريد فعلا أن أكبر.

- إن شاء الله.

وصلا إلى بيته وقد اشترى لها ولحياة ما تشتهيان من حلوى، وأبلغ إيمان بموت خالته؛ طالبا منها رعاية رَهْف وشَغْلها حتى لا تعود إلى البكاء ثانية.

رحلت العصفورة منكسرة الجناحين؛ ولحقتها أمها مبتورة الأطراف كلها، وكأن القدر جاء بهالة من بعيد لتكون هي اليد الظاهرة التي نعلق

عليها الأسباب، بيد أنه لا مناص من هذه المقولة الخالدة "تعددت الأسباب والموت واحد!".

كان أدهم قد تحصل على إرثه من هالة كما أوصته من خزانة الكنبه، فتحها بعد انقضاء أيام العزاء ليجد في هذه الخزانة؛ الدفتر الذي اشترته ذات يوم وهو معها؛ وقالت إنه لرهف، أمسكه بين يديه وإذ بداخله مظروفا صغيرا مكتوب عليه: " لك وحدك".

أخذه مع بقية الإرث من كتب وورود ذابله، لكأنها رُزق بهم حياة جديدة غير تلك التي دهسته دهسا تحت غوائل الحرمان والفقد، فتحه، فوجد ما لم يكن يتخيله.

فإذ به بعض خصلات من شعرها، بعضها قد شاب وأضحى كحبات اللؤلؤ؛ يكاد بياضها يضيء ما إن لامسته الأيدي بقبس الحب المنزوي في جنبات الأرواح المهاجرة، وبعض خصلات سوداء؛ لازال الليل يكحلها من دياجير السهد، وورقة صغيرة كتبت عليها:

- إليك رفيق الشيب...

فلقد أبى الأبيض الذي زارك في لوعتك علي إلا أن يزورني، ليبقى شاهدا لا عليك وفقط؛ ولا علي وفقط، بل على كلينا، وهاتيك شيباتي، فخذها واحفظها ما حييت، فإنهن عوان عندك فاتق الحب فيهن السلام.

أما السوداء؛ فهذه لرهف؛ ذكرى مني؛ ولتعلم أنها ورثت نفس لون شعري.

قرأ والابتسام على شفثيه حائر بين الانزواء والبزوغ، ما بين مرارة تخفيها، وشوق يبدىها، لكن الشوق أبى إلا أن ينتصر إلى تلك الهدية التي تركتها له، وراح يتحسس خصلاته هو الآخر، قائلاً :

- ويبقى الوجد إلا أن يكون رحيمًا بقلبين، فيهدينا من جعبته العطية نفسها، فالحمد لله، ثم تتسع البسمة شيئاً فشيئاً لتملأ وجهه من حبها الشديد لا ابتها الذي دفعها إلى هذا التفكير المجنون بأن تترك لنا خصلات شعرها.

حياة حيكت من نسج متناقض جمع بين الفرح والحزن، ورغم ذلك التناقض كان في فرحه مسحة من حزن شفيف، وفي حزنه عناقيد من شوق تليد، وفي الوجهين لا يرى إلا هالته المتوضئة روحها به، طقوس خاصة فرضها هذا الدفتر عليه حين يطالعه كلما اشتاق لأن يتمتع ناظره ببلاغة أديبته التي رباها على يديه، فكانت أدبية حقة، بيد أنها لا تملك من جمهور القراء إلا واحداً فقط؛ مشيراً إلى نفسه وهو يتمتم:

- ألا حباً!

مرت الأيام بل والشهور؛ وها هو عام وأكثر قد مضى على ذكراها، كل مشاعره قد صهرت في قالب واحد هما البنتين " رهف وحياة " فكانت بهما ومعهما كل الحياة التي رامها بعد موت هالة، القلب سامياً؛ والروح منتشية؛ والعقل في غمرة العمل والقضايا منهما.

مع توددات إيمان وما تبذله؛ صعدت مشاعر جديدة إلى قلبه، ليست كتلك التي أجزلها لحبيته، ولكنها مشاعر من شأنها أن تحييه على قيد الزواج زوجا صالحا، لا يُيكِي قلب امرأته حسرة على حظها الذي أوقعها برجل فاقد القدرة على عطاء الحب.

فلم يعد يستحضر هالة أمامه؛ ولا يراها في امرأة أخرى غيرها، ليس نسيانا لها، حاشاه أن ينساها، ولكنها تعدت في حدود مدركاته العقلية والقلبية، تلك الأنثى الحسية المجسدة في تكوينها من لحم ودم إلى حورية في جنات النعيم سكناها، ينزهها عن كل شعور حسي تستدعيه الغريزة، يبكيها دعاء لها في كل صلاة، يخلص وفاء لها في تربيته الزاكية لابتها، ينفذ وصيتها في زوجته، يلتفت إلى صنيعها وصبرها على خوائه فيبصرها لأول مرة من جديد، ويراها بصورتها خاصتها هي دون أن يلبسها صورة هالة.

عينه أصبحت أكثر جرأة لأن تواجه عينها، أن تتأمل ملامحها، أن تستشعر حزنها الدفين، أن تبصر نور بسمتها الساطع على محياها، أن يلامس قلبه صفاء صفحتها وعظيم حبها له.

استشعرت إيمان كل هذا التغير؛ فكانت تتجهّد في البذل والعطاء له وللبنتين بحب وإخلاص، كانت تحدث نفسها كلما قفز إلى ذهنها كلمات أختها الناقمة على طول صبرها على زوجها الغير مبالي لحبها:

- سأستمر في طريقي إليه.

نعم، سأصل.

يوما ما سيعود!

لا تثبطني عزائي أخته، أنا محبة، وأنى للمحب أن يتخلى.

يا رب كن عوني؛ ولا تخزني فيمن رزقتني منه بابتتي .

حتى تلك الليلة التي ولأول مرة يتذكر فيها ذكرى زواجهما، حتى وإن كانت هي البادئة برسالة صباحية تقول فيها:

- كل عام وأنت حبيبي.

اهتز لها قلبه وهو يردد لها:

- حبيبي؟ نعم حبيبها، لو لم أكن كذلك ما احتملتنى كل هذه السنين،

نعم حبيبها الذي جفاها فلم تكرهه، نعم حبيبها وإن كان حبها غير الذي به القلب امتلأ عمرا وشعرا، نعم حبيبها.

يومٌ ملبد بالقضايا التي تمطره بأعباء لا حد لها، قرر إنهاء كل ذلك باكرا
كيما يعود إليها حاملا جواب رسالتها الصباحية بأضعاف أضعاف ما احتوته
من حب.

نظر إلى ساعة يده، فإذا بها التاسعة مساء، هم أن يللملم أوراقه كيما يغادر
مكتبه؛ فاليوم مطير والليل حالك السواد، محق فيه القمر وتوارى في كبد
السماء، ولازال بحاجة إلى شراء الهدايا لإيمان والبنات، وإذ بامرأة تطرق

باب مكتبه، تحمل رضيعتها بين ذراعيها تبكي؛ ودموع السماء التي أقسمت على نفسها ألا تكف قد فعلت في ثيايبها أفاعيلها، هالهُ منظرها البائس، ودموع عينها المنهمرة، رق لحالها فانطفأت ثورة الغضب التي كادت تلقي بمساعدته الذي أذن لها بالدخول عليه وقد ملمم أوراقه استعداداً للمغادرة، أذن لها بالجلوس وهو يقول :

- خيراً سيدتي، تفضلي، ما قضيتك؟

- أريد الطلاق من زوجي.

نظر إليها بحنق مستنكراً جملتها:

- آلاًن يا امرأة، تخرجين في هذا الجو العاصب والبرودة القاسية والمطر الذي صب جام غضبه عليك وصغيرتك لتقولين: أريد الطلاق من زوجي؟

- نعم أريد الطلاق منه بأية وسيلة، هو لا يعترف بنسب ابنته، لا يلمسها ولا يطيق لها قرباً.

أهانني وضر بني وطردي مرة تلو المرة، وتحت إلحاح أهلي الذين لا حول لهم ولا قوة؛ أعود إليه مؤملة صلاح حاله، لكن لا جديد.

الليلة غفوت إلى جوار ابنتي بعدما هديني التعب، غرقت في النوم ولم أشعر بشيء سوى يده تمتد إلى الصغيرة، يطوق عنقها ويخنقها.

انتفضت فرعة من مرقدي؛ أصرخ به ألا يفعل، انتزعتهما من بين يديه وأبعدتها عنه، وخرجت مسرعة إلى الشارع لا أعلم لي وجهة، وإذ أنا بسيري وجدت لافتة مكتوب عليها "للمحاماة والاستشارات القانونية"، فتجرت وأدخلت؛ وأنا أدعو الله أن يساعدني في الخلاص من هذا الرجل المريض، لقد أذهبت عقله المخدرات، يوسوس له شيطانه أنني كإحدى غريباته، وأني خنته مع أحد أصدقائه الذين هم على شاكلته، وإني والله لبريئة.

استمع إلى شكايتهما وهو يضرب كفا بكف متعجبا من الأقدار وأفعالها في البشر، نادى على مساعده كيما يتولى إجراءات القضية، والتفت إليها قائلاً:

- لا تقلقي، سرفع لك القضية.

- بالنسبة للأتعاب فإني ...

- يا سيدتي، لا توجد أتعاب، وهذا الكارت به أرقام الهواتف؛ واتركي رقم هاتفك مع المساعد؛ وستواصل قريباً.

- بارك الله لك، لا أعرف كيف أشكرك .

خرجت المرأة من عنده وقد اطمأنت أن هناك من سيساعدها ويخلصها من كابوسها، وقفت أمام المبنى تنتظر وسيلة نقلها إلى بيت أهلها، خرج هو بعدها مباشرة، فوجدها على حالتها تنتظر؛ والليل يحف الشوارع بالسكون، والبرودة تزداد؛ تكاد تجمد الدم في العروق، والمطر لازال منهمراً كما هو،

أشفق على حالتها وتقدم نحوها يعرض عليها توصيلها إلى البيت، فوافقت
بعد صراع داخلي مرير.

قاربت الساعة على الحادية عشر؛ وهو لم يزل بالخارج ولم يرد على رسالة
إيمان ولو بكلمة، كيف ستسامحه؟ ألا تبا

لم يكمل كلمته حتى سمع رنين الهاتف، وإذ بها هي:

- كيفك أدهم؟ لم كل هذا التأخير؟ أقلقنتني عليك.

- هلا حبيبتي، العذر منك قضية مفاجئة، صاحبها مسكينة.

- أعانك الله، الجو مطير جدا وأنا أخشى عليك من قيادة السيارة فيه.

- لا تقلقي، أنا نزلت بالفعل وفي الطريق إليكم.

كيف حال البنات؟

- بخير الحمد لله، لقد نامتا للتو، بعدما انتظرتاك طويلا.

- حسنا، أنا بالطريق.

- وأنا بانتظارك، لا تتأخر.

هرعت إلى غرفتها تترين كأهبي عروس؛ تنتظر فارس أحلامها؛ حتى وإن
كان هو ذاته من كتب اسمه في وثيقة الزواج زوجها لها، فهي الآن تنتظره
لتحظى بقلبه قبل جسده، بروحه قبل عقله.

زينت غرفة نومها بتلك الإضاءة الملونة المهمل الضغط على أزرارها الكهربائية منذ زمن، وعلى فراشها الوثير نثرت له الورود التي تضوع الشراشف بأجمل أنواع الأرائج، قطفت بتلات وردة جورية وراحت تكتب على كل ورقة حرفاً من اسمه يحمل جملة استنطقتها من جوف المشاعر الضامّة؛ وحيثما يضع ساعته على التسريحة وضعت الورقة الأولى:

- "أ" اشتقتك جداً، وليت الشوق يحملك إلي.

وعلى كوموده المجاور لمكان نومه وضعت - على مجموعة من الكتب قد اشترتها له خصيصاً من معرض الكتاب لتهدئها له في هذا اليوم - الورقة الثانية:

- "د" دوما كنت بقربك؛ وبالبعد كنت تقتلني.

وعلى منامته التي وضعتها له على طرف السرير كان موضع الورقة الثالثة:

- "هـ" هائمة أنا بدونك، وشطآنك تعدو بعيداً عني.

وأما الرابعة، فأمسكت بها في يدها كيما تسلمها له يدا بيد بل قلباً بقلب. سمعت صوت الباب يُفتح، فهرعت إليه تستقبله، كمن غاب دهرًا، وليس يوماً، تعلقت برقبتة لا تبغي منه فكاً، التمع الشوق في عينيها، فانعكس في مرايا عينيها عليها، يضيء وجهها الخمري نورا تمازجه حمرة

الشوق إذا ما استحى من نطقه الكلم، فخرج عنه صمته الخجل مخضبا
الوجنات الخضل.

لم يقوَ على مقاومة السحر الأخاذ، ولم ينطق بحرف يطفى نيران الشبق،
وقف يطالع الحسناء كحيلة العينين؛ ولأول مرة تلمح عيناه جمالها الهادئ،
يتأمل ذاك السواد المتواري خلف ذاك الفرو الوردي الذي ارتدته قسرا
لتستدفى به من البرودة القارسة، بيد أنه الآن لم يعد لها به حاجة.

أطلقت عنان حزامه من على خصرها؛ فاستحى من لبيب جسدها وسقط
أرضا.

فغر فاه، بل فغرت عيناه تحد بصرها في لونه المفضل الذي كست به بعضا
منها، فأظهر أكثر ما وارى من بدن، ارتدت السواد رغم منعه لها من ارتدائها
له ولنقيضه طيلة ما مضى من عمر زواجهما؛ فهي لم تكن المنتظرة التي تمتع
ناظريه بما يحب من ألوان، بيد أنها قررت أن ترتديه الليلة تحديا لها ولقلبه؛
مؤملة الظفر بأنوثة تأسره في شباكها، وبوقوع قلبه مغرما بها.

أنزل ذراعيه من على كتفيها يطوق خصرها؛ فالتمعت حبات اللؤلؤ
المرصعة على حزام فضي محكم الاستدارة أسفل الصدر؛ تضوي كل السواد
وما علاه، وكأنها تناديه:

- " هيت لك "

قبل جبينها، فألهب نبضها المضطرب اشتعالا، وبعثر الأعماق فهاجت بها كل الدواخل.

حرر أحد ذراعيه، ومن جيب بزته أخرج هديته، عقدا ذهبيا طلاؤه فضي اللون، مُنحياً شعرها جانبا، فيسندل على جبين تفاحها النضج ينادي:

- أيا قاطفي، هلا دنوت؟

يلف عنقها به فتلفح وجهه أنفاسها، فتكتمل زيتها النصاب؛ ويبلغ الجمال حد السباق، ولأول مرة يهمس بها:

- كل عمر وأنت حبيبي.

لم تجبه؛ وإن ألح الاستفهام بالصدق عليها بالطرح، بيد أنها أسكتته واهتدت إلى سبيل الصمت؛ تصطحبه حيث وضعت أوراقها، ناظر الأوراق جميعها ومع كل ورقة يقرأها يلتجم لسانه عن الكلام، حتى آخر ورقة مدت إليه يدها بها:

- م... موشوم قلبي بحبك، فعد؛ وقرّ عينيّ بقلبك.

لثم جبينها بقبلة تحكي دواوين من قصائد الاعتذار، وعلى يدها راح يضع قبلات الشكر والعرفان، همّ أن يصارحها بكل ما مر به من تغيرات شعورية تجاهها، بيد أنها أسكتته عن استكمال البوح الذي تذوقت مرارته حسا من

قبل، وعلمت كم هو مرير! فلا ترغب في تذوقه ثانية، وإن كان اعترافا منه وجها لوجه، وعلى فمه وضعت يدها تهينم إليه:

- لأول مرة منذ زواجنا أشعر بأنك رجلي وحدي؛ لا شريك لي فيك، لي وحدي جسدا وروحا وقلبا.

- أحمد الله أن أعادك إليّ؛ يا من كل عمري له فداءً، وكل قلبي له سكنا، وكل روحي له روحا.

بعد تسعة أشهر، رزقت العائلة بمولود؛ أصرت إيمان على أن تسميه أحمد؛ تقديسا لتلك الليلة التي شعرت أنها الليلة الأولى التي تزوجت فيها بزوجها، وكل ما دونها من سنوات كان في تعداد العدم، معنونة الإحصاء باللاشيء.

لم يتقاعس أدهم عن زيارة هالة أبدا منذ سكنها في دارها الجديدة، مهما ألمّ به من مسئوليات أو مرّت به من أحداث، حتى في مرضه ومهما بلغ به من إعياء، فلا يستطيع أن يمتنع أو يؤجل حتى الزيارة.

يجلس إلى جوارها بالساعات يحكي لها كل تفاصيل حياته وحياة رهف، ويطمئننها عليها ويخبرها بكل تفصييلة تخصها، طعامها الذي تحب وتأنف، وطولها الذي بلغته عند كل زيارة بالمليمتر، تفوقها الدراسي ودرجاتها الشهرية والفصلية، حتى توقيع الشهادات يذهب إليها ليوقعها إلى جوارها، كل شيء مهما كان صغيرا أو كبيرا، تافها أو ذا قيمة.

بيد أنه شعور خفي يحثه حثا في صباح هذا اليوم تحديدا للذهاب إليها في زيارة استثنائية لها، حاول نفض الفكرة عنه، فموعه لا يفصله عنه سوى يومان، إلا أن كل محاولاته لا تظفر إلا بالاقتراب من سكنها خطوة بعد خطوة حتى وجد نفسه يقف أمام القبر مشدوها من وجودها، ناداها كمن هدّه البحث وأكل من تفكيره الظن :

-أأنتِ هنا؟ يئست من البحث عنكِ، اختفيتِ كأن الأرض انشقت وابتلعتكِ، أين كنتِ يا راوية؟

-أدهم، أنت هنا؟ يا لعجائب القدر، أجمعنا هالة من جديد، ألا زلت تتذكرني؟

- أنت تمزحين بالتأكيد؟

- كيف لا أتذكرك؟ أنسى أنبل وأفضل من قابلت في حياتي؟

- ياه يا أدهم، بل أوهن من استقويتم بها وأخذل من وعدتكم؛ فلم توفّ.

- لا تقولي ذلك، بل بذلت وبذلنا كل ما يمكن أن نفعله.

-ولكن.

-لا تقولي ولكن، بل أخبريني لم أتيت لزيارة هالة اليوم؟

- صَجِرْتُ الصمت في حضرة الحياة، فأتيت كيما أصرخ في حضرة الموت
عسى تزورني الراحة من بعد الشقاء.

-إنه العذاب بحق.

- هو عينه وقلبه وروحه.

-وماذا بعد؟

لم تجب راوية وعادت إلى الصمت حتى في حضرة الموت، وتركت أدهم
واقفا أمام هالته تفيض عينياه بنفس الحب الذي رآته فيهما من قبل، تحركت
من أمامه ومشت إلى خارج المقابر وضجيج شاشات الأخبار في إحدى
المقاهي يصدق:

- تسقط تسقط عروش البغي.

الموت الموت للجلاد.

وأخرى ترد عليها:

- نموت نموت ويحيا البين.

كلنا فداء لكم يا أولياء النقم.

وثالثة تعقب المذيعة:

- أحقيقي ما يجري بشوارع البلاد وأزقتها، أم تصوير المشاهد من فيلم
سينمائي يتم تجهيزه على قدم وساق كيما يعرض في دور السينما الجديدة العام
القادم؟

- فورات أم ثورات تحتاح الممالك؟

أتنخدع الفورة أم تتأجج نيران الثورة أم تنثر الممالك زكاة عروشها
المتأخرة لسد أفواه هذه وتلك؟

تخرج راوية عن صمتها للمرة الأخيرة وتصرخ بأعلى صوتها وسط المارين
بالطريق:

- كفوا عن ضجيج حيرتكم الزائفة.

- كفوا عن لهائكم خلف فتات الأمتعة.

- كفوا عن التصديق بأن قوتكم في الجمهرة.

- كفوا عن الحلم يا ذوي الأيادي البيضاء، فالسواد لا يؤثر فيه بياض.

- لا تنالوا من بعد الحلم سوى "اللاشيء" وليتكم تنالونه.

ظلت تصرخ وتصرخ حتى خلوا سبيلها وتفرق عنها كل أحد.

على مكتب أدهم في صباح اليوم العاشر بعد لقاءهما يتصدر إحدى الجرائد
الكبرى مانشت بالخط العريض عنوانا باسم:

"دائما للأيادي العليا بطش آخر"

بتبعه..

"قتل كلمة الحق في زمن لا يجيد معاصروه سوى الكلام المسف"

ثم تبعه ..

وهل يجدي بتر الأصابع ونزع العقول؟

لحادثة قتل مروعة لكاتبة صحفية تدعى راوية الراوي، تم العثور على جثتها ملقاة على قارعة أحد الطرق الصحراوية وقد نزع من رأسها المخ، وبترت أصابعها العشر في مشهد مروع لا تستوعبه إنسانية وتجرمه كل الأديان، ولا زال البحث جار عن القاتل الحقيقي للأقلام.

زفر أنفاسه المتوهجة، وتطير رزازه الحانق وهو يلقي بالجريدة بعدما أحالها بقبضة يده إلى كومة من ورق مضغوط، نادى على أحد مساعديه منفعلا:

-لدينا قضية إما أن نحيا بعدها بكرامة أو نموت دونها بشرف.

